سعاد جروس

زقاقيات دمشقية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

سعاد جروس

زقاقيات دمشقية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

From Damascene Alleys

Souad Jarrous

First Published in July 2011
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-508-1

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

الصور الواردة في داخل الكتاب
من أرشيف مؤنس البخاري ـ مؤسسة دولفين

الطبعة الأولى: تموز (يوليو) ٢٠١١

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

الإهداء	٩
مقدمة: دمشق المتغيرة	١١
مدخل	١٥
غرائب وطرائف: أسماء أماكن دمشقية	٢٣
أساطير في رحاب الشيخ محيي الدين	٣٩
حارة اليهود .. أبواب موصدة	٥٥
مهنٌ في علم الماضي	٧١
هدوا خيامك وراحت أيامك	٩٣
لولا بردى لما كانت دمشق .. مرثية نهر	١٠٩
الخط الحديدي الحجازي ... تاريخ متعثر	١٢٣
المطبخ .. القطبة المخفية	١٣٩
مكتب عنبر موئل الوطنية الأول	١٥٥

مدرسة المحسنية تجربة علمية واجتماعية رائدة ١٧٧
سجن المزة .. تبادل أدوار ١٩١
مقاهي دمشق من (الروضة) و (ابو حشيش) إلى (روتانا) ٢٠١
السهر في دمشق ٢١١
مفهوم آخر للتسوق في مدن فقدت الدهشة ٢٢٥
فهرس الأعلام ٢٤٣
فهرس الأماكن ٢٤٩

إلى جلّق حاضرة الروم وبيت مُلْكهم، حصن الشام، وباب الكعبة، وجنّة الأرض، الفيحاء، الغنّاء العذراء.. شام شريف..

مقدمة
دمشق المتغيّرة

كتب الكثيرون عن دمشق: أدباء ورحالة ومؤرخون وعابرون ومقيمون.... عرب وأجانب. الآن، جاء دور الصحافية سعاد جروس لتكتب عنها.

حلّت سعاد في دمشق منذ نحو عشرين عاماً، وأقامت فيها من دون الانقطاع عن مدينتها قصير حمص. درست الصحافة فيها وعملت مراسلة لجرائد ومجلات عربية.

من حسن الحظ أنها لم تنظر إليها كمدينة استثنائية أو خارقة بين المدن. فلم تؤطرها بالغرابة والألغاز، أو تمنحها المزيد من الأسرار المختلقة، ففي دمشق ما يكفيها ولا تحتاج إلى الادعاء ولا توسل الأحاجي. وعلى

الرغم من الواقعية التي حكمت تحقيقات سعاد الصحافية، شاب رؤيتها لها قدر من الطرافة، ولمسات نفاذة، خاطبت الروح والقلب، فهي شاعرة أيضاً.

أولئك الذين كتبوا عن دمشق، كانوا أبناء زمانهم، سعاد بنت هذا الزمان، أتت في وقتها كي تقول شيئاً، وتضيف شيئاً، فدمشق لم تعد كما كانت، لقد اختُرقت. البعض اعتبرها جنة الله على الأرض في زمن كانت فيه أشبه بالجنة، وآخرون رأوا فيها مدينة منكوبة في زمن أسود داستها فيه جحافل الغزاة، وهناك من وجدها مدينة موصدة في وجه الغرباء، أو مغلقة لا تمنح نفسها للزائر العابر. ما أكثر الذين امتدحوها، وما أقل الذين طاوعهم الحسد فما استطاعوا إخفاء كراهيتهم لها. وفي الحالين، كانت مهوى الأفئدة، وما زالت، ومطمح وجشع الكثيرين، بحيث شكلت المسرح الذي دارت فوقه مطامع الدول الكبرى، وصراعات العسكر والأحزاب، وتضحيات الوطنيين، ومساومات التجار، وتنازلات السياسيين، ولا ننسى الانتهازيين. هذا الإيقاع لم يتغير على مسرح ما زال محتفظاً بحيويته وطزاجته.

كتبت سعاد جروس عن دمشق على طريقتها،، كما هي موجودة على الأرض يختلط فيها الماضي بالحاضر، فالتاريخ في جنباتها تسللت إليه الحداثة مصحوبة بأحياء عشوائية، فكان كتابها نفحة من هنا ونفحة من هناك. تأخذنا إلى الأسواق، وتتجول بنا في الشوارع، وتزيح دخان النراجيل عن المقاهي، وتتعبد في المساجد والكنائس، وتغوص في المهن والحرف السورية، وتتبضع

الأغباني، ونتذوق معها الطبيخ الشامي في السيارين على ضفة بردى، ونتسمع معها إلى نداءات الباعة الجوالين، تخالط المسلمين والمسيحيين في طقوسهم، ولا تنسى يهود دمشق قبل أن يرحلوا وما تركوه خلفهم بعد الرحيل. أزمنة تتساوق على خطوط متوازية تذهب إلى الهدف نفسه. قد لا تدري سعاد ما المقدار الذي كشفت فيه عن دمشق. الدمشقيون وحدهم يعرفون أنها تجاوزت الحدود المألوفة لمدينتهم التي لا تمنح الآخرين وجهها الحقيقي. لكن سعاد جروس ليست من الآخرين.

لأول مرة تقدم عاصمة الأمويين بهذه الصورة المثيرة والأخاذة والمضطربة: دمشق في خضم المتغيرات الحقيقية والباطلة تحت نير عولمة قاسية، لا تستطيع التمكن منها ولا إخضاعها، ثمة مرابع وزوايا وتاريخ يجعلها تتفرد عن غيرها بجمالياتها ويحمي خصوصياتها، ودائماً عصية على القبح والتعميم.

أغلب الناس لديهم مدينة، سعاد تسكنها مدينتان في داخلها: قصير حمص ودمشق، ولا يقل حبها لإحداهما عن الأخرى. دمشق كسبت ابنة بارة، كما كسبت سعاد مدينة ثانية.

فوّاز حداد

روائي

دمشق /أيار ٢٠١١

مدخل

هذا الكتاب جولة صحافية في أزقّة دمشق وفضاءاتها، لكنه أيضاً جزء من حياتي، إذ تشوبه شبهة شخصية لا أنكرها، فلا غرابة أن يجذبني الماضي تارة فأتورط في الحنين، وتارة أخرى تأخذني حيوية الحاضر فأغرق في تفاصيل التحولات المستمرة. وأحياناً تبدو جولاتي أشبه برحلة للتنقيب عن بعض ملامح دمشق ما قبل الإصابة بحمى السياحة حتى إلى ما بعد حلول عصر الاستهلاك من خلال عدد من التحقيقات الصحافية لا يجمع بعضها ببعض سوى الوفاء لدمشق.

هو جزء مما كتبته حول دمشق خلال مسيرتي المهنية وليس كله، ولطالما رفضت فكرة إعادة إصدار المقالات الصحافية في كتاب، لكن كونه هدية لمدينة دمشق، جعلني أعيد النظر في الفكرة، فهي لا شك مغرية.

الأمر لم يكن سهلاً كما ظننت للوهلة الأولى، فقد تطلب إعداد هذا الكتاب نبش كل ما كتبته ما بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٩، واختيار ما يبدو مناسباً، ثم إعادة صياغته في محاولة لتخليصه قدر الإمكان من الآنية التي تسم المقال الصحافي، وتدقيق المعلومات، فضلاً عن تفاوت المستوى المهني والروحية التي أعددت بها تلك المواد بسبب تأثير عاملي زمن الكتابة ووسيلة النشر، والعمل مجدداً كي يأتي جمعها بين دفتي كتاب منسجماً إن لم يكن متناغماً. في البداية فكرت بأن تقتصر الاختيارات على التحقيقات التراثية، لكنني وجدت فائدة في ضم تحقيقات ترصد التحولات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الدمشقي كجزء مما طرأ على المجتمع السوري عموماً من بداية عام ٢٠٠٠ ولغاية الآن، فكان إلى جانب موضوعات عن الأسماء الطريفة والأحياء الشهيرة، مواضيع عن المقاهي والتسوق والسهر .. إلخ

التحقيقات الأولى جاءت عن الأماكن التي طالما تغنى بها الأدباء والشعراء، فرأيتها بعين المحب عن سابق تصور، يخطها هاو يكتب مشاعره وتفاعله مع ما قرأ ومع ما يحلو لمزاجه، لينشرها في صحف، أما التحقيقات اللاحقة فقد جاءت بعين راصد لظاهرة ما مستجدة، وما كان ذلك تحولاً بل تطوراً فرضته متطلبات المهنة. لكن سابقاً ولاحقاً كانت قناعتي تزداد بأن دمشق ليست مدينة جميلة بأحيائها القديمة المتكئة بعضها على بعض، ولا بطابعها الأثري الموغل في القدم، بل بتراثها الاجتماعي المستمر على قيد الحياة، والذي يتجلى في علاقات حميمة بين الناس، بكل ما تعنيه من دماثة ولطف وظرف، تجعل التعامل سلساً مريحاً، فهي مدينة قد لا نقع فيها على منظر معماري مبهر في صنعته، ولا أثر تاريخي أكثر بهاءً مما هو موجود في عواصم

أخرى عريقة، بل قد تبدو منهكة أمام عواصم البلور الناهضة على الرمال، إنما هي مدينة تتميز بمجتمعها المستقر، المتصالح مع تنويعاته المتناقضة، ما يجعله نموذجاً فريداً في العيش والتعايش.. ما يتوفر في المجتمع الدمشقي لا يتوفر في غيره وهو التقاء الخصوصية المدينية مع الحميمية الريفية في فضاء جاذب يتسع للجميع.

وأنا أعمل على إعداد الكتاب وجدت نفسي أعيد قراءة علاقتي مع دمشق، فاكتشفت أي مكانة تحتلها في نفسي، ولماذا يذوب قلبي كلما سمعت فيروز تشدو بكلمات سعيد عقل:

أنزلت حبك في آهي فشددها طربت آها فكنت المجد في طربي

في دمشق، حين كانت مسارب الصحافة ضيقة، سلكت طريق الكتابة الصحافية، واتخذتها مهنة في أيام جفافها، فتلازمت دمشق والصحافة اللتين سيرتبط بهما قدري؛ دمشق المسرح الذي يؤمه الممثلون لتأدية أدوارهم في الحياة، والصحافة بوسائلها الشيقة والشقية وما منحته لتجربتي من معنى.

إلا أن الإعجاب والانحياز لمدينة ذكية كدمشق لم يأت بعد الانخراط فيها، بل قبل ذلك. اكتشفت بعد مرور الزمن أني ورثت هذا الحب من والد لم يمل من إعلان انحيازه الكامل لمدينة نشأ وشب في أسواقها العريقة، في الخمسينيات، ولم يبدّل نأيه عنها لاحقاً في ولائه لها، ورغم زياراته النادرة لها، بقيت دمشق الماضي عامرة في خياله، وفي خيالي الطفولي.

جئتها طالبة جامعية، ولم أشعر بأنني وافدة عليها، أحببتها دون تماه، وحيث حللت فيها كان لي أهل وأصدقاء وأحباب طبعتهم

الشام بطابعها الخاص، بينهم دمشقيون أصلاء أكدوا فكرتي المسبقة عن مجتمع الشام، الذي جذبني إليه احترافه تبادل المودة والاحتفاظ بمسافة الخصوصية. ومعاملة المرء كما يريد أن يعامل، لا يعطي أكثر مما يسأل.... من يفهم دمشق يعرف أن سرها في تقدير الذكاء ومقت التذاكي.

في مساحتي الخاصة كان حبي لذكاء دمشق يزهو كما النغمات في موسيقى «رقصة ستي» يبشرني ابتهاجها بفرح يخفف ألم حزن لا بد منه، ومنغصات يومية تدفع إلى الكآبة حيناً وإلى الجنون بعض الأحيان، وفي كل الحالات والتحولات كانت دمشق الحضن الآمن والأفق المفتوح... كتبت عنها ولها كأني أكتب عني ولي. كلمات مهما بلغت دقة معانيها لن تعبر عن حقيقة مشاعري تجاه مدينة لا تنضب غواية العيش في كنفها.

بانوراما ـ دمشق الحديثة

أسواق دمشق ٢٠١١

ساحة المرجة ١٩١٢

ساحة المرجة ٢٠١١

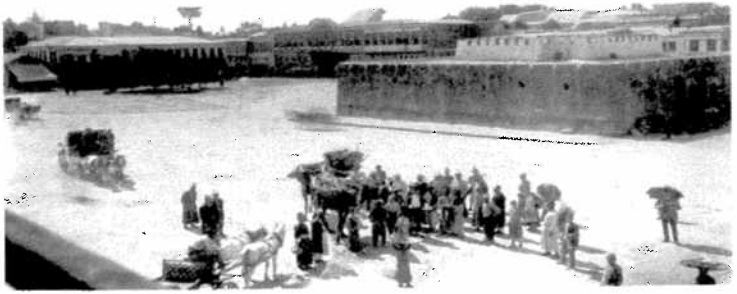

السجن في ساحة المرجة عام ١٨٩٤ تصوير شارلز سكوليك

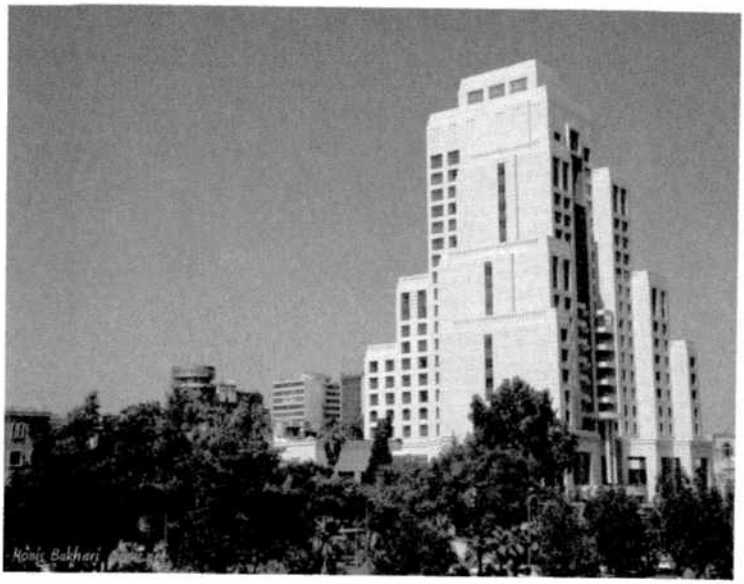

فندق الفور سيزن ويبدو فندق الشام ٢٠١١

بانوراما دمشق ٢٠١١

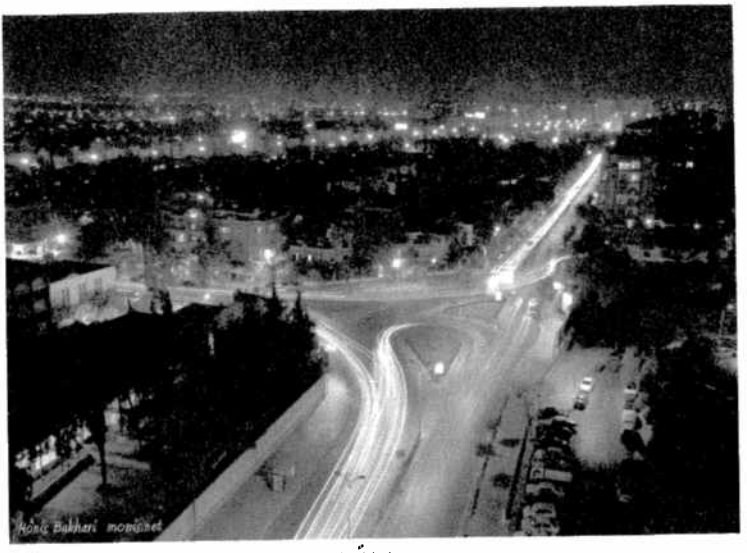

دمشق ليلاً ٢٠١١

حارة الشيخ محيي الدين بن عربي

غرائب وطرائف
أسماء أماكن دمشقية

الأسماء إشارات لعالم واسع، ومفاتيح لعالم أوسع، تدل إلى شخص أو مكان أو جماد... إلخ. في دمشق، ما اسم المكان سوى تكثيف لماهيته، ومسوغ للدخول في عالم اشتقاق وتاريخ وتسميات وألقاب. وهو سفر في عالم غني متخم بالحكايات الطريفة والتخيلات المثيرة، وهذا ما يمنح دمشق خصوصية روحية وإنسانية، ساهمت إلى حد بعيد في خلق هالة من الغرائبية، مثلت رافداً هاماً من روافد الخيال الشعبي والأدبي حوّم في أجوائها واختلط بتاريخها. المدن كالأشخاص فيهم التخيلي والمفتعل وفيهم الحقيقي والزائف. دمشق كالقاهرة ومراكش والقدس.. مدن حقيقية، تنبع حقيقتها من خصوصيتها الشديدة التنوع، ومن حدة تناقض هذا التنوع.

ولعل الخوض في تاريخ الأسماء كالدخول إلى مغارة علي بابا

المقفلة بالكلمة، ما أن تعرف كلمة السر حتى تنفتح مسارب الماضي وسيرة تحولات المكان، وتجلياته عبر الزمن. ألقاب دمشق عبر التاريخ كانت دوماً تعبر عن المكانة التي شغلتها في كل عصر، فهي (قاعدة سورية المجوفة) كما سماها الإمبراطور الروماني يوليانوس. و(حاضرة الروم وبيت ملكهم) في الجاهلية، و(حصن الشام) في صدر الإسلام، وأيضاً (فسطاط المسلمين، وباب الكعبة، وجنة الأرض، وقصبة الشام، والفيحاء، والغناء والعذراء إلخ) و(ذات العماد) التي يعتقد أنها (إرم ذات العماد) الوارد ذكرها في القرآن استناداً إلى فكرة أن من بنى دمشق هو جيرون بن سعد بن عاد بن إرم بن سام بن نوح. وأيضاً (شام شريف) كما لقبها الأتراك تقديساً لمكانتها الدينية والروحية، وهو ما حمل الغالبية ممن قصدوا دمشق على التغني بها، بل وغض البصر عما تحمله حاراتها وأزقتها من بؤس وفقر بكل مستوياته الروحية والاجتماعية والاقتصادية. وعلى الرغم من أن دمشق واحدة من المدن العربية التي شهدت أفظع صراعات السلطة وحفل رصيدها التاريخي بالدسائس والدم، تبدو وديعة طيبة رحيمة لدرجة البراءة. هذا الشعور يخلق الرغبة في الولوج داخل عالمها بلا تحفظ، والسعي إلى المغامرة وعيش كل مفرداتها الراهنة مع ما تحمله من قلق وصخب.

تَقَصي تحولات أسماء دمشق يمنح قارئها متعة اكتشاف أسرار تكونها منذ آرام حتى اليوم، فهي (رأس بلاد آرام) في العهد الآرامي، ومدينة (نعمان الأبرص الآرامي) قائد جيوش آرام، و(بيت رمون) نسبة إلى هيكل رمون اللودي. ومدينة (المسرة) و(العازر) خادم إبراهيم الخليل. وجيرون أو (حصن جيرون) حسب التسمية الكنعانية أو اليونانية. وهي أيضاً (ديمترياس) نسبة لاسم الجالية

اليونانية التي ألحقت بالمدينة. وهي (جلق) الاسم الذي ذكره كل من أرخ لها.

كل ما سبق من ألقاب وتسميات يتمثل في اسم ولقب (الشام) الذي التصق بدمشق على مر العصور. فكانت المدينة ذات الوجوه المتعددة، مدينة الياسمين والعشق وقاسيون والأموي والشيخ محيي الدين والسوق الطويل وحارة الورد والنقاشات، والنعنع والرمان، والشادروان والنوفرة.. هي أيضاً مدينة الخراب والطنابر والكلبة والقط والجردون والمعمشة والميلة والقعاطلة والمزابل وقليط وخبيني وخود عليك والله كريم... إلخ من تسميات تثير الفضول لاقتفاء سيرتها.

تشبيهات وكنايات

كل زقاق في دمشق وكل حجر فيها أو زاوية، ممر عبور نحو مجاهل المدينة الأقدم في العالم التي لا تزال مأهولة بالسكان. وفي الدعوة إلى النبش في تاريخ أسماء أمكنتها متعة كبيرة لما فيها من طرافة وبالأخص منها التشبيهات والكنايات الغريبة كاسم زقاق «مطرح ما ضيع القرد ابنو»، وزقاق «الولاويل»، أو جامع التوبة، أو حارة الخمارات... إذ لكل اسم حكاية، وكل حكاية دعوة للاكتشاف، ضمن حالة من الاستلاب السحري تؤلف زمنها الخاص ما بين الآن والأمس القريب والبعيد.

الطرافة في تسمية الأماكن الدمشقية جزء من طرافة الدمشقي، المعروف بالدماثة واللباقة المبالغ فيها، وهو ما يتعارف عليه بـ(الدمشقة)، لكونه ابن بيئة تجارية منفتحة اعتيادياً على الغرباء، وربما ليس من السهل التعرف إلى مشاعر الدمشقي الحقيقية تجاه

الغرباء، لأنه يخاطب الجميع كأنهم من أهل بيته، فيمنح الغريب شعوراً بالألفة دون أن يضطر لبذل جهد يتجاوز المعسول من الكلمات. من هنا تبدو غالبية الأسماء الطريفة للأمكنة الدمشقية نابعة من قصص تعبر عن الخصوصية الدمشقية. زقاق القرد مثلاً سمي بذلك كناية عن ضيقه وإذا ما سألنا دمشقياً عن سبب هذه التسمية أجاب إنه: «زقاق مدخلج، فيه فوتات وطلعات وزواريب وزوابيق» أي أن هذا الشارع كثير التعرجات والتقاطعات الضيقة، يكاد الإنسان يضل فيه سبيله. وكما للقرد زقاق في دمشق، هناك أيضاً حارات للكلبة والجردون والقطط. وحارة الكلبة الواقعة داخل حارة المفتي بسوق ساروجة. وسبب التسمية كما تذكره العامة، لأن كلبة ولدت جراءها فيها. أما حارة القط الواقعة جنوبي حي الأمين بمحاذاة السور من الداخل فكانت تسمى قديماً (بستان القط) استمر حتى الثلث الأول من القرن العشرين، كما ورد في خريطة شرطة دمشق (١٩٢٢ ـ ١٩٢٤)، وهناك من يعتقد أن نسبة البستان تعود إلى اسم العائلة أو لقب شخص، ولا علاقة لها بالقطط. ورغم أن العامة يرفضون ربط اسم الحارة بالقط بمعنى الهر، فهم يسمون حارة أخرى قرب جامع الورد في سوق ساروجة (حارة الجردون)، لكن لم تُدوّن أسباب تسميتها تاريخياً سوى ما يتبادر إلى الذهن من قصص مبتدعة ترتبط بمواصفات جردون استحق أن يسمى حيّ باسمه!! بعكس ما قد نلمسه في (حارة الزط) التي جاءت تسميتها بناء على تركيبتها الاجتماعية! فهذه الحارة الواقعة في الشاغور الجواني والممتدة من الباب الصغير حتى شارع الأمين، كانت مسكونة من قبل جماعة الـJAT وهم من الشعوب الهندو أوروبية يدينون بالهندوسية، ومنبعهم من الهند شرقي البنجاب بين مدينتي أكرا ومهترا. وقد هاجر بعضهم إلى الشرق الأوسط. وسمعة الزط وضيعة في

المجتمعات العربية حتى يضرب المثل بحقارتهم وخستهم، إذ تعدّ كلمة الزطي من الشتائم الفادحة، ومن تهكمات الدمشقيين المثل الشائع (طلع من بيت الزط مؤذن)، والمفارقة أن هذه الحارة اليوم تدعى (جادة الإصلاح)!!

تلك التسميات التي تحمل معاني سلبية تعكس إلى حد ما سمات المكان رغم أن دلالات التسمية في ظاهرها قد لا تتوافق مع أصل اشتقاقها، فسوق قميلة التي يظن للوهلة الأولى أنها مشتقة من قمل تبدو عكس ذلك رغم معناها السلبي، وسوق قميلة القريب من سوق النسوان ورد ذكره في عهد المماليك في القرن التاسع للهجرة في رسالة /نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق/ لمؤرخ الشام يوسف بن عبد الهادي، إذ قال: سوق البيمارستان أو سوق برا أو سوق قميلة، الثلاثة أسماء لسوق واحد تحت القلعة تباع فيه الخلقان. وفي العصر الحديث حُرِّف اسمه ليصبح (ميله) وتستعمل هذه الكلمة كناية عن البضاعة الرديئة فيقال بالدمشقية الدارجة «إي شو جايبه من سوق ميله»، وتحول هذا الاسم مع الأيام إلى مصطلح يراد به سوق الألبسة المستعملة البالة ليصبح سوق (أبو ميله).

ومن التسميات المستطرفة في دمشق ما أطلق على بعض المقاهي مثل (قهوة خبيني) بآخر سوق القباقبية تجاه مقهى النوفرة خلف الجامع الأموي. وأصل تسمية خبيني قديم وسبق أن أطلقت في القرن الثاني الهجري على مقهى غربي التكية المولوية عند ساحة الحجاز اليوم، وشاعت هذه التسمية الشعبية بين الناس في العهد العثماني زمن الاتحاديين الأتراك، حين كانت السلطة تعمد إلى لملمة الشبان من الشوارع لسوقهم إلى الخدمة العسكرية أيام

حرب (السفر برلك)، على أساس مبدأ القرعة، وكان ضابط مفرزة السوق أو الأخذ عسكر (الشاويش) يعتمر قبعة طويلة من اللباد الملقب أبو لبادة، فاقترن اسمه بالخوف .. وللدلالة على عبوره السوق يصرخ الناس عباية ..عباية حتى يتمكن الشبان من الهرب، فأطلق على المقهى تسمية (خبيني) للجوء الشبان إليه طالبين الملاذ، قائلين لمن بها: خبيني. وتكاد تتقاطع ظروف قصة تسمية (قهوة خبيني) مع قصة (قهوة الله كريم) من حيث الطرافة إلا أن الأخيرة كانت للمتفائلين بغد أفضل، بينما خبيني هي مقهى الهاربين من مستقبل مشؤوم. وتقع قهوة الله كريم بقرب جامع يلبغا في محلة البحصة، معظم روادها من ضباط الجيش العثماني المتقاعدين من الذين تم تسريحهم بعد خلع السلطان عبد الحميد، وكان هؤلاء كلما مر من أمامهم ضابط شاب بزيه العسكري المهيب وشاراته وأوسمته المذهبة يقولون مع تنهيدة: «أيه ... الله كريم» أملاً بعودتهم إلى الخدمة ورجوع أيام العز السابقة برجوع السلطان. بينما (قهوة خود عليك) في منطقة الشادروان على طريق بيروت القديم، كانت تحتل ضفة نهر ثورا، وسميت (خود عليك) كناية عن ازدحامها، حيث يطلب الداخل إليها مكاناً من الجالس بالقول، وسع لي مكاناً بجانبك أي (خود عليك). وقد زال أثر هذا المكان بعدما احتلته المقاصف والمطاعم بشكلها الحديث وتغيرت ملامح المدينة.

حكايات وتسميات

ومما يشير إلى توقد الروح الدمشقية في اختراع تسميات أماكنها تسمية (مقهى التايبين) الواقعة عند مفرق المزة من ربوة دمشق، وعدم وجود ألعاب قمار في صالتها، جعل روادها يطلقون عليها

اسم التايبين تأثراً بلقطة سينمائية في فيلم (امرأة تسكن لوحدها) لدريد ونهاد الذي ظهر في السبعينيات. والتصقت هذه التسمية بالمقهى حتى هدمه لإقامة عقدة جسر الربوة عام ١٩٧٦م.

ومن الأماكن الدمشقية التي حفلت بروايات الخيال الشعبي زقاق (الجن) الشهير اليوم بصفته سوقاً صناعياً لبيع قطع تبديل السيارات. تعيد العامة سبب التسمية إلى أن المنطقة كانت مسكونة بالجن قبل أن تعمر، وكان الجن ينشرون في أجوائها العطر والبخور. وربما يعود سبب هذا الاعتقاد إلى كون المنطقة كثيرة الرياح لوقوعها على ممر الريح بين جبلي الربوة والمزة؛ عندما تحرك الرياح أشجارها العالية، تُصدر أصوات حفيف تشبه الهمهمة والصفير. وكان لبعض الحوادث التي جرت مع المارة أثر في ترسيخ الاعتقاد بوجود قوى خفية في المنطقة، كسقوط أغصان الأشجار. وثمة أخبار تفيد بأن الناس كانوا يتجنبون العبور في هذه المنطقة خوفاً من الجن، مما شجع السفهاء والحشاشين على اللجوء إليها وممارسة حياتهم الليلية فيها، ما ثبّت اسم الجن على هذا الزقاق، وشجع على نسج تخاريف تلهب الخيال، وتمنح المكان هالة من الغموض والرهبة، كما قد تفعل مثلاً تسمية (حبس الأموات) لأحد الأزقة في العمارة الجوانية، وقد أطلقت في البداية على المدرسة الناصرية الجوانية، وشاع لقب حبس الأموات في عصر عبد القادر بدران حيث كان يحبس فيها من يموت وعليه دين، لا يفرج عنه حتى يتطوع الناس لسداد دينه.

تناقضات

وهناك العديد من الأمكنة ذات التسميات التي تحمل دلالات ومعاني سلبية، تبدو غير منسجمة مع روح دمشق المشهورة

بالورود والياسمين مثل (حارة المزابل) بحي العمارة الجوانية، وقيل إن تسمية هذه الحارة تعود إلى الفترة التي أقام فيها الأمير عبد القادر الجزائري قصراً في الحارة أوائل القرن التاسع عشر، وكان لهذا القصر جسر خشبي على فرع نهر العقباني يصل بين زقاق النقيب حيث القصر وبين حي الشرف الأعلى، وكانت بقرب الجسر أرض خلاء استخدمت لمزابل القصر. لكن أواخر القرن التاسع عشر صارت هذه الأرض حارة وأقيمت فيها المتنزهات على طرفي النهر. وحارة المزابل تستدعي للذهن التأمل في أصل تسمية (حارة القعاطلة) الواقعة قبالة الباب الشرقي شمالاً، تنسب هذه المحلة إلى موقع بيت (نعمان الآرامي) رئيس جيش ملك آرام بنحدد الثاني، وقد ورد في الكتاب المقدس أنه أصيب بالجذام أو البرص، وشفي على يدي النبي اليشاع بعد اغتساله بمياه نهر الأردن، والعديد من الرحالة والمؤرخون العرب والأجانب أشاروا إلى أن مكان هذا المنزل أقيم مصح للجذام، واليوم لا أثر لذلك المصح، بينما ظلت التسمية التي هي أساساً مشتقة من لفظة عامية (أعطلة) وتعني القذارة ويستخدمها الدمشقيون تفكهاً كناية عن العمل غير متقن.

ضمن السياق ذاته لأسماء الأمكنة ذات الدلالات المكروهة تسمية (نهر قليط) الفرع الصغير لنهر بانياس المتفرع عن بردى، المار قريباً من الباب الشرقي، ودعي (قليط) لما يحمله من أقذار ونفايات حتى ليضرب المثل بوساخته فيقال (فلان مثل قليط إذا حركته بتطلع ريحته). وهناك أيضاً زقاق البرص الذي يثير مشاعر سلبية مع أن الباحثين يردون اسمه الغريب إلى عدة اشتقاقات متناقضة المعنى منها بَرص، وبورص، بوس، وهو زقاق متعرج يقع بين سوق الحميدية والبيمارستان النوري، وذكر في خريطة شرطة

دمشق زقاق البوس، البعض يعتقد أصل التسمية من كلمة بورصة سوق الأسهم المالية، ومنهم من يقول إنها من البرص جمع أبرص وهو داء البهق، بينما فسرها فريق آخر بأنها من البوس بمعنى التقبيل، وكلها تفسيرات لا مستند تاريخي موثق لها .. أما زقاق (الولاويل) الذي يولد العديد من الأفكار والقصص الخرافية، فيقال أن اسمه زقاق الزعاويط ويعتقد أنه في حي الميدان، وهو كاسمه حيّر الباحثين بتحديد مكانه أو سبب تسميته، كما هو الأمر مع زقاق المعمشة وزقاق البلطجية وسوق الشراطيط إلخ. إلى جانب تسميات كثيرة يصعب حصرها في مقال واحد كحي الطنابر في محلة الشيخ محيي الدين في الصالحية التي كان أغلب سكانها من أصحاب الطنابر، «الطنبرجية».

دمشق لم تتجمل ولم تخفِ فقرها بل قدمته بطرافة خاتلت من خلاله الواقع، فظلت مدينة تحفل بدلالات ومعانٍ تعبّر عن حالة مختلطة، يصاب بها من يعايش دمشق اليوم، فهي بين ثقل الموروث الهائل بكامل تجلياته وبين التوق للحاضر والقفز إلى المستقبل كحاجة يفرضها عصر الاتصالات والانفتاح... لم تتضاءل بما هي مدينة للورد والمياه، حتى بعد جفاف غالبية أنهارها وتبدل ملامحها، ولعل شهرة دمشق بالمياه والخضرة بالإضافة إلى جمال نسائها جعلتها أقرب ما تكون إلى الجنة كما وصفها الشعراء، فحارة الورد والخضرا والزيتون والرمان وجناين الورد وجنينة النعنع والفردوس والروضة والجسر الأبيض تسميات حية وشائعة تعبر عن ملامح جمالية رفيعة تصور الملمح الدمشقي الذي استقطب الكثيرين. وقد تبدو هذه التسميات مجازية تطلق على بعض الأمكنة دونما مستند واقعي، لكن لا يمكن تجاهل تاريخ ولادة تلك التسميات، فحارة الورد سميت نسبة إلى حكر

الورد الذي كان في موقعها ورغم تبدل اسم هذا المكان في العهد المملوكي، عاد اليوم ليمتزج مع الحارة في أهم معالمها كجامع الورد وحمام الورد. وكذلك قصة تسمية جناين الورد في محلة القصاع، أما جنينة النعنع في محلة شرقي التكية السليمانية، والتي قام مكانها مرأب للسيارات، فكانت معروفة في الثلاثينيات من القرن العشرين بثلاثة أسماء تدل على سمات تلك الجنينة. فهي جنينة النكلة وهو ثمن تذكرة الدخول إليها، وهي أيضاً جنينة النسوان لأن روادها فقط من النساء، إلى جانب تسميتها بجنينة النعنع لأنها قامت على أرض بستان اشتهر بزراعة النعنع. وما تزال هذه التسمية شائعة على المنطقة رغم زوال الجنينة كما هو الأمر بالنسبة للجسر الأبيض الذي كان مبنياً من الحجارة البيضاء على نهر ثورا، بين محلة الصالحية والعفيف، ومع أن الجسر غير موجود لا تزال التسمية مستخدمة على منطقة تحولت إلى سوق تجاري، وقد عرفت هذه المنطقة ببدايات القرن الماضي كبساتين فاكهة وبالأخص الدراق. ومن بساتين الجسر الأبيض إلى شلالات منتزه الشادروان تقودنا دمشق نحو مزيد من شغف الماضي، فكلمة (الشاذروان) فارسية تعني الميزاب أو المسيل الصغير وسميت بالشادروان لكثرة ميازيب المياه فيها.

دمشق الريابة

دمشق مدينة العشق والفل والياسمين وجنة المياه والفاكهة كما وصفت، تحير الكثيرين المقيمين والوافدين والعابرين، فرغم توسعها الهائل المنظم والعشوائي لا زالت تحتفظ في ثناياها بالمفاجآت والأسرار الجميلة المثيرة للخيال، فعند العبور في الشوارع الجديدة للمدينة تبدو مدينة حديثة تسابق الزمن من

حيث التنظيم والاتساع وانتشار المحال التجارية بواجهاتها المبتكرة وارتفاع الأبنية البرجية، وغلبة الفوضى على نمط العمارة بحركية قلقة لا يمكن فصلها عن سمة العصر، لمدينة في العالم الثالث بدأت بالانفتاح السريع على أرجاء المعمورة. وعند اجتياز خط البناء الحديث على طرفي الشوارع الكبيرة يتصاعد نبض دمشق العتيقة، حيث لا يمكن الغريب عن دمشق خلال عبوره أتوستراد المزة توقع وجود بساتين الصبار خلف العمارات الإسمنتية الممتدة على جانبي الاتوستراد، فما أن يجتاز الأحياء المترفة يواجهه ريف فقير. وكذلك شارع بغداد الذي يتوسط دمشق، غالبية دخلاته وعوجاته تقود إلى حارات قديمة من خشب وطين. وأيضاً شارع الثورة وأتوستراد العدوي والعباسيين .. وكأن دمشق لا تملك القدرة على تجاوز الماضي بأجزائها الفقيرة التي ما تزال تتنفس بها ومن خلالها.

دمشق اليوم بنسيجها المعماري والاجتماعي المرتبك، يبدو من المألوف فيها وجود شرائح من الشباب المنفتح على ثقافات العالم الأخرى والتواق إلى تمثيلها بالعديد من المظاهر الخارجة عن التقاليد الدمشقية. فمن طرف، بوتقة الأحياء القديمة بعمارتها شديدة التحفظ، ومن طرف آخر، عمارة خجولة من إرثها؛ كأحياء القصاع وباب توما والصالحية. وعلى النقيض تماماً قد يسكن الأحياء الحديثة بعمارتها المنفتحة شرائح اجتماعية نزحت من دمشق القديمة ومعها الماضي بتقاليده الصارمة، وخصوصيته الدمشقية الاجتماعية الأصيلة كالمزة الغربية وأبو رمانة والمالكي... وبين النقيضين يمتد جسر من التواصل بأمكنة تستوعبهما معاً في علاقة جدلية بين الماضي والحاضر اجتماعياً ومعمارياً.. يأخذ فيها الوافد المكان العتيق بينما ينزح الدمشقيون إلى مدينتهم الجديدة.

هكذا دمشق الآن، قطعة موزاييك سياحية لها من الماضي الاسم والشكل، المشغولان بمواد هجينة تلفت الأنظار وتستثير الرغبة لتلمسها والتعرف على خاماتها.

ولقد اتسعت دمشق وامتدت لتحتوي أريافها، بسواعد من أحياء حديثة تغطي الأعداد الكبيرة من الوافدين إليها من عرب وسوريين مهجرين ونازحين ريفيين أو أبناء مدن أخرى، فكانت مدينة من طراز المدن الكبرى، لغناها وتنوعها الجغرافي والاجتماعي، ولم تعد أرياف دمشق مناطق نائية، بل هي أحياء تم التواصل معها بحراج من أسمنت وحديد، كمشروع دمر، وقدسيا وحرستا والقابون وجوبر وجرمانا والمخيمات. إلخ، لتصبح اليوم تجسيداً للقب الشام بكل ما لهذه الكلمة من اتساع جغرافي، تتمتع بقدرة كبيرة على امتصاص تلاوين الوافدين إليها ومنحهم لوناً آخر يكاد يتوارى فيه اللون الدمشقي الأصيل، ضمن نسيج اجتماعي خليط يتحدث بلهجة شامية منكهة بالدمشقية. ومهما بدت دمشق تواقة للغد لا يمكنها التخلي عن ماضيها.

لم تعد دمشق تلك المدينة الساحرة، بقدر ما هي الشام الريابة كمسرح واسع يؤمه الممثلون والجمهور من كل حدب وصوب، تخبئ تاريخها في الكواليس، ومن هناك تدير خشبة المسرح وتصنع الأحداث وتسمي الممثلين، تتواطأ معهم، يمنحونها أنفسهم، فتمتعهم بروحها كأنهم امتلكوها. لكن دمشق هي جيرون وجلق وشام شريف، لا يملكها أحد، تبقى ملكاً لنفسها، مهما تعاقب على خشبتها الممثلون.

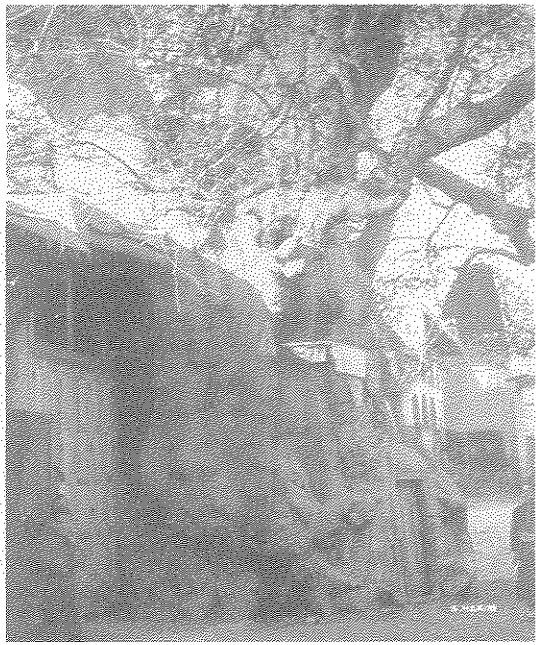

ساروجة تصوير سليمان الحكيم ١٨٩٠

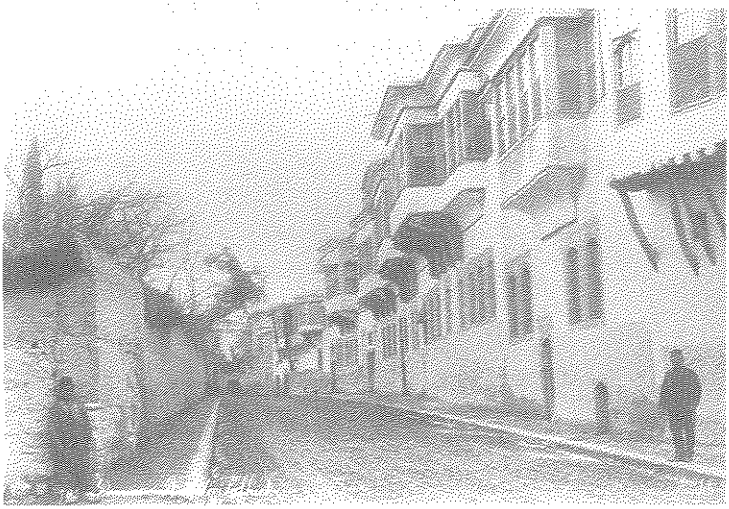

الصالحية ١٨٨٠ تصوير سيسون بونفيس

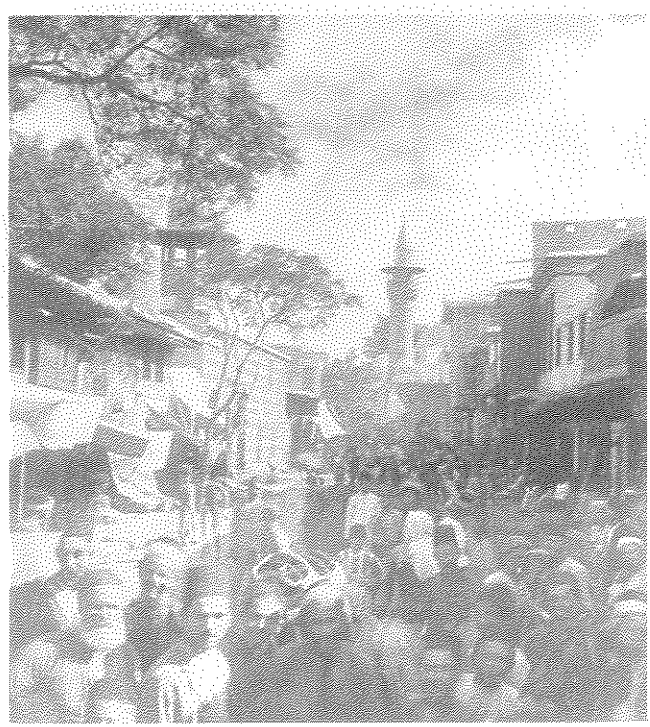

الدرويشية عام ١٨٩٤ تصوير شارلز سكوليك

حارات دمشق

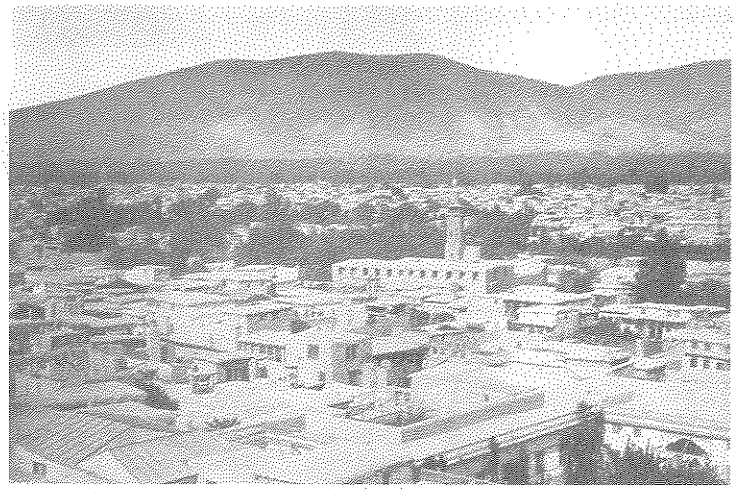

دمشق عام ١٨٧٠ تصوير تانسريد دوماس

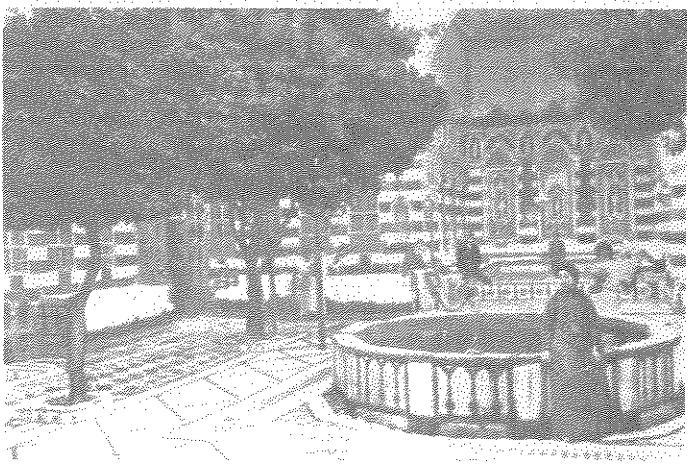

رسم لدارلزبونة في حارة اليهود

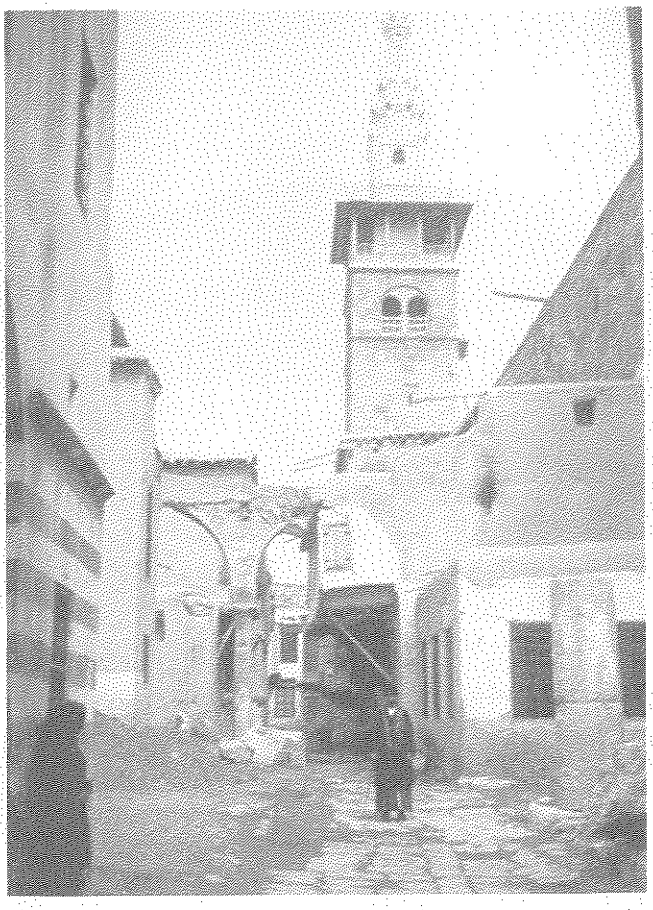

الكلاسة تصوير أنونيم فرانسيس ١٩٠٠

أساطير في رحاب الشيخ محيي الدين

تشير المراجع التاريخية إلى أن المنطقة حيث يقوم ضريح ابن عربي تعرف بمنطقة الصالحية، وقد بناها (المقادسة)، وهم جماعة وفدت من القدس إلى دمشق وتوطنت بداية حول جامع أبو صالح في منطقة باب شرقي، ثم انتقلت إلى المناطق الجبلية على سفح قاسيون، بعد تفشي مرض الطاعون بين أفرادها وهناك بنوا الصالحية، في العهد الزنكي.

قسمت المنطقة إلى قسمين، شمالي نهر يزيد وجنوبية، فكانت المنطقة الشمالية بعلية، توطن فيها الفقراء، والجنوبية مروية خصبة جعلها أغنياء دمشق متنزهات لهم في ذلك الحين. من أهم الملامح الحضارية في تلك المنطقة المدرسة العمرية، إذ تعرف هذه المنطقة بغناها بالمدارس التي ترجع إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين، ويتجاوز عددها الـ ٣٠٠ مدرسة جميعها لتعليم

القرآن، ومن معالم المنطقة مستشفى القيمري المبني في القرن السادس وهو أقدم مستشفى شاخص حتى اليوم في العالم، وما زال يستعمل مركزاً صحياً، إلى جانب جامع الحنابلة الذي يعود لعام ٦١٠ هـ وكذلك مسجد الشيخ محيي الدين المبني جانب الضريح، على ضفاف نهر يزيد الذي جف ولم يبق منه اليوم سوى آثار لناعورة متآكلة.

في الطريق الى حي الشيخ محيي الدين يمكن أن نرى شيخاً يأخذ قسطاً من الراحة تحت النوافذ القديمة، متسولاً يشق طريقه نحو الجامع. رائحة خبز التنور ولفيف حكايات، ترسم ملامح مكان نقصده من الشارع الفرعي الواصل بين منطقة الجسر الأبيض وحيّ الشيخ محيي الدين .. تنهب الخطى حجارة سوداء تتراصف نحو الشارع التاريخي، حيث يقوم سوق الشيخ محيي الدين، في منطقة الصالحية المستلقية على سفح قاسيون، والتي أضحت اليوم حياً أحياء دمشق الشعبية. في هذا المكان لا روعة معمارية ولا جماليات فلكورية، كما هي الحال في الحارات الدمشقية الواقعة ضمن السور القديم للمدينة، كحي النوفرة حيث الجامع الأموي، والقيمرية، ومكتب عنبر، وأبواب توما والشرقي والجابي والبريد إلخ. في حي الشيخ محيي الدين تحضر الأسطورة، تسلب العقل قبل أن يأخذ إغفاءته الجميلة. مع ابن عربي المدثر بالمعجزات، تنفتح آفاق الحلم ليصبح أقوى من الواقع، كما هي في معتقدات أهل الحي.

ابن عربي

ساهم التداول الشفهي لأخبار ابن عربي وتناقلها عبر الأجيال في خلط الأحداث وانتفاء الدقة والوقوع في مغالطات تاريخية كبيرة

مثل حكايته مع ابن الفارض وأيضاً ما يشاع بين العامة من أن ابن عربي عاش في بلاد الشام وهو في سن ١٥ فيما الكتب التاريخية الموثقة تثبت أن الشيخ محيي الدين بن عربي هو أبو بكر محمد بن علي الطائي الملقب محيي الدين من أحفاد حاتم الطائي، ولد في مرسية عام ٥٦٠هـ. وتروي الكتب سيرة انتقالاته بين الشرق والغرب، فقد ارتحل من مرسية سنة ٥٦٨ هـ إلى إشبيلية مع عائلته والتقى فيها مع ابن رشد مرتين، وذكر الحوار الذي دار بينهما في فتوحاته المكية. غادر إشبيلية في ٥٩٨ هـ متوجهاً إلى المشرق. وكانت أولى محطاته في مراكش حيث صادف وفاة ابن رشد. نزل بجاية، في الجزائر اليوم، وفيها رأى مناماً أنه تزوج جميع النجوم والكواكب.. ثم أضيفت إليها الحروف فتزوجها كلها أيضاً.. ثم توجه إلى مصر وأقام في زقاق القناديل، بجوار مسجد عمرو بن العاص، وهناك تلقاه العلماء ورجال الفقه بالجفاء، فلم ينالوا من مكانته شيئاً. حل بالحجاز من ثم مضى إلى العراق حيث اجتمع بالشيخ عمر السهروردي، الذي قال عنه: إنه بحر الحقائق، أما ابن عربي فقال عن السهروردي: إنه مملوء سنة من رأسه إلى قدمه. من الموصل توجه ابن عربي إلى حلب، ثم صعد الأناضول. من ثم عاد إلى حلب واجتمع بحاكمها الظاهر غازي بن صلاح الدين، وكان الشيخ يعرض على السلطان حوائج يقدمها أهل حلب فيقضيها كلها، مع أن في هذا السلوك مخالفة لخط المعارضة الصوفي. استقرت رحال الشيخ في دمشق ولم يغادرها حتى وفاته سنة ٦٣٨ هـ ١٦ تشرين الثاني ١٢٤٠ م عاش مع زوجته مريم وولديه سعد الدين وعماد الدين. وفي رسالة لعلي بن كمال الدين أبي المنصور الأزدي الأنصاري وصف للشيخ محيي الدين يقول: «رأيت في دمشق الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي وكان من أكابر علماء الطريق، جمع بين

العلوم الكسبية، وما وفر له من العلوم الوهبية، ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة، وكان غلب عليه التوحيد علماً، وخلقاً، وحالاً لا يكترث بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً».

ألف أبن عربي ٤٠٠ كتاب ورسالة ومؤلفه الأكبر (الفتوحات المكية) ضمنه ما فتح عليه من الأفكار في مكة وأقدم طبعاتها في مصر ١٩١٠ بتوصية من الأمير عبد القادر الجزائري. ومن أنفس مؤلفاته بعد الفتوحات (فصوص الحكم).

الراقد على سفح الجبل

جماهير من الدراويش والضعفاء والمساكين والفقراء وفاقدي الأمل، يقصدون ضريح الشيخ الراقد على سفح الجبل منذ مئات السنين، يلتمسون منه المساعدة والرجاء. ومن أجل هؤلاء نشأ في محيط الضريح واحد من أهم الأسواق الشعبية في دمشق، يقصده الناس من أنحاء عديدة، لخصوصيته الشديدة التنوع والغنى، والتفنن بطرق العرض واجتذاب الزبون، حيث يتبارى الباعة بالمناداة على بضائعهم المفروشة بإغراء سخي. خضر مفروزة ومرصوفة حسب الجودة والسعر، وكذلك الفواكه، والزيتون والمخللات والأجبان واللحوم والأسماك والحلويات، إلى جانب الملابس الرخيصة المكومة على البسطات والمتدلية من أعلى، بينما يتمدد على الأرصفة الزجاج المحلي والمستورد والمعلبات الأجنبية والبضائع المهربة، أدوات الكهرباء والأواني البلاستيكية.

سوق الألبسة المستعملة هو الأكثر حيوية، حيث ينفرد بزقاق فرعي مشمس، يختلط فيه الباعة مع الزبائن مع أكوام البضائع ضمن مشهدية صاخبة تتداخل فيها الألوان والأشكال والأصوات:

فهذا ينادي على البضاعة وذاك ينبش ليجد ما يناسبه وتلك تفاصل على السعر. شخص يلبس وآخر يخلع، والكل يحتكم لآلية احتفائية تتناغم مع طبيعة السوق الشعبية المشبعة بروائح الخبز والفول، و اللحم بعجين، والحلويات الشهية المنبعثة من الأفران ومطاعم الفول التي تشتهر بها المنطقة، وتتوقد نشاطاً صباحات أيام الجمع. فهنا يوجد أطيب طبق فول في مطاعم تعمل ليل نهار طيلة أيام الأسبوع، لأن حكمة الفقراء «إذا غاب الضاني عليك بالحمصاني».

إلا أن أيام الجمع لها خصوصيتها في هذا المكان حيث تبلغ الحركة أوجها في النصف الأول من النهار، بينما تخلد لسكون حلمي في النصف الآخر، بعد اختفاء شلالات البضائع، وغياب أي أثر للسوق سوى النفايات والأكياس الفارغة، وشخوص يعبرون بصمت كالأشباح لا يتعدى عددهم أصابع اليدين، يهيمون في رخاوة الهدوء. مشاهد تتراكم في الذاكرة اليومية لرسم منظر حلمي، حيث كل تفصيل يوحي بالخرافة. حتى شخوصها تبدو كحكايات تتحلق وتدور في حضرة الشيخ فيحدث مثلاً أن يكون صاحب بسطة، حاصل على ماجستير بعلم الآثار ودبلوم في التربية وآخر بالشرق القديم... و يعتقد أن باب رزقه لا ينفتح إلا جانب الجامع، قريباً من بركات الشيخ رغماً عن القانون، وملاحقات رجال البلدية، مع أن الإيمان ببركة الشيخ للرزق قد لا يمنع بائع البسطة المتعلم من التشكيك في صحة الروايات الشعبية المتداولة عن معجزاته، رغم المغالطات التاريخية.

يحكي أهالي المنطقة قصصهم الشعبية عن الشيخ ابن عربي بكثير من الوقار والهيبة كقصص مقدسة، لا يمكن المساس بصدقيتها،

وبنبرة إيمانية تحمل سامعها على تصديقها بعيداً عن المنطق. منها قصة لقائه مع ابن الفارض، وقصة أخرى تجمعه مع الحاكم العثماني في قونية وقصة بناء جامع الشيخ محيي.. ومما يقال أن جامع الشيخ محيي الدين الواقع في منتصف السوق بني في عهد السلطان سليم الأول ١٥١٨ م مع التكية السليمية نسبة للسلطان سليم، وأن سبب بناء الجامع في ذلك المكان يعود إلى أن السلطان سليم رأى الشيخ محيي الدين في منامه وأمره ببناء مقام له فوق الضريح، وعندما سأله السلطان عن مكان قبره أجاب الشيخ: اتبع بغلتك البيضاء وهي تدلك عليه.

والعرف الشعبي عن السلاطين المسلمين يفيد بأنهم عادة ما كانوا يقتنون بغلة بيضاء تيمناً بالرسول. وتقول الحكاية أن السلطان سليم الأول تبع بغلته البيضاء فدلته على المكان الذي يعتقد أن الشيخ ابن عربي قد دفن فيه منذ ٢٠٠ عام ولذلك يتداول العامة مقولة /عندما تدخل السين في الشين سيظهر سر محيي الدين/ والسين يقصد به السلطان سليم والشين تعني الشام. ومعنى المقولة عندما يدخل السلطان سليم بلاد الشام سينكشف سر الشيخ الجليل ويعظم شأنه بين العامة.

أما قصته مع ابن الفارض فتقول: كان ابن الفارض شيخاً مسناً وله قدرات خارقة لشفاء المرضى كالعميان والبرص والمعاقين بمجرد وضع اليد عليهم، وكان دائماً يسأل مريديه عما إذا صادفوا في سفراتهم إلى الحج شخصاً أنعم الله عليه مثله، فأخبره أحد زوار النبي ذي الكفل، بأنه رأى في بلاد الشام فتى في الرابعة عشرة من عمره أنعم الله عليه كما أنعم على شيخه. وضريح ذي الكفل الوارد ذكره في القرآن موجود في منطقة الصالحية، كان يحج إليه

من لم يستطع الحج إلى قبر الرسول. أرسل ابن الفارض تلاميذه ليتقصوا الخبر اليقين حول ذلك الفتى، ولما وصلوا الصالحية رأوا فتىً يخطب على المنبر وأمامه جمع كبير، فوقفوا مع الجمع وسمعوا ما يقول، فإذا بالفتى ينزل من على المنبر، ويدخل إلى حيث يجلس شيخ جليل ذو لحية بيضاء، فقبل الولد يد الشيخ وقال له مقسماً: والله وعزته وجلاله لأجعلن الناس تذكر اسمك قبل اسمي، ـ وهناك من يعتقد أن هذه المنطقة تنسب للشيخ الذي علّم محيي الدين بن عربي، ولذلك يقال منطقة شيخ محيي الدين أي منطقة شيخ الشيخ محيي الدين ـ وعندما خرج الفتى إلى الناس أعطوه مصحفاً مبللاً بالزيت، فغمسه بماء البحرة فإذا به يخرجه منيراً، وعندما رأى مريدو ابن الفارض ذلك، عادوا إلى العراق وأخبروا شيخهم بما شاهدوه وقالوا له: لقد رأينا في الصالحية فتى في الرابعة عشرة من عمره أنت لا تبلغ نقطة في بحره.

فعزم ابن الفارض على السفر إلى بلاد الشام للقاء الفتى. ولدى وصوله إلى الصالحية هطل مطر غزير، فاحتمى في رواق أحد البيوت، وهناك سمع أماً تهدد ولدها الصغير ليتوقف عن البكاء: اسكت وإلا سيأتي عمر بن الفارض من الرواق و يأكلك. دهش ابن الفارض وسأل نفسه كيف عرفت تلك المرأة بوجودي في الرواق، هل تمتلك تلك المرأة ما امتلكه من نعم في كشف الغيب؟. تابع ابن الفارض سيره، إلى أن وجد فرناً فدخله، حيث شاهد العجّان يعمل في ضوء السراج، سمعه يقول لسراجه لقد توهجت أكثر عندما حضر عمر بن الفارض. تعجب عمر وسأله: وكيف عرفت أنني ابن الفارض؟ رد العجان: كل ونم ثم ارحل، لا تسأل يا عمر، فقد أعطاني الله كما أعطاك. فعل ابن الفارض

كما أمره العجان. وصباحاً تابع سيره حتى وصل إلى منطقة السكة في بلاد الشام، حيث رأى أربعين رجلاً كل واحد صار يشده نحوه ويطلب إليه المكوث عنده .. وهكذا حتى أغمي على ابن الفارض، وعندما صحا وجد نفسه في حديقة على ضفة نهر يزيد (أحد فروع نهر بردى ويمر من خلف جامع الشيخ محيي الدين)، وفتى يرشه بالماء ليصحو، قال له عندما فتح عينيه: ما بالك يا عمر؟ فسأله ابن الفارض: من أنت؟ فأعاد الفتى سؤاله، وعندها أجابه ابن الفارض: جئت بلاد الشام باحثاً عن محمد، فقال الفتى: أنا محمد، والولد وأمه محمد، والعجان وسراجه محمد، والأربعون رجلاً محمد. فسأل ابن الفارض مستغرباً: وكيف ذلك؟! فقال الفتى: اصرخ أربعين مرة محمد، فصرخ ابن الفارض كما أمره فاصطف أمامه أربعون رجلاً اسمهم محمد، وبعد ذلك قال له الفتى: عرج ركابك عن دمشق يا عمر فإنها بلد تذل السباع وتخضع، ما بين جابيها وباب بريدها[1] إذا غاب قمر طلع ألف بدر.

ومن القصص الشعبية المتداولة أيضاً قصته مع حاكم قونية وتقول: إن رجال دين مسيحيين جاؤوا إلى الحاكم العثماني في قونية وقالوا له: نبيكم عرج إلى السماء وعاد إلى الأرض وبقي فراشه دافئاً فما تفسير ذلك اللغز؟ فلجأ الحاكم إلى رجال الدين المسلمين وسألهم عن حل اللغز، ولما عجزوا، أبلغ أحدهم الحاكم بوجود فتى يافع وعمره ١٥ سنة اسمه محمد الأندلسي في بلاد الشام يكشف الأسرار، فأرسل من يحضره إليه، ولدى لقاء رسول الحاكم بمحمد بن عربي أخبره ابن عربي بأنه يعرف

---

(١) باب البريد: باب الجابي.

لماذا يسأل عنه، وطلب منه أن يعود إلى الحاكم وسيلحق به إلى قونية، ولدى وصول رسول الحاكم إلى القصر لدى عودته، وجد ابن عربي ينتظره أمام القصر!! فأبلغ الرسول الحاكم بما جرى. وعندما اجتمع الحاكم بالفتى محمد سأله عن صحة ما سمع بأن النبي عرج إلى السماء ونزل إلى الأرض وفراشه ما زال دافئاً، فأجابه: ذلك صحيح. رد الحاكم: وما تفسير ذلك؟ سأل ابن عربي من منكم يجيد لعب الشطرنج؟ قال كبيرهم: أنا. سأله الفتى: ماذا تود أن تشرب؟ قال الكبير: قهوة. وقبل بدئه بشرب القهوة قال الفتى: كش ملك وأمسك بالحجر ورماه.

في ذلك الحين راود الكبير شعور بأنه انقلب إلى فتاة تاهت في الصحراء، والتقت أميراً عربياً فتزوجته وأنجبت أربعة أولاد. في المرة الثانية وقبل أن يهم بشف القهوة صاح الفتى: كش ملك ورمى الحجر الثاني في البحرة.

فخطر للكبير أنه قد عاد شاباً مرة، أخرى وتزوج ورزق بثلاثة أولاد.

فقال له الفتى محمد: ما بالك؟ اشرب قهوتك. فشرب بسرعة فلسعت حرارة القهوة لسانه، فاستدرك الفتى محمد: هل آمنت أن نبينا عرج إلى السماء، ونزل إلى الأرض، وبقي فراشه دافئاً؟ سأله الحاكم: وكيف أؤمن بذلك؟ رد الفتى: أربعة من بطنك وثلاث من ظهرك ولا تزال القهوة ساخنة فلا تدعني أفضح ما كنت تفكر به، فقال الرجل لقد آمنت.

عند الضريح

في الفسحة المحيطة بالضريح يركع زوار الشيخ ومريدوه ليؤدوا

الصلاة، وهناك يحضر الشيخ من خلال المقام الرخامي المزجج والمنوّر بأضواء خضراء خافتة تضفي نكهة روحية على ألوان سجادة الصلاة المفروشة على حجر المقام، المتصاعدة من حوله روائح البخور، كما هي الأجواء دينية في دور العبادة، حيث يتدور المكان كحلقة ذكر تتواتر فيها الألوان، والروائح، والابتهالات، والصور، والآيات الدينية المعلقة على الجدران، في حلقات صوفية تذكي الحضور القوي لشخص الشيخ في المكان ونفوس زواره، المتوزعين على قسمين يفصل بينهما ستار أخضر من القطيفة أحدهما للرجال والآخر للنساء. من جانب الضريح نطل على مشهد حميم يتألف من مجموعة نساء ملفعات بعباءات سوداء، ومجموعة رجال بملابس بسيطة، وكل فرد في المجموعتين يأخذ مكاناً بالكاد يفصله عن الآخرين لينفرد بالحديث إلى الشيخ بعد أن يلقي عليه التحية من خلال الزجاج، أو يرمي قطعة نقدية كتبرع للمقام. في الخلوة مع الشيخ يبث الزائر همه صامتاً. وهو حان رأسه بجوار خمسة أضرحة تقوم إلى جانب ضريح الشيخ الأكبر، اثنان لولديه سعد الدين وعماد الدين وقد علتهما عمامتاهما، وثالث لعبد القادر الجزائري، الذي نقلت رفاته إلى الجزائر، ورابع وخامس لاثنين من خادميه.

والقصة المتداولة حول دفن أحدهما واسمه أمين المتوفى في منتصف القرن الحالي يرويها المريدون وخدام الجامع[٢] كجزء من قصص التعريف بالمكان والأضرحة، ويقال إن الشيخ أمين أوصى بدفنه إلى جانب ضريح الشيخ محيي الدين، وعندما أراد

(٢) القصة كما رواها الشيخ زهير الملك، خادم جامع الشيخ محيي الدين، في لقاء معه عام ١٩٩٩.

القائمون على الجامع تنفيذ الوصية، عارضت وزارة الأوقاف ذلك، وأمرت بإغلاق الباب، ولما أراد الناس رفع النعش والعودة به من عند العتبة، لم يتمكنوا من رفعه، فوقف أحدهم وهو من مريدي الشيخ محيي الدين وصرخ قائلاً: يا سيدي محيي الدين إذا كنت تريد الشيخ أمين أن يدفن إلى جوارك فافتح له الباب؟. وفي الحال تكسّر الباب ونزل النعش إلى القبر خلال دقيقتين.

وعادة يختم راوي القصة بالعبرة القائلة «لا يوجد إنسان قصد الله وقال يا رب كرمى لسيدي محيي الدين إلا وأجابه على سؤاله فكرامته كبيرة عند الله، وكثيرة حالات شفاء المرضى في هذا المكان فالذي يعجز عنه الأطباء يشفيه الله كرامة للشيخ الأكبر».

هالة القداسة التي أحاطت الشيخ محيي الدين في الروايات الشعبية ما تزال سارية تتناقلها الأجيال شفاهاً كجزء من الموروث الشعبي الضروري لمواجهة مصاعب الحياة والتغلب عليها بأمل يرتجى من الغيب، وقد ساعدت سعة العلوم والمعارف التي اكتسبها الشيخ في زمن كان العلم فيها حكراً على نخبة القوم في تزكية تلك الروايات وإضفاء صفات خارقة عليه، ترتكز أساساً على رمز كبير من رموز الكشف وعلوم المعنى أو العرفان.

المتعمق في فكر ابن عربي كالسائر في طريق وعر، وذلك لأسباب تعود إلى منطلقات ترتبط بفكر أبن عربي نفسه، وأخرى خارجية لها صلة بكيفية التعاطي مع أفكاره ولغته الغامضة التي لا تزال تلقى صدوداً في أروقة الفكر الإسلامي، ومما يؤكد ذلك صدور ١٣٨ فتوى ضده عن فقهاء ومتكلمين وحكماء، وقد ساهم ذلك الصدود في إيصال مقولات وممارسات مشوهة عن ابن عربي إلى العامة، وفي كثير من الأحيان يخلطون بينه وبين

القاضي الفقيه الأندلسي أبي بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ) المعروف بابن العربي. والبعض ممن يجهلون الجانب العلمي عند ابن عربي، يعتقدون باطلاعه على الأسرار الإلهية، مما كرّس في العقل الجماعي الشعبي تصوراً عظيماً حول كرامته عند الله. ويتمثل هذا التصور في سلوك زوار ضريحه، الذي يقصده المساكين وخائبو الرجاء من جهات مختلفة ليشفع لهم. وكثير من الناس يتعاطفون مع الشيخ محيي الدين لظنهم بأنه مات شهيد السلطات المستبدة، رغم أن التاريخ يؤكد وفاة الشيخ محيي الدين على فراشه بعد بلوغه سن الشيخوخة، كما ورد في سيرة حياته المدونة على جدران الضريح، إلا أنهم ينسبون إليه حادثة عرفت عن الحلاج، وهي أن ابن عربي وقف أمام الناس وصاح بهم: دينكم دينار كم ومعبودكم تحت قدمي هاتين فقتلوه، وجاء بعدها العلماء وسألوا عن سبب القتل، وطلبوا حفر الموقع الذي قال فيه ابن عربي ذلك القول، فوجدوا جرتين مملوءتين بدنانير من ذهب، فأنبوا القتلة وقالوا لهم، كان بقوله يقصد المال الذي تتخذونه كمعبود لكم.

ربما ما جعل صورة الشيخ الأكبر في أذهان البسطاء تبدو شديدة الغموض تعمقه في فلسفة الحروف وإتقانه استعمال اللغة واستنباط معانيها والإيحاء من خلال المفردات المتشابهة كتابة والمختلفة لفظاً ورصفها في إيقاع متناغم شديد الدلالة، كحال الأدب الصوفي. وتحول ذلك الغموض على مر الزمن إلى حكايات تؤكد قدرته الخارقة على حل العقد والإشكاليات الوجودية كالحياة والموت، كما أنها دخلت في صلب المعتقدات الغيبية الشعبية، المرادفة لقصص الشخصيات المقدسة في الأديان التوحيدية، مع أن الشيخ ابن عربي يؤكد في فلسفته أن المرء لا يؤتى عليه بخير

أو شر إلا منه، فالتعلق بالغير لا ينفعه. وهذه الفلسفة تتنافى مع سلوك العامة في العلاقة مع الأنبياء والأولياء، حيث يقفون لفترات طويلة على عتباتهم مرددين الدعاء، وهذا ما نراه في ضريح الشيخ محيي الدين الذي يتدفق إليه الناس من أنحاء شتى يناشدونه حل مشكلاتهم المعقدة، أو ليشفعوا لأمواتهم، فيطعمون الجياع على باب الجامع لاعتقادهم بأن (اللقم تدفع النقم)، ويزكّون بالمال للفقراء ليرضى عنهم الشيخ. وثمة اعتقاد يقول بأن من يقصد الشيخ أربعين مرة متتالية أيام السبت عند آذان الصبح ينال طلبه وتتحقق أمنياته. وتؤكد العامة تلك الاعتقادات بالحديث الشريف «العلماء ورثة الأنبياء».

وزائر الضريح لابد له من دخول الجامع الكبير الذي يقوم إلى جوار الضريح، حيث يصادفه في بهو المكان دراويش ومعتكفون يقيمون الصلاة ليل نهار، مرددين أسماء الله الحسنى، بتواصل مع حبات سبحاتهم المعلقة على صدورهم والمتدلية من بين أصابعهم.

تحت ظلال الأعمدة الرخامية والقناطر العثمانية يمكن المعتكف الجلوس الى جانب نافذة مشرفة على الناعورة الأثرية القائمة على نهر يزيد، يردد صلاته بصوت يشبه حفيف الورق، ويحرك شفتيه بآلية مرتجفة. فهو معتكف إلى ما شاء الله يخدم في الجامع، ويعيش من خيره، فمدة الاعتكاف المتبعة أصولاً، تتعلق بالمعتكف ذاته، والمدة يحددها بنذره، هناك من يعتكف ساعتين، وهناك من يعتكف لأشهر، وربما سنوات، وإذا التزم شخص ما بالاعتكاف، وله حاجة خارج الجامع بإمكانه أن يقضيها ويعود ليواصل صلاة اعتكافه، وهي عادة ما تقوم بين أوقات صلاة

الفروض، أو تكون متواصلة طيلة اليوم. وجامع الشيخ محيي الدين من الأماكن المناسبة للاعتكاف والاختلاء بغية جلوة القلب وصفاء العقل، والتركيز على الصلاة، والوجود لرب الوجود وتذكر الحياة والموت معاً، وفي جامع الشيخ محيي الدين مكتبة تحوي أمهات الكتب الفكرية، والدينية الإسلامية وغالبية مؤلفات الشيخ الأكبر ابن عربي(٣).

مكانة ابن عربي العظيمة جعلت قاصديه يقدمون له القرابين والأضاحي في ما يعرف بالنذور، فمنهم من يقدم شمعة ومنهم من يقدم خروفاً أو يتبرع بأنواع عديدة من الطعام أو كميات من الخبز وجميعها تسلم للقائمين على التكية السليمية القائمة قبالة الجامع الكبير. هناك يحضر حساء الشيخ محيي الدين، ويوزع على الفقراء والجياع فجر كل يوم خميس مع «الهريسة»، وهي أكلة دمشقية شهيرة، تحتوي على اللحم والقمح المهروس.

واعتادت المنطقة حتى وقت قريب فتح أبواب التكية يومياً من الثامنة صباحاً حتى الظهيرة، ليوزع فيها الخبز والطعام ما عدا يومي الثلاثاء والاثنين اللذين توزع فيهما «الحلاوة الطحينية» أو «الإلماسية»، وهي سكر وحليب ونشا إلى جانب الرز المفلفل، أما يوم الأربعاء فيوم العطلة. لكن تلك التقاليد تغيرت بسبب تحولات الزمان والمكان، حيث اقتصر توزيع الطعام على نهار الخميس والخبز باقي صباحات الجمع من الأسبوع.

الخارج من عوالم منطقة الشيخ محيي الدين بأسواقها ومطاعمها

(٣) لقاء مع فايز الرفاعي أحد المعتكفين في الجامع عام ١٩٩٩.

وأفرانها وتكاياها وجوامعها ومدارسها وحماماتها كالخارج من قصص ألف ليلة وليلة محملاً بذاكرة يستجم فيها العقل في عالم غني تتداخل فيه الأحلام بالرؤى والأفكار بالأساطير، الخيال بالواقع. على عتبة هذه العوالم يقف المتعلم والأمي والمثقف والعلماني، ورجال الدين، والدراويش، الشاعر المتصوف، والحسي، وكل منهم يناشد عالمه الخاص الملون بالتصوف. فهنا وقف هادي العلوي مراراً لأداء صلاته الكنفوشية، وحدث ابن عربي، بل وعاتبه لخروجه عن سلوك المتصوفة بعض الأحيان، كما ذكر في مدارته الصوفية. وفي المكان ذاته لا تزال أرملة المفكر هادي العلوي أم الحسن، توزع الخبز على الفقراء وتتبرع للمقام وفاءً لذكرى زوجها شيخ متصوفي العصر. وفي المكان ذاته أيضاً طلب البياتي أن يدفن مجاوراً لشيخه الأكبر الذي نهل من تصوفه دواوين شعر عدة.. كثيرون مروا وقفوا هنا، وتركوا ذكرياتهم وأحلامهم ورجاءاتهم.. و

لكل عصر واحد يسمو به وأنا لباقي العصر ذاك الواحد

حارة اليهود.. أبواب موصدة

على خريطة مدينة دمشق يتمدد طريق عريض بين منطقة ابن عساكر وسوق الخضار الشعبي في ساحة الأمين، يصب فيها الشارع الرئيسي حيث يتفرع إلى أزقة متشعبة، تشكل بتداخلاتها الدهليزية ما كان يعرف بحارة «اليهود»، ثم غدا حي «الأمين». هناك تقع مدرسة (الإليانس) إحدى أشهر مدارس اليهود، التي شغلتها لاحقاً وكالة الغوث الفلسطينية (الأونروا). يمتد الشارع إلى سوق البزورية، حيث تقوم مدرستا (اليوسفية) للإناث نسبة للحاج يوسف بيضون و(المحسنية) للذكور نسبة للعلامة محسن الأمين مؤسس المدرستين بداية القرن الماضي. في تلك النقطة يتقاطع امتداد شارع الأمين مع الشارع المستقيم، (سوق مدحت باشا) الذي يقسم المدنية القديمة إلى شطرين.

على الورق نتتبع متاهات حارة اليهود المتداخلة، التي اشتهرت

باسم محلة «الخراب»، بينما على الأرض، نلج عالماً من الإشكاليات والأحداث المشوّقة والقصص الطريفة لا تزال أصداؤها تتردد في فضاءاتها: بيوت مهجورة، محال أغلاقها موصدة، أكوام من الأتربة والغبار وراء نوافذ تتحدى الغبش، بقايا من تاريخ يومي ترويه الذاكرة الشعبية عن السكان اليهود: اللحام مراد، المبصر أبو خضر، الصيرفي رمانو، الخياط شعيا، المغنيات الجميلات بنات شطاح، حسيبة اتشي، هانولا، الطبيب طوطح، والصيدلاني إبراهيم... وتجار الأقمشة وحرفي النحاسيات في باب توما؛ قصص أناس كانوا هنا ورحلوا.

اليوم تطغى تسميات تعكس هوية سكان الحي مثل اسم (الأمين) الذي أطلق على محلات بيع الزهور والأدوات الكهربائية والمحامص والمكاتب العقارية، تقع إلى جانبي الشارع العريض، بجوار تسميات إسلامية وعربية في الأزقة والدخلات والدخاليج. فدخلة (الشرفا) صار اسمها «إبراهيم صندوق» (إحدى الشخصيات الوطنية التي عاشت في أوائل القرن الماضي) فيما تغيب التسميات اليهودية، التي غابت مع غيابهم، بعد مئات من السنين تقاسموا فيها العيش مع المسلمين والمسيحيين.

تقول القصة المتداولة شعبياً عن تبدل تسميات الحي: إن الشارع الرئيسي، شُقَّ خلال فترة الحرب العالمية الأولى. حين كان الواقع الاقتصادي لسكان الحي من العائلات المسلمة، وبالأخص الشيعية بائساً جداً، فاستغل اليهود فرصة تدني الأسعار للخروج من الحارات الضيقة إلى الشارع العريض، فاشتروا البيوت المتهدمة على جانبي الشارع، ليعاد بناؤها بشكل حديث، وهكذا سيطر

اليهود على واجهة الحي. بينما ظلت غالبية العائلات المسلمة تقطن الدخلات الفرعية المغلقة.

بعد سيطرة اليهود على الواجهة، سعوا لدى سلطة الانتداب الفرنسي إلى إطلاق تسمية للحي تحمل اسم واحد من شخصياتهم، وحاولوا وضع اللوحة في رأس الشارع العريض، فاقتلعها أهل الحارة ليلاً.. ليبقى اسم حي الخراب على حاله، إلى أن جاء الحكم الوطني عام ١٩٣٧، واستُبدل اسم حي الخراب باسم (الأمين) تكريماً للسيد محسن الأمين، وظل حتى يومنا هذا. كذلك أطلقت أسماء شخصيات وطنية عديدة على دخلات الحي، ممن لعبوا دوراً وطنياً ودينياً في تلك الفترة.

حي الأمين اليوم واحد من الأحياء التي تعيش فيها غالبية من الشيعة الدمشقيين، ومن عائلاتهم المعروفة، آل صندوق، لحام، مرتضى، نحاس، بيضون، والروماني... إلى جانب بقايا عائلات يهودية كانت تسكنه من آل مراد، زقزوق، سلمون، حمرة، ساعاتي، الرمانة، جاجاتي، رمانو، بلة، السكروج، شامة، قطش، طوطح، أوظن، وندافيت اشكنازي إلخ، مع لاجئي الـ ٤٨ من الفلسطينيين، وأقلية من المسيحيين من أصول ريفية. عُرفت الحارة في الماضي مركزاً لتجمع اليهود في دمشق، مثلما عرفت باب توما والقصاع مركزاً لتجمع المسيحيين. تضم حارة اليهود نحو ٢٢ كنيساً، لم يعد يفتح منها إلا ثلاثة، بعدما هاجر أغلبية اليهود ولم يبق منهم سوى ٥٠ شخصاً، لذا يضطر المصلون اليهود إلى التوزع على جميع الكنس، فمن شروط صلاة الجماعة وجود عشرة أشخاص على الأقل في الكنيس الواحد.

الهجرة

الهجرة الواسعة لليهود، شهدتها دمشق في عقد التسعينيات من القرن الماضي لدى انطلاق مباحثات السلام في مدريد. فغادرها في عام ١٩٩٣ نحو ٢٥٠٠ يهودي من أصل رقم تقديري هو ٤٥٠٠ يهودي سوري، أغلبهم كانوا يعيشون في دمشق، سرعان ما عاد منهم نحو ٢٠٠ شخص تحت ضغوط خارجية، والسبب كما يؤكده سكان الحي من اليهود المتبقين، أنهم ينعمون في دمشق بامتيازات تفوق غيرهم من الطوائف في سورية. فيمكن مثلاً لسيدة مثل روز اليهودية العجوز غريبة الأطوار، والتي رأيناها في الحي تعيش مع جيش من القطط، أن تحصل على حماية أمنية خاصة، إذ سمعت ما لا يعجبها من الجيران وتقدمت بشكوى للمفرزة الأمنية القريبة من الحي.

نشأت حارة اليهود منطقة هجينة، أو ما يشبه مدن الصفيح، جنوب المدينة القديمة داخل السور، وأخذت صفتها الشعبية من كونها استقطبت غالبية الغرباء من الوافدين إلى المدينة لظروف مختلفة من أبناء طوائف وملل وجنسيات شديدة التنوع، غلب عليهم اليهود في القرن التاسع عشر، لكن لا يمكن الوثوق بتلك المعلومات في مجتمع يفتقر للإحصاءات الدقيقة تلك الآونة. ويظن أن عددهم بدأ في التراجع منذ منتصف القرن التاسع عشر لهجرة طائفة منهم إلى اسطنبول والمدن العثمانية. إلا أن أهم موجات توافد اليهود إلى دمشق، كانت موجة مهاجري يهود إسبانيا (الأندلس) مع العرب المسلمين، وسمي هؤلاء (السفارديم)، وكانوا يتكلمون في ما بينهم لغة (اللادينو)، ثم أصبحت العربية لغة مشتركة بينهم وبين اليهود المحليين المتوطنين في بلاد الشام منذ حقب بعيدة. مع بداية القرن

التاسع عشر، جاءت موجة يهودية جديدة من أوروبا الشرقية مما يدعى اليهود (الأشكناز) ويتكلمون لغة (اليدش). في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تزايد عدد المهاجرين اليهود إلى بلاد الشام، ومن ثم إلى فلسطين بالتزامن مع ظهور الحركة الصهيونية وتصاعدها، فأخذ عددهم بالتناقص في دمشق. والملاحظ أنه قبل عام ١٩٤٨، كان من المتعذر الفصل بين اليهود وعموم أهل البلاد، وكان تعدادهم في سورية نحو ٢١٧٣٠ نسمة، من أصل عدد سكان نحو مليون وتسعمائة ألف نسمة، وكان الموسويون جزءاً من نسيج المجتمع الدمشقي يتكلمون العربية مع احتفاظهم بتقاليدهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية ولغتهم التي كانوا يستخدمونها خصوصاً في يوم السبت. وبشهادة الدمشقيين العرب من سكان الحي أن اليهود في سورية لغاية عام ١٩٤٨ كانوا مثل غيرهم من المواطنين السوريين، فشغلوا المناصب الهامة في الدولة، وكان منهم مدير بنك، ونواب في البرلمان، لكن الظرف السياسي وقيام ما يعرف بدولة لليهود في فلسطين، كان له أكبر الأثر في انكفاء اليهود السوريين.

لم يقتصر توطن يهود دمشق على محلة الخراب، فمنهم من سكن في حي السامرة الكائن فوق العنابة بالقرب من برج الروس حالياً، والواقع ضمن السور من الناحية الشمالية، وحارة القرائين في محلة الزيتون قرب السور القديم في الناحية الشرقية الجنوبية من المدينة.. ويذكر أن المسيحيين الكاثوليك بعد ١٨٣٢ م، حلوا مكانهم في الموقع الذي تقع فيه بطركية الروم الكاثوليك اليوم. وتشير المصادر إلى وجود كنيس يهودي قديم جداً في منطقة جوبر في ريف دمشق، ويقال إن سبب بنائه اعتقاد اليهود بأن النبي إلياهو «إيليا» مر من هناك. كما يقال أيضاً إن يهود دمشق توطنوا بدايةً في شارع

البدوي في حي الشاغور، لكن مع بداية القرن العشرين انحصر وجود أغلبيتهم في محلة الخراب «حارة اليهود» التي كانت تدعى في حالات قليلة «ثلاج» شرقي المدينة القديمة، حيث أكبر تجمع لهم، في محلة تنقسم إلى أزقة ودخلات غير نافذة.. في تلك الحارات وقريباً من حارة جامع الإحسان، تقع مدرسة ابن ميمون القديمة، التي باعها أصحابها لتاجر من مسيحيي دمشق، فنقلت المدرسة إلى بناء حديث في الحارة ذاتها، واستقبلت لغاية عام ١٩٩٠ ما يقارب ٢٠٠ تلميذ يهودي يدرسون اللغة العبرية، إلى جانب المقرر الدراسي العام في سورية.

ما زال الحي يحتفظ ببيوته المعمارية القديمة، حيث تستند المنازل أحدها إلى كتف الآخر، فتارة تنعقد كحلقة تتوسطها فسحة سماوية تتربع فيها أشجار معمرة، وتارة تصطف إلى جانبي زقاق ضيق مسدود، ولا يحمل المشهد أية غرابة حين تطالع الزائر شعارات فلسطينية على جدران الحارات التي حل فيها فلسطينيو الـ ٤٨ مكان اليهود منذ عقود. ففي الفسحة السماوية خلف مدرسة ابن ميمون، تعيش شجرة كينا معمرة، محاطة بأسلاك شائكة تعزلها عن ممشى إسمنتي يمر أمام أبواب منازل حارة «جوانية» أقرب لبيئة ريفية نائية، منها إلى حي وسط المدنية، ومنازل أخرى موصدة على الركام والصمت، وأطفال يلعبون في الفسحة، يكتبون بالطبشور على الحيطان: «فلسطين لنا»، «تحيا فلسطين» ويرسمون بالأحمر خريطة الوطن.

فلسطين في قلب الشام

وَفَدَ الفلسطينيون إلى الحي عام ١٩٤٨، سكنوا إلى جوار اليهود في المنازل الفقيرة، وبنوا علاقات حذرة معهم لا تتجاوز حدود

آداب الجوار، واحترام عادات الآخر وتقاليده. لا تختلف العادات والتقاليد الاجتماعية الفلسطينية كثيراً عن الدمشقيين، ففي العيد مثلاً كانوا يتبادلون مع الجيران كعك العيد والحلويات، ما يعرف بـ«السكبة»، إلا أن اليهود كانوا يرفضون الأكل من طعام الغير إذا أرسل إليهم، ولا يترددون برمي الطعام «الهدية»(٤). الدمشقيون يتفهمون ذلك، وهم عادة لا يرسلون إليهم «سكبة»، لكن الفلسطينيين كانوا يعدّون التقليد اليهودي لؤماً وغروراً. ومع ذلك لم يشهد الحي مواجهة بين الفلسطينيين واليهود. واقتصرت المشاكسات بينهما على الفعل دون رد فعل، كتعبير احتجاجي غير مباشر لا يؤدي إلى صدامات. فحين كان الشباب الفلسطينيون يحتفلون بمناسبة وطنية يرفعون صوت الراديو والأغاني الثورية، أو يعلقون البيانات على جدران الحارة، يكون رد فعل السكان اليهود الامتعاض الصامت، وقد يرفعون بالنكاية صوت إذاعة إسرائيل ثم يخفضونه... عدا ذلك كل منهم منصرف إلى شؤونه. لم يمنع ذلك كثيراً من سكان الحي من غير اليهود من التعبير عن الإعجاب بمهارة اليهود المهنية، واعتبار إتقانهم لمهن معينة مقياساً للجودة. وما زال الدمشقيون يحتفظون بذكرى طيبة للطبيب اليهودي الشهير طوطح، فما من عائلة في المنطقة لم تزر عيادته، حتى في الجامعة، كانوا يأخذون وصفته نموذجاً لخطوط الأطباء السيئة، فمن يستطع من طلاب الصيدلة قراءتها، يكن قادراً على قراءة خطوط الأطباء الآخرين كافة.

كذلك اشتهر حتى وقت قريب المبصر أبو خضر، وكان الزبائن يقصدونه من أنحاء سورية، ولا سيما البدو والفلاحين، وحسب

---

(٤) زيارة لمنزل جاك المبصر في حارة اليهود عام ٢٠٠٠.

اعتقادهم أنه لا يخطئ وتنبؤاته صحيحة. كان اليهود كما يتداول عنهم بين الناس، يجيدون التبصير وكتابة حجابات باللغة العبرية لا تخيب، كما عرف أيضاً مبصر آخر اسمه جاك، اعتزل العمل بالتنجيم لأسباب صحية مع تقدمه في السن، لكنه ظل يحتفظ على جدران بيته البائس بلوحات لآيات قرآنية، تعكس إلى حد بعيد سر نجاحه في استقطاب الناس من ملل أخرى ليقرأ لهم الطالع(٥).

زمن مضى

يتذكر الدمشقيون بإعجاب مهارة الخياطين اليهود، وحاز مشغل (شعيا) على شهرة واسعة، وكانت تعمل فيه غالبية بنات الحارة من اليهوديات، طيلة أيام الأسبوع عدا يوم السبت، فالعطلة حسب تقاليدهم تبدأ من طلوع النجمة ليلة الجمعة ولغاية طلوع النجمة ليلة السبت، حيث يحرم إشعال النار أو الإنارة، فلا يقومون بأي عمل يوم السبت سوى التأنق والتنزه، وفي حال الاضطرار لإشعال البوتوغاز، أو إنارة الغرفة، يستعينون بالجيران من غير اليهود، لقدح الكبريت والضغط على الزر الكهربائي.

لا شك في أن صورة اليهودي لدى العرب عموماً تهشمت كثيراً، وما تبقى في حارة اليهود علاه الغبار، فالممارسات الإسرائيلية الوحشية ضد الفلسطينيين كان لها بالغ الأثر في تدمير أي ميزة إيجابية لليهود كجزء من مكونات المجتمعات العربية. فاليهودي الصهيوني المغتصب المدجج بالسلاح، احتل كادر الصورة الذهنية والواقعية لدى الناس العاديين، ولم يعد هناك متسع لليهودي

(٥) حوارات مع سكان الحي مسيحيين وفلسطينيين عام ٢٠٠٠.

الدمشقي المسالم والحرفي الماهر، وتحولت إلى تسميات مجردة لا تعني شيئاً سوى التذكير بذلك الجزء الآيل إلى الانقراض في المجتمع الشامي، فلا يهود ظاهرين للعيان لكن هناك طبخات مشهورة، تحمل مسميات مثل « يهودي مسافر» أو «أبو داود».

وتكاد تتلاشى تلك الذكريات عن اليهود الذين ورد ذكرهم في مذكرات فخري البارودي والتي تشيد بمغنياتهم اللواتي اشتهرن في دمشق القرن الـ١٩، وأصبحن من تاريخها الفني، ومنهن هانولا التي اشترت منها والدة البارودي عمراً جديداً لإبنها بربع ريال وفق تقليد دمشقي حتى يطول عمره. وتختفي أيضاً صورة اليهود الذين قبلوا بزواج بناتهن من رجال مسلمين ومسيحيين.

الحارة تغيرت، كما تغير اليهود أنفسهم الذين هاجروا بحجة تزويج بناتهم حيث الفرص في أميركا أوفر منها في سورية، بسبب صعوبة زواج اليهودية التي تدفع هي المهر للعريس. فالتقليد اليهودي يقضي ما يكتب بين الخطيبين بما يسمى (قينان) أي عهد ويسمى (شيطارا) وفيه يعين مقدار المهر المدفوع من الخطيبة، والشروط المحددة، وفي يوم لاحق يجري الاتفاق على موعده، ثم تنعقد جمعية (كتبه) ليتسلم الزوج الأمتعة والنقود التي تعهدت الخطيبة بتقديمها إليه، وبعد ثلاثة أيام يقام حفل الزفاف المعروف باسم (قدوس). ويشتهر عرس اليهود بمظاهر البذخ التي تستمر سبعة أيام. وكلما كانت العروس أقل جمالاً وتقدمت بالسن وجب عليها دفع مهر أعلى، وقد تمكث بلا زواج إذا كانت فقيرة، لذلك يعلل الدمشقيون انهماك اليهوديات بالعمل طيلة أيام الأسبوع لجني المهر من كدهن، وتفرغهن مساء السبت للتنزه في القصاع بما يشبه الاستعراض لجذب سعيد الحظ.

والمثل الشامي يقول إن الأكثر جمالاً، هم «خانمات الإسلام، وبنات اليهود، وشباب المسيحية» السيدات المسلمات هن الأجمل لاعتنائهن بأنفسهن وأزواجهن خشية الطلاق، بينما بنات اليهود هن الأكثر غندرة لجلب العريس، أما الشاب المسيحي فلا يهتم بالعمل قدر عنايته بأناقته الشخصية ليبقى محط إعجاب، خاصة أن الفتاة المسيحية تهمل عنايتها بجمالها بمجرد زواجها إذ لا طلاق تخشى منه.

ما في النفوس في النفوس

حارة اليهود كنموذج للعيش المشترك، تقدم مثالاً فريداً للعلاقة التي تربط بين سكان متناقضين إلى أبعد حدود التناقض تحت سقف تقبل الآخر كما هو، فيما يبقى ما في النفوس في النفوس، ولعل القصة الطريفة التي يتداولها مسيحيو الحي تعبر عن ماهية هذه العلاقة، المستندة في معناها إلى صورة اليهودي السرية المتكونة لدى المجتمع الدمشقي. تقول القصة: «كان في السوق يهودي يكرر كل صباح على مسامع جيرانه من المسلمين والمسيحيين لازمة واحدة، في ما يشبه التحية: الله لا يفرجيكم اللي شفتو، ولا يذيقكم اللي ذقته. فحاول جاره المسيحي أكثر من مرة ودون جدوى، أن يفهم منه سر هذه اللازمة ويعرف ما هو الشيء الذي يراه والشيء الذي يذوقه؛ إلى أن أشفق عليه جاره اليهودي وأسرّ له ضاحكاً: كل صباح عندما أنهض من فراشي آكل ملعقة عسل بلدي، ثم أمضي إلى صندوق مجوهرات زوجتي وأتمتع برؤيتها، لهذا أتمنى أن لا تذوقوا العسل ولا تروا المجوهرات»[٦].

---

(٦) المصدر السابق.

العيش المشترك تحت سقف قبول الآخر المختلف، لا ينفي أنه في العقود الأولى من القرن العشرين، كان من المعيب أن يسكن حي اليهود أحد من أهالي حي الميدان أو الشاغور أو الدمشقيين الأصل، لكونه حياً شعبياً، لا تحكمه عادات وتقاليد دمشقية أصيلة، وهذا ما جعل حارة اليهود تتميز عن غيرها من أحياء دمشق بالتنوع والغنى من حيث تعدديتها المذهبية والطائفية والجنسية، مكونة بمجملها مجتمعاً متآلفاً ذا خصوصية، شارك فيها اليهودي والمسلم بمختلف طوائفه من شيعة وسنة ودروز إلى جانب المسيحيين من طوائف عدة مع قادمين من لبنان وإيران والعراق، إلا أن القاسم المشترك الأهم بين ذلك الخليط من البشر هو المستوى الاقتصادي المتدني. ويذكر العلامة محسن الأمين، الذي طلب منه شيعة دمشق القدوم إليهم للإقامة معهم في نهاية القرن التاسع عشر، أنه عندما وفد إلى دمشق من العراق، واجه ثلاث مشكلات هي علة العلل، ملخصها «الأمية والجهل المطبق، الانقسام، والتحزبية، بالإضافة إلى سوء الواقع الاقتصادي»، يمكن تحسس أبعادها من خلال النظر إلى الواقع السياسي المعقد، حين كانت أكبر دولة إسلامية تتفكك لتخرج الدول العربية بشكلها من رحم الانتداب الأوروبي، الذي ساهم في زرع دولة إسرائيل الهادفة إلى لملمة اليهود من كل بقاع العالم وزجهم فيها. في تلك الفترة كان يصعب على المواطن العربي، الذي شهد تفتح وعيه القومي اغتصاب فلسطين على أيدي الصهاينة، أن يفرق بين يهودي عربي، وآخر صهيوني ينتهك مقدساته في فلسطين. وفي هذا الخصوص يروي المؤرخ حسن الأمين في مذكراته عن والده العلامة محسن الأمين: «أن اليهود استقووا بسلطة الانتداب الفرنسي مما جعل الاحتكاك دائماً بينهم وبين سكان حي الخراب، وحاول مرة الحاخام الأكبر أن يتودد لأهل الحارة، ففاجأ

والدي في أحد الأعياد برسول يخبره بأنه قادم لزيارته وتهنئته بالعيد، ولم يكد الرسول ينصرف حتى خرج والدي من البيت فجاء الحاخام فلم يجد أحداً. وبالرغم من أن هذا التصرف كان جافاً، ويتنافى مع أخلاق والدي، فقد كان لا بد منه في رأيه، لأن معنى قبول زيارة الحاخام في العيد واستقباله في البيت، أن الوالد سيضطر لمبادلته الزيارة في عيدهم، ثم تتكرر الزيارات والاتصالات، وكان هذا عند والدي أمراً لا يمكن أن يقع، في الوقت الذي كشفت فيه الصهيونية قناعها، وأسفرت عن حقيقتها، وكان اعتقاده أن كل يهودي صهيوني».

من جانب آخر، تبدو تلك الرؤية للتعامل مع اليهود غير قابلة للتعميم، فثمة من كان يفرق بين اليهود الذين لم يرضوا عن قيام إسرائيل، وغيرهم من الذين هاجروا إليها بفعل ضغوط الصهيونية العالمية، وهناك من يشهد بأن اليهود السوريين أنفسهم كانوا يستنكرون ما يفعله الصهاينة في فلسطين[٧]. وهم حسب ما يرويه سكان الحي ممن عاشروهم لعقود طويلة كانوا مثل المسلمين والمسيحيين، يختلفون بالمعتقد الديني وما يبنى عليه من عادات وتقاليد اجتماعية، تتباين في شيء وتلتقي في شيء آخر، لكنها جميعاً ذات مسحة شرقية. ولعل أكثر ما يميز اليهود اجتماعياً هو عدم مشاركة الآخرين طعامهم، فنادراً ما يقبلون دعوات أبناء الطوائف الأخرى، والسبب أنهم لا يأكلون من اللحوم سوى «الكاشير» أي الذبائح الخالية من العيب والمصلى عليها من «الحاخام»، وجرت العادة أن يذهب اللحام اليهودي إلى المسلخ بعدة رؤوس عجل، وقد لا يعود سوى بواحد، فبعد الذبح ينظر

(٧) المصدر السابق.

إلى الرئتين، فإذا كانت مثقوبة أو ملتصقة بالقفص الصدري من الداخل، سميت «طاريف» ويحرم أكلها على اليهود. ومما يحسب ليهود دمشق دماثتهم في الاعتذار عن الأكل، فمثلاً لا يظهرون السبب الديني بل يلجأون إلى الاكتفاء بتناول بيض مسلوق على سبيل المثال بحجة اتباع حمية خاصة... فهم مثل سائر الدماشقة يغلب الظرف على طباعهم، كواحد من الطباع التي يتميز بها سكان المدن التجارية، فهم شطار أولاً، ولديهم مهارات خاصة في التعاملات المالية ثانياً، تمكنهم من كسب ثقة الطرف الآخر. وليس من المفارقة أن نسمع عن تاجر يهودي أنه كان ينعت نفسه بـ «يهودي ابن حرام» من قبيل الاعتذار، كلما اكتشف متأخراً خطأ بالحساب كان قد تغاضى عنه[٨]. فهم مثل غيرهم يكذبون ويلفقون... وصادقون أيضاً.

مهنهم

اهتمام اليهود بالعمل كان موضع إعجاب جيرانهم، وهو ما جعلهم يلعبون دوراً اقتصادياً في تاريخ المنطقة، فقد سيطرت بعض أسرهم خلال فترة الولاية العثمانية على التزام الجمارك وأحكموا قبضتهم على كل ما يتعلق بالأمور المالية (كالصيرفة والربا) ولم يتوانوا عن ممارسة دور استغلالي أثار كراهية من حولهم، وهناك من صيارفة اليهود من لجأ إلى طرق ملتوية لابتزاز الأموال، وهو ما دفع الدماشقة لرفع شكوى ضدهم إلى اسطنبول، فاستجاب السلطان محمود الثاني لهم، وأصدر أمراً بعزل صيارفة اليهود من ديوان السرايا، وباشر والي دمشق حين ذاك بالتنفيذ إلا

---

(٨) **قاموس الصناعات الدمشقية.**

أنه عجز عن الاستمرار بتسيير الأمور المالية دون الصيارفة اليهود، نظراً لكون تلك الحسابات والتسجيلات قد كتبت بالعبرية، ولم يوجد من يتقنها في دمشق سوى اليهود حتى قيل: «كأن دفاتر الديوان قد كتبت بالقلم القلفطيري» فاضطر الوالي مكرهاً لإعادتهم إلى مناصبهم. وعندما وقعت بلاد الشام تحت الحكم المصري ١٨٣٢ ـ ١٨٤٠ م أصيبت بعض الأسر اليهودية بنكسة من جراء ذلك، لأنها فقدت بعض مناصبها المالية، رغم أن بعض أبنائها اشتركوا في المجلس الاستشاري لمدينة دمشق في ظل الحكم المصري، أو بعد عودة الحكم العثماني إلى بلاد الشام وحتى الحكم الوطني في سورية.

مهنة الصيرفة امتهنتها العائلات الغنية من اليهود بالإضافة إلى مهن كثيرة متواضعة كانت من نصيب الأسر الفقيرة كحرفة «البويجيه»، أو الغناء في المقاهي، أو «السمكرية»، وتعزيل المجاري الصحية، إلى جانب مهن وصناعات أرقى برع فيها اليهود، مثل، صناعات النسيج والألبسة الجاهزة والنقش على النحاس وتنزيل الفضة والذهب ... إلخ، إلا أن التجارة تبقى المجال الأهم الذي تفوق به اليهود في ظل الحكم العثماني؛ وبالأخص تجارة الرقيق، فمنهم النخاس والياسرجي وعمل هؤلاء في سوق الرقيق القريب من خان الجمرك في الجنوب الغربي من الجامع الأموي الملاصق لسوق الحرير، ونشاطهم التجاري في تلك الأثناء كان ملحوظاً وارتبطت أعمال بعضهم مع اسطنبول والدول الأوروبية، وجعلوا مقارهم في خانات دمشق، وكان أشهرهم: سليمان فارحي، وأبراهام عبد الله، وجنوا أرباحاً هائلة من تجارتهم تلك، وما أن قدم الحكم المصري إلى الشام حتى كان بينهم أغنى تجار دمشق على الإطلاق، وراوح المعدل الوسطي لرأسمال كل تاجر منهم ما بين

٦٠٠ و٧٠٠ ليرة ذهبية استرلينية.

لقد تمكن اليهود فعلاً من لعب دور مهم في المنطقة كمواطنين فيها، لكن سرعان ما بدأ دورهم بالتحول مع ظهور الحركة الصهيونية التي لم توفر جهداً ولا ضغطاً لانتزاعهم من بلدانهم الأصلية والزج بهم في خضم صراع طويل من أجل تلفيق وطن قومي مزعوم.

المصادر:

يهود دمشق، د. جميل نعيسة، دار طلاس، دمشق.

مجتمع دمشق، الدكتور يوسف جميل نعيسة، دار طلاس، دمشق.

مذكرات فخري البارودي.

حل وترحال، حسن الأمين، شركة رياض نجيب الريس، بيروت.

مهنٌ في علم الماضي

مقولة «اللغة هي الوعاء الحضاري للشعوب»، تتمظهر عندما نتعثّر بمسميات مختلفة لأشخاص وأمكنة وأشياء ومهن، لم يعد لها من وجود سوى في اللغة، كأنما اللغة ذاكرة مهمشة وتاريخ مكتوم، الخوض في جذرها اللغوي، يُمثل بحثاً ينفتح على اتجاهات عديدة تاريخية اجتماعية وسياسية وفكرية وثقافية.

«قاموس الصناعات الشامية» الذي يضم ٤٣٧ حرفة عرفها الدمشقيون؛ كتاب نفيس وضع الجزء الأول منه محمد سعيد القاسمي، وتشارك في وضع الجزء الثاني ابنه جمال الدين القاسمي وصهره خليل العظم، واطلع عليه المستشرق لويس ماسينيون في عام ١٩٢٨. وقد حققه الأستاذ ظافر القاسمي.

وضع الكتاب في بداية القرن الماضي، ويكاد أن يمثل واحداً من أهم المصادر التي تحفل بمفردات ومصطلحات وقصص تعرفنا

بالواقع الحياتي اليومي لبلاد الشام من خلال لغته الأقرب إلى العامية الدمشقية في ذلك الحين، تحكمها لغة فصيحة، وإن كانت موشاة بكلمات «عصملية»، بسبب طبيعة الفترة التاريخية، بالإضافة إلى دلالاتها القوية في ما يخص تحول مفاهيم بعض المفردات التي كانت سائدة حين ذاك وأهمها كلمة الصناعة التي أصبحت اليوم محملة بمفهوم اقتصادي متعارف عليه، سواء كان خاصاً أو عاماً للإنتاج المادي، كاستخراج موارد الطبيعة ومعالجتها واستثمارها.

يذهب قاموس الصناعات الشامية إلى وصف كل حرفة أو عمل أو شغل يدر المال ويتكسب منه المرء، على أنه صناعة، فتندرج على سبيل المثال، الشحاذة، بوصفها «صنعة» في قائمة الصناعات. من جانب آخر تشكل صناعات القاموس معياراً واضحاً لقياس الاغتراب الذي دهم مجتمعاتنا ما بين بداية القرن الماضي ونهايته، فما كان مسلّماً بمعرفته في أوائل القرن، صار للذين عبروا الزمن ودخلوا الألفية الثالثة شيئاً غامضاً وغرائبياً، فالتطور الاجتماعي المصحوب بالتطور التقني أفرزا لغتهما الرديفة والمعاصرة التي أجهزت على ما اضمحل من لغة كانت سائدة في الماضي، فبلدة دمشق التي كان يسكنها آلاف من البشر لا يتجاوزن المائتين، أصبحت اليوم المدينة الكبرى والعاصمة التي يسكنها عدة ملايين. التطور المنعكس في هذا التوصيف، ينسحب أيضاً على توصيفات أخرى كثيرة وفي مجالات عديدة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

نتعرف من خلال لغة الصناعات الدمشقية إلى التركيبة الاجتماعية لمنطقة بلاد الشام وبالأخص دمشق من ناحية التعددية المذهبية

الدينية البادية في فرز المهن حسب انتماء محترفيها النصارى أو اليهود، وكذلك الاستدلال على تعددية الأعراق والأجناس المستوطنة في الشام كالقرباط (النور) والأكراد والشركس، أو أبناء أقاليم أخرى كمصر وأفغانستان، إلا أن الاستدلال الأهم، يتجلى في التركيب الطبقي للمجتمع بتصنيف المهن وفق فرز أخلاقي ما بين مهن شريفة وأخرى غير شريفة، وأيضاً مهن دنيئة لأهلها وأخرى لغير أهلها، وفق معيار مادي يحدده حجم رأسمال المال من جانب، ونظافة المهنة أو قذارتها من جانب آخر. قد نعجب اليوم لهذا الفرز، لكن علينا ألا نستهجنه، لكون بعض المهن ما زالت لدى العامة والعائلات المحافظة غير مرغوبة، وإن لم تعد توصف بالدنيئة أو غير الشريفة، لسببين الأول أن حكم «الشرف» اقتصر على مضامين وطنية وأخلاقية بحتة، إلى جانب تلازمه مع الكسب الشرعي للمال، ولا يهم كثيراً وضاعة العمل، التي كانت مقياساً لشرف المهنة. ثانياً، بعض المهن التي كانت مكروهة تبدو اليوم من المهن المحببة أو المقبولة اجتماعياً لما تدره من مال وفير، أو تحققه من مركز اجتماعي مرموق، مثل مهنة الاستيراد والتصدير والتي تقابل في الماضي مهنة «البزاز»، المصنفة ضمن المهن الشريفة لكنها مذمومة لأن ممارستها قد يشوبها الحرام، فالبزاز هو مستورد الأقمشة والملابس غير المخيطة، وغالباً حسبما يشاع تكون مغشوشة فيضطر البزاز للنفاق والتدليس والأيمان الفاجرة، ونهاية البزاز غير حميدة، كأن يذهب رأس ماله، ومال غيره من التجار. مثلما نستطيع ملاحظة أن مهنة كانت تعد رفيعة كالتعليم، قد انحط قدرها منذ عقود بسبب كسبها الضئيل وصارت من المهن المتواضعة وصاحبها غير مرغوب الاقتران به، وهذا ما يتناقض مع تطور المجتمع، رغم الاحتفاظ لهذه المهنة بمقام رفيع للمرأة العاملة في التدريس لما توفره من ظروف عمل

اجتماعية ملائمة لطبيعتها أكثر من الرجل.

تنعكس أهمية المهنة أو تفاهتها في ما يتناقله العامة ووفق معيار غير متسامح، لا يهم ماذا تعمل بل ماذا تكسب، فالعمل مهما كان، يستطيع المال الوفير أن يغسله من العيوب. كذلك اختلف المعيار الأخلاقي الذي تقاس عليه المهن الدنيئة من المنظور المحافظ مثل المهن الفنية كالتمثيل والغناء والرقص والرسم، كانت مرفوضة ومنحطة بامتياز، بينما اليوم محبذة لدى الشرائح المنفتحة ومتحفظ عليها من قبل الشرائح المتزمتة، إلى جانب مهن جديدة طرأت على المجتمع مثل مضيفة الطيران والتمريض، والأعمال الفندقية، والسكرتارية، ورغم الاستنكار المتفاوت الذي يطالها، لا يصدر عليها حكم أخلاقي، تحت لافتة مهن شريفة أو غير شريفة، بل تحت مفهوم آخر يعبر عنه بمهن محترمة أو غير محترمة، ولا توجب التقدير، إلا بما تجنيه من مال، وبالمقابل تجني مثيله من الاحترام. اليوم، المقياس هو المال، هكذا بجلاء، إنه القيمة المثلى التي يتصاعد اعتبارها.

المجتمع الشامي أسوة بغيره من المجتمعات أصابته تحولات عميقة طالت مفاهيمه للحياة والعمل والبشر، وربما من خلال العمل (المهن) يتبدى لنا ذلك التسارع أو الانقلابات الحاصلة بين أوائل القرن الماضي وأواخره.

المهن الشريفة

من المفروغ منه أن ملاك الأطيان والأراضي، سواء كانت الملكية هبة من الله أو من ولي النعمة فهي من المهن الشريفة، وأغلب العائلات التي توارثت الملكيات الكبيرة مثل: بيت العظم

والحسيبي واليوسف والجزائري وغيرهم، لا تضن على نفسها بالأنساب العريقة والألقاب الشريفة والمهن الشريفة، وكانت تربأ بنفسها عن الصناعات اليدوية. بيد أنه في حدود ما اصطلح عليه، فإن الصناعات المعتبرة من المهن الشريفة هي: الجوخي، الخياط، الديمجي، الرتا، الساعاتي، السروجي، الشالاتي، الطرابيشي، العبجي، الصواف. أما مهنة «الألاجاتي» بتفخيم اللام، فتعد من أرقى المهن، وصاحبها يدعى بالمعلم الذي يستورد الحرير والغزل «القطن» ليحوكها من قبل الصناع. وتكتسب هذه المهن لقب الشريفة من القدرة المالية التي يتمتع بها أصحابها، ووجاهة تفرض احترامها وهيبتها وكلمتها في المجتمع الدمشقي المتمثل في إطار الحرفة والسوق والحارة والأسرة.

المهن غير الشريفة

أما المهن غير الشريفة، فمنها» الإسكافي، البواب، الجدّا (بائع الجدايا)، الجلاد، الجمّال، الحائك، الحفّار (حفار القبور)، الخدام (الذي يعمل في الخدمة)، الحميماتي، السمكري، الدباغ، الدلال. وعادة يمتهن الفقراء هذه الصناعات إلى جانب مهن أخرى أدنى مرتبة منها مثل: مهنة التبع (خادم الحمام)، والبلانة، أو البلان المتعيش من تفريك الأجساد وتنظيفها في الحمامات العامة، وعلى منوالها الدلاك والمصوبن، وهي من المهن الموصومة بأنها لغير أهلها دنيئة وغير شريفة. وقد وصف الشاعر البلان:

وبلان له ظفر يباهي به حد الشفار المرهفات
وأعمى مقلتي بصنان إبط يفوح به على كل الجهات

وتدلنا بعض المهن التي قد نجدها اليوم بائسة جداً وقذرة، بسبب

قماءتها على مدى الفقر والفاقة التي يتميز بها بعض ما كان يدعى بالصناعة، لكن تزول غرابتها عندما نرى المهنة نفسها تتجدد في أيامنا هذه، حينما نرى الأولاد والكبار من جامعي النفايات يغطسون في حاويات الزبالة. ولعل صنعة «الخرقي» العتيقة الذي يتعيش على جمع الخرق من المزابل، وأفنية البيوت والحارات، فيغسلها وما صلح منها يخيطه على شكل أكياس تباع للعطارين لتستخدم في الصرّ، وما لا يصلح منها يباع للصرماياتية، ليجعلوا منه حشواً للصرامي (الأحذية)، تدلنا على أن المهنة لم تنقرض بل أصابها التوسع والانتشار والازدهار. وقد اشتهر بهذه الصنعة فقراء اليهود، مثلما اشتهروا أيضاً بمهنة «القنياطي» ويعتقد أنها لفظ محرّف عن كلمة «قليطاتي» من «قليط» نهر الوخم والقاذورات الذي تصب فيه مياه الصرف الصحي. يقوم «القنياطي» بتنظيف المجاري في المنازل، وعرف في مراحل تاريخية سابقة بـ «السرباتي»، وقد اندثر المصطلحان من لغة العامة. عدا نهر قليط الذي لا تزال سمعته تسبقه إلى الأذهان كمثال للوساخة والنجاسة اللتين يضرب بهما المثل.

وهنالك من المهن ما وضع تصنيف أخلاقي لها في القاموس، فراوح وصفها بين الخسة والدناءة، وهو أمر مستغرب، إذ إن هذه الصناعات أو المهن في الزمن المعاصر تُعدّ من المهن الشريفة بل المحترمة مثل البغجاتي (صانع الحلويات) أو الأيتوني (صانع وبائع مواد العمارة من كلس ولبن). فيما يصنف القاموس هذه المهن ومهناً أخرى مثل البرابيشي، الجليلاتي، البقال، السمان، الطيان، العربجي، الصبان، الضمان، المسدى (الحائك)... الخ!! بين الخسيس والدنيء.

ومن تلك المهن صناعة الأحذية التي تندرج ضمن تصنيفات تخصصية عدة منها الصرمایاتي، وتعني صانع الصرامي، مفردها صرماية وهي حذاء من نعل أحمر من دون كعب، كان يلبسها كثير من أهل الشام، وأهل القرى بتمامها. ومنه أنواع، نوع لطيف الشكل يسمى «الحلبي» يلبسه البعض من أهالي دمشق. ونوع يعرف بـ«نصف كشفة» يلبسه أهل القرى، ونوع أصفر يلبسه أهل العلم. ظلت هذه الصنعة رائجة حتى الربع الأول من القرن العشرين. كذلك مهنة الزرابيلي، الذي يصنع صنفاً معيناً من الأحذية للفلاحين، يدعى زربول، ويتصف بغلاظة النعل، ويقاوم عوامل الطبيعة الزراعية القاسية، وأحياناً يبقى الفلاح يلبس الزربول أكثر من ثلاث سنوات. والمثل الشامي يخص القدم الكبيرة بالزربول، وليس بالصرماية. ولهذه الصناعة سوق خاص يدعى «الزرابلية» لا يزال قائماً في دمشق حتى اليوم، بالرغم من ضياع هذه الصناعة ونسيان أصل تسميتها. كما ضاع أصل كلمة «الشعال» مع زوال وسائل الإنارة القديمة، فالشعال من يتولى مهمة العناية بالفوانيس، تنظيفها وتزييتها صباحاً ليشعلها عند حلول الليل، وكان استخدام الشعال ضرورياً في الجوامع الكبيرة كالجامع الأموي وجامع سنان باشا وغيرهما، لكن خدمة الجوامع لم تشفع لهما لناحية وصف صناعتهم بالمهنة الدنيئة لغير أهلها.

ومن المهن التي انقرضت في الشام، وعلى الأغلب لا تزال موجودة في مجتمعات عربية أخرى مثل الريف المصري، وتعتبر من المهن الدنيئة والرائجة «اللطامة» وهي حرفة النساء المتهتكات، وقد اضمحلت هذه المهنة الغريبة مع بداية القرن العشرين وتم التخلي عن استئجار النسوة اللواتي يستخدمن للبكاء والنواح على الميت، فيحللن شعورهن ويلبسن الأسود ويلطخن وجوههن

بمسحوق الفحم، وغالباً ما يتقاضين أجرهن مسبقاً ليكون الفعل على قدر الدفع، فيعددن خصال المتوفى الحميدة ويولولن ويلطمن على صدورهن، يساعدهن على ذلك أهل الميت حتى خروج جثمانه من الدار.

يندرج في هذا التصنيف أيضاً مهنة الصوفاناتي، بائع الصوفان، وهي مادة مستوردة تستخدم للإشعال، يمتهن بيعها عادة أولاد اليهود، يتجولون بالصوفان الموضوع في صندوق خاص من الخشب والبلور يعلق بالرقبة يدعى «الجام». وكان الفلاحون يفضلون الصوفان على الكبريت لرخصه وعدم انطفائه في البرية إذا كانت هناك رياح. وهذه المهنة اندثرت مع اندثار مادتها. أما «الطواب» ويدعوه أهل الشام بضراب «اللِبن» فهو من يخمر التراب مع التبن ويصنع منهما لِبن، جمع لَبِنة، وتستخدم للبناء بدل الحجارة، ويعمل الطواب في النهار ما بين الألف والألفي لبنة حسب نشاطه، ويضرب المثل به، فيقال «مثل ضرّاب اللبن يعد ألوف وينام على الحصير»، وقد تحولت هذه الصناعة من ضرب اللبن (التراب والتبن) إلى تصنيع البلوك من الحجر والأسمنت والرمل. ومن مهن العمارة الزائلة أيضاً الشعّار وهو ناسج الخص من الشريط، المعروفة بـ«شعرية» المستخدمة لحماية النوافذ الزجاجية من عوامل الطبيعة، ويقابلها اليوم الشبك المعدني.

أما مهنة الرّمال، الذي يضرب بالرمل لمعرفة الطالع، فلا تزال موجودة على نحو ضئيل ومحدود جداً عما عرفت به سابقاً مع اكتسابها تنويعات جديدة كالتنجيم والضرب بالمندل، أو حديثاً معرفة الطالع والأبراج بالكومبيوتر. وطبيعة عمل الرمالين وأساليبهم، حسب قاموس الصناعات، على أنواع: منهم من كان يجلس في

الطريق إلى مقبرة باب الصغير ويجمع حوله المارة ممن يقصدون معرفة الطالع، أو أضاعوا حاجة؛ وفريق آخر يقصده زبائنه إلى بيته ممن لهم حوائج. وهي حرفة كالدجل، تعتمد على اقتناص المال ممن خف عقله، ومن الشعر الذي يصف هذه الحرفة:

قالوا: طريق، قلت يا رب للقا وقالوا اجتماع، قلت يا رب للشمل

فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر فلا تنكروا أني أخط على الرمل

كما يمكن تصنيف مهنة «المجركش» وتعني المزركش، بين المهن الزائلة منذ أكثر من ١٥٠ عاماً، وكانت قبل ذلك مشهورة ورائجة في دمشق، وهي تزيين المفروشات بعروق من الفضة أو الذهب الخالص. وهي تتقاطع مع مهنة الطرّاز التي زالت هي أيضاً، مع أنها من المهن التي شهدت تحولاً كبيراً في نمط التصنيع، فالطرزي هو من ينقش الأقمشة الحريرية، يطبعها أولاً بقوالب مرسومة حسب الرغبة ثم يطرزها بالحرير الملون، وكانت هذه المهنة رائجة جداً في دمشق وعرف منها: اللفات، الشكم، سجادات الصلاة، اللحف، البقج، وكثير من الأثواب، واضمحلت هذه الحرفة مع ورود أقمشة أجنبية مطرزة من البلاد الأجنبية، وظهور ماكينات تطريز خاصة بهذه الحرفة، ولا تزال هناك أماكن في دمشق القديمة تختص بالتطريز كسوق حمام القيشاني الذي يقصده الزبائن من كل أنحاء البلاد. وإلى جانب مهنة الطرزي، القاووقجي وهو صانع القووايق التي اختفت منذ منتصف القرن التاسع عشر، مع بدء تغير لباس العامة وبدء التوجه نحو اللباس الإفرنجي مع الطربوش الذي ازدهر في دمشق في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. والقاووق قلنسوة كان يعتمّ بها العلماء والوزراء والأعيان ويلف عليها الشاش

الأبيض، ولا يتقن التعمم إلا محترفو هذه المهنة. وقد عرفت دمشق بعدها العديد من الصناعات المتعلقة بلباس الرأس كالطرابيشي، والقلبقجي، وهي مهن موجودة اليوم كجزء من الفكلور الدمشقي ليس إلا.

أما صنعة القطعجي، فهي من الحرف الفنية النادرة وتبدو حسب التعريف الوارد في القاموس مهنة محدودة جداً ضمن زمان معين وتوارت خلف تطور سريع شهده مجال هذه الصنعة، والقطعة: لوح فيه حديث نبوي ذو حكمة أو شعر، يجيد كتابته خطاط مع النقش الجميل، إما على ورق أو بلور، يضعون له بروازاً من الخشب المذهب، المعروف بـ «المقدّة» الرفيعة. وكان أصحاب حرف الحلاقة يرغبون باقتنائها، والتتنجية (بائعو الدخان)، والشربتجية (بائعو العصير)، والضوندرمه جيه (بائعو البوظة) ومن شاكلهم، ليعلقوها في محالهم. ومهنة القطعجي التي يزاولها أناس قلائل أخذت بالتلاشي مع ظهور قطع الورق المطبوعة بماء الذهب القادمة من الآستانة إلى أسواق دمشق. ومن المهن التي مكثت طويلاً قبل أن يجتاحها طوفان التكنولوجيا التلفزية «عجائبك عجائب» وهو صاحب صندوق العجائب المعروف حيث يطوف الأزقة والقرى لعرض صور ملونة داخل صندوق يقبل عليه الأطفال لرؤية الصور المتحركة بواسطة لولبين على طرفي الصندوق، ويعمل بهذه المهنة من ليس له مهنة لأن مردودها المالي قليل جداً.

ثمة أيضاً، مهن كثيرة تلاشت ليس بفعل التحول الذي طرأ عليها كصناعة، بل لما أصاب بعض القيم والأعراف من تحول كبير نتيجة تطور الوسائل المستخدمة، فمثلاً الرمح والسيف كوسائل

حربية لهما قيمة رمزية نابعة من استخدامهما في الدفاع عن النفس حيث يعدّ الرمح واحداً من رموز القتال والقوة، وإلى حين بدء استخدام البندقية في منطقة الشام كان البدو يغرسونه على باب الخيمة دليل عز وجاه؛ ومهنة «الرميحاتي» صانع الرماح وبائعها، من الصناعات الرائجة في الشام كصناعة السيوف، ومازال السيف الدمشقي يتمتع بصيت واسع حتى الآن وخارج بلاد الشام. وفي بدايات القرن العشرين كانت تقام للرميحاتية سوق خاصة في محلة المزيريب أول محطات طريق الحج الشامي، بالقرب من مدينة درعا جنوبي دمشق، فيجتمع هناك الرميحاتية مع التجار الدماشقة موسمياً مرتين في العام، ويقصدهم البدو لشراء السيوف والرماح والبن والملابس وأنواع من الأطعمة الشامية.

مهن مكروهة، ومهن حقيرة

تقسيم المهن حسب المعيار الأخلاقي لم يقتصر على وصف بعضها بالدناءة والخسة، بل فرّق أيضاً بينها وبين المهن المرذولة والمذمومة شرعاً كتلك التي تتعارض مع مبادئ الأديان وبالأخص الإسلامي منها، حتى لو كان دخلها وفيراً أو تتطلب رأسمالاً كبيراً كمهنة «الخزّان» الذي يدخر القوت من الحبوب كالقمح وغيره كالسمن والفحم، ليبيعه بربح مضاعف. وهو مذموم شرعاً، لتسببه بالتضييق والشدة على الخلق. والخزان مذموم عند أهل الشام ويشار إليه بالأصابع ولا سيما في أوقات الغلاء أو القحط، عندما يسبّ الفقراء وأولادهم الخزّانة ويشتمونهم بألفاظ قبيحة جهاراً ويدعون عليهم سراً وعلانية. وهناك مهنة «الخمّار» الذي يبيع الخمر ويقال له خمرجي، وحسب القاموس، أن أكثر من يتعاطى بيع المسكرات هم النصارى، وتعد من أخبث الحرف. وأيضاً

مهنة «القوّاد»، فممتهن هذا العمل ملعون، وهو الديوث واصطلح على اسمه بدمشق تصريحاً بـ «العرصة»، ومحترفو القوادة، نوعان: عرصة الأكابر، الذين يرتكبون الفواحش ويكون القواد لديهم مكرّماً مبجلاً، ذا أمر ونهي، نافذ القول، يتيه على الناس، فيُراعى خشية ممن يقود لهم وينتمي إليهم. وعرصة العامة الأخباث، يأتون لهم بما يرغبون.

تلك المهن المكروهة تختلف عن غيرها من المهن التي تعتبر حقيرة ومستنكرة مثل: «الكلاّب» وهو من يتبع الجنائز ويأتي منازل الموتى لتقبل الصدقات التي يوزعها أهل الميت، إذ كان من عادة أهل دمشق في اليوم الثالث للوفاة أن يعملوا صدقة للفقراء والمساكين فيطبخون لهم ويطعمونهم داخل الدار، فيأتي الكلاليب، وأكثرهم لنذالتهم لا يرضيهم القليل ولا الكثير، وينبئ عن ذلك لقبهم بـ«الكلابة» التي تتكلب بالشيء (تمسكه بعنف)، وكذلك يتكلبون بالإنسان، ولا ينفكون عنه حتى يرضيهم. وحين يكون من يوزع المال عليهم غير مهاب ولا جسور، يشتمونه ويضربونه، وهي مهنة لا يتعاطاها إلا كل مسلوب ذوق وحياء، وكان بعض الأغنياء يستخدمون حرساً خاصاً على أبواب دورهم عندما تقام في منازلهم مناسبة لمنع الكلاليب من الدخول.

وأخرى غريبة وغير مستحبة

من الطريف أن قاموس الصناعات الشامية لم يترك مهنة أو صنعة أو عمل إلا وتعرض له، حتى الشحاذة وأنماطها ودرجاتها، فصنف معهم «المزعبر» (ممارس ألعاب الخفة) ولم يغفل عن مهنة «القوّال» وهو المتعيش من حفظ المدائح والأشعار؛ يدور القوالون في الأسواق على الباعة، وفي الأزقة، يترنمون بإنشاد الأشعار،

ويمدحون كل شخص بما يناسب حاله وصفاته ارتجالاً، فيعطيهم أصحاب الدكاكين بما تسمح به أنفسهم. وكانت هذه المهنة من المهن النادرة، ومعظم محترفيها من الغرباء المستوطنين في دمشق، وبالأخص من المصريين. ولا تنأى مهنة «الثعباني» عن الشحاذة كثيراً سوى بغرائبيتها، فالثعباني الذي يجمع الأفاعي ثم يقلع أنيابها ويطوف بها في الأزقة والقرى، يلاعبها ويأخذ من المتفرجين ما يدفعونه له من مال. وقيل بأنه كانت تسكن في دمشق أسرة تمتهن هذه المهنة، لا يجرؤ أحد على دخول منزلها الذي يحوي على الأقل مائة ثعبان وحية يطعمونها البيض وغيره، وتشاركهم في طعامهم وتأنس بهم كثيراً، وعادة ما كان يُقصد هؤلاء للإمساك بالأفاعي إذا وجدت في البيوت القديمة، وللثعباني طريقته الخاصة في إخراج الأفعى من جحرها ومنها تكراره لكلمة «يا ود .. ود» مئات المرات حتى يخرج الثعبان فيقبض عليه بمهارة ودقة، وهناك من الذين يشتغلون بهذه المهنة عندما يفلسون يلجأون إلى تسريح الأفاعي نحو بيوت الجيران حتى يضطروا لاستدعاء الثعباني بأجر معلوم. وتشبه هذه المهنة مهنة «العقاربي»، وهو الذي يجمع العقارب، ويظهر مواهب خاصة جداً بملاعبتها، فيعمد بداية إلى كسر إبرة العقرب التي تلسع، ومن ثم يضعها في جيبه أو على رأسه، وقد عرف الدمشقيون من العقاربية من كانوا يحملونها معهم إلى الجامع، فتسرح من جيوبهم وإذا رآها المصلون فروا هاربين، أما هو فيسعى إليها كسعيه إلى شيء عزيز.

مهن الطبابة

لا تختلف مهنة «العلقي» عن المهنتين الأخيرتين من حيث الغرابة، لكنها تصنف ضمن المهن النافعة في زمانها، ولا تدخل في باب

الشحاذة، فالعلقي هو بائع العلق، والعلق أشبه بالدود، يعيش في الأنهار والبرك، يستخدمه الحلاقون لإخراج الدم الفاسد من الجسد. ويصب في هذا السياق مهنة الكحّال الذي يقوم بتكحيل العيون المريضة. وقبل انتشار الطب احترف كثير من الدجالين «الكحالة»، وأساءوا العمل بها، فكان يترتب على العين المريضة أن تتحمل جراثيم المرض، بالإضافة إلى ما يحمله حجر الكحل الأسود إليها. ولعل أهم المهن الطبية التي نالت مرتبة اجتماعية هامة، وإن لم تكن مرموقة «الماشطة» أو «الداية» وهي القابلة المتقدمة التي يطلق عليها لقب الماشطة في ليلة الزفاف، حيث تحظى الماشطة في هذه الليلة بمركز مهم وعمل خاص، بل إن الداية كانت لا تفارق العروس ليلة الزفاف فتعنى بتسريح شعرها وتزيينها وتلبيسها، وتمكث على بابها حتى الصباح، وقد يستعين بها العريس في حال كانت عروسه خائفة، أو صغيرة جداً، لتساعده على عروسه، وفي حال وجود إشكال نفسي أو عجز عند العريس كانت الماشطة تتكفل بالمهمة وحدها، فتفتض بكارة العروس بواسطة يدها أو مفتاح ملفوف بالقماش، للحصول على دليل عفتها لعرضه على الأهل، وكثيراً ما كان ينجم عن تلك الممارسات حوادث مؤلمة. أما الماشطة فكانت تنال أجرها شمعة عسلية ومجمع حلوى مشكّلة بالإضافة إلى أجرها من المال، حسب حالة أهل العرس الاقتصادية. وقد زالت هذه المهنة منذ بداية القرن الماضي، ويكاد ينحصر دور الداية اليوم في التوليد في المجتمعات المغلقة أو في حال عدم وجود أطباء.

تصنيف طائفي وعرقي

لعل التغييرات التي طرأت على المهن والحرف الشامية تعكس إلى

مدى بعيد التطورات الكثيرة التي أصابت التقاليد والمفاهيم الاجتماعية، فتلك العادات صارت من التاريخ المستطرف والمستغرب، مع أننا لو نظرنا عميقاً في عاداتنا وتقاليدنا وحتى في كلماتنا اليوم، نلاحظ أن الخيوط التي تربطنا بما ننكره من الماضي مازالت موجودة وتفعل فعلها فينا على نحو خفي ومثير للخجل لا يمكن نكرانه، مهما بدا الانفتاح الذي تشهده مجتمعاتنا جذرياً وعاصفاً، فمثلاً موضوع التقسيم الطائفي والعرقي رغم تجاهله لا زال قائماً حتى اليوم، بل وقد يكون مستفحلاً على نحو أسوأ من الماضي، لولا محاولات كبته والتستر عليه خجلاً لا عن اقتناع، وهو الأمر الذي ربما لم يكن على هذا النحو في الماضي، فقاموس الصناعات الشامية، اعترف صراحة بهذا التمييز، ولم يخف هذه النزعة الاجتماعية عندما صنف المهن حسب المذاهب الدينية، فهناك مهن برع فيها المسيحيون، وأخرى اختص بها اليهود، فمثلاً كان المسيحيون الشوام يسيطرون على مهن الخياطة، والصاغاتية، وبيع وصناعة الجوخ المنقوش، ورعاية أقنية المياه (القنواتية)، ونحت الحجارة والحلاقة. أما المهن التي احترفها اليهود في دمشق فهي بيع الجوخ بألوانه البسيطة الأسود والأحمر والأزرق، والصيرفة (تبديل العملات)، وكانت حكراً على أغنياء اليهود في دمشق بالإضافة إلى (الربا). أما التحوير (تبييض الجدران بالكلس الأبيض) التي يعمل بها الفقراء من اليهود والمسلمين، وكذلك مهنة البوييجي والخرقي والسمكري، والقنياطي والكباريتي (بائع الكبريت) والنقش على النحاس من أكثر المهن التي برع بها اليهود في دمشق. وحسب التصنيف الإثني كانت مهنة الغرابيلي (صانع الغربال) من اختصاص النور المعروفين بالقرباط إلى جانب احترافهم لمهن أخرى مثل الجعيدي (مرقص القردة والدببة) والزمار (عازف

القصب) والطبال. بينما الرعي اختص به في الشام الأكراد من غير المتمدنين، بالإضافة إلى مكبات (صانع النملية خزانة الطعام) التي يتقنها فلاحو الأكراد، ومهنة السائس وكانت للمصريين المتوطنين في الشام. والكبابجي وقد انفرد بها العجم من غير العرب ممن يتقنون شواء اللحم وما يعرف بالكباب العجمي، أما المجلخ (إصلاح السكاكين والأمواس والمقصات) فكانت من نصيب فقراء الأفغان الذين يسكنون دمشق.

ومن الإلماحات الهامة التي وردت في القاموس، الإشارات إلى طبيعة الحياة الاجتماعية الشامية والمهن النسوية، مع أنه في تلك الحقبة من الزمن لم تكن المرأة الشامية قد خرجت إلى سوق العمل على نحو واسع وكان العمل مقتصراً على الفقيرات منهن. أبرز القاموس مشاركتهن في أهم القطاعات الاقتصادية إلى جانب الرجل كالغزل والنسيج، والزراعة كالمعشبة (تنظيف الأرض من الأعشاب الضارة) والشوارة (جمع الثمار الموسمية)، بالإضافة إلى مهن أخرى مثل العشّا والفرّا (خياطة وتجارة ملابس الفرو) كما تم التطرق إلى مهن تختص بمزاولتها النساء مثل «الأسطة» (رئيسة العاملات في الحمام)، وكبابة الحرير، وغزالة الصوف والغسالة، والداية، والمرضعة، والمقبّعة (التي تداوي مرض القرع)، والممسدة (مدلكة بطون الأطفال)، والنقاشة، التي تنقش الأجساد بالحناء.

قاموس الصناعات الذي يشير اسمه إلى بحث لغوي اقتصادي، سيكون للباحث أيضاً مرجعاً اجتماعياً هاماً جداً، وبالأخص في التعرف إلى أصول الأسماء والكنى المعروفة اليوم في دمشق، والتي لم تكن سوى صفة لعمل زاوله الأجداد، لم يبق منه سوى الاسم كلغة فقط من آل العجان، والرواس، والحصري، والسمان،

والبزري، والمنجد، والقصار، القضماني، والجرداقي، وحتى الخضري، والترجمان، والقباني، والغلاييني، والقصاب، والقصاص، والشلاح، والدهان، والخولي ... إلخ في خضم هذه اللغة تنبسط الخارطة الاجتماعية لوحة شديدة الغنى والتنوع والتباين لا تفتقر إلى الإمتاع والطرافة التي تعيد البريق إلى ماض ينام تحت الجلد ونخاله بعيداً جداً.

صناعة السيوف.. تصوير جين بابتيست شارلير ١٨٦٧

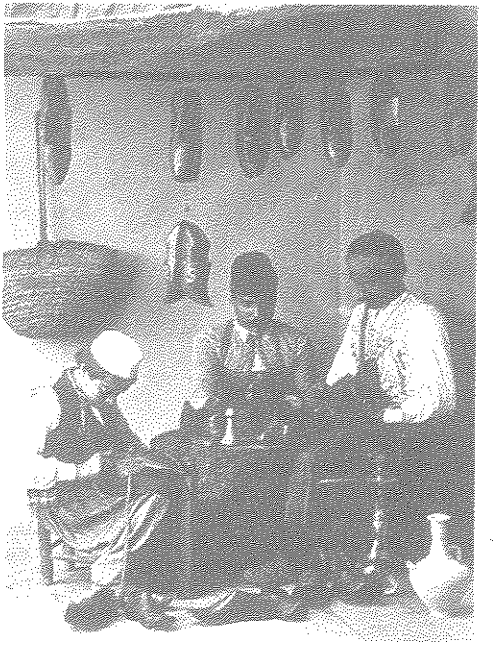

صناعة الأحذية تصوير
جين بابتيست شارلير
١٨٦٧

صانع سروج الخيل.. تصوير جين بابتيست ١٨٦٧

مجلخ سكاكين.. تصوير
جين بابتيست شارلير
١٨٦٧

حلاق..
تصوير جين بابتيست شارلير
١٨٦٧

حرفي.. تصوير جين بابتيست شارلير ١٨٦٧

خراطة الخشب..
تصوير جين بابتيست
شارلير ١٨٦٧

كاتب.. تصوير جين بابتيست شارلير ١٨٦٧

هدوا خيامك وراحت أيامك

نداءات الباعة الجوالين

يا ما رماك الهوى وقلبي انكوى يا ناعم.

بردان؟ تعا صوبي، هلق طاب أكل العسل!

بدوية يا سمرة..

مزاوية يا حلوة..

شحرر يا مال الوادي..

الله الدايم ...!!

تلك الصور الشعرية التي كان الباعة الجوالون يتفنون بإطلاقها من حناجرهم، بدأت تهجر شوارعنا، مع تغير نمط الحياة وبالتالي أساليب الترويج والبيع والشراء، فالملصقات الإعلانية باتت تحتل

المنظر العام، والعبارات المقتضبة صارت جزءاً من العلامة التجارية المسجلة، أما البائع المتجول الذي عرفناه مرتدياً الشروال الأسود وصدرية الدامسكو وقبعة صغيرة، فقد بدأ بالانسحاب من الأزقة والحارات بعد مسلسل من التحولات المتتالية، تاركاً ذكرى صوته الدافئ وصورته يجر حماراً خلفه، أو دافعاً عربة خشبية أمامه، عابراً الحارات من الصباح حتى الظهيرة، يدلل على بضائعه بكلمات جميلة أشبه بقصائد غزلية، وعبارات ملغزة تنادم الغرائز بخفة ظل. هذا البائع لا يأخذ قسطاً من الراحة إلا مع الأذان ودخوله إلى أقرب جامع للصلاة.

فلكلور لم يبق منه اليوم سوى بقايا باهتة، في كتب المذكرات والتراث، والمسلسلات التلفزيونية والإعلانات السياحية، مظهر تفتقده أزقة المدينة القديمة وأحياؤها منذ بضعة عقود، ولم تعرفه إلا عرضاً المدينة الحديثة بعد اتساعها العشوائي وانتشار المولات الحديثة وما حملته من تقاليد تسوّق مستجدة على مجتمعاتنا.

اليوم، نداءات الباعة، مجرد أصوات عالية تخلو من الفتنة والكلمة الحلوة، جزء من الصخب العام المهيمن على الشارع، لكنها تستدعي إلى الذاكرة نداءً قديماً، يعبر عن واقع آل إلى النسيان: (هدوا خيامك وراحت أيامك، وما بقي بالكرم غير الحطب يا عنب) .. وكأن في نداء بائع العنب القديم، إشارة إلى حال الباعة الجوالين جميعهم، إذ لم يبق منهم ومن ذكرياتنا معهم سوى الحطب الجاف، صورتهم الشاعرية تلاشت وهم يقبلون مع الصباحات الندية صيفاً والباردة شتاءً إلى الحارات الدمشقية المتداخلة والملتفة على بعضها، ينادون على بضائعهم بأصوات مغسولة بالشجن، يخترقون الهدوء ويغرون المارة والنساء

المتواريات بالإطلال من الشبابيك والمشربيات، يدعونهم إلى إلقاء نظرة إلى ما يحملونه من خضر وفواكه. نداء لا يخفي دعوة إلى ممارسة طقوس الشراء والمجادلة بالأسعار، في تقليد شامي عريق يستهوي البائع والشاري، ناسجين معاً دراماهم اليومية، من نداء قد لا يكون رخيم الصوت، لكنه مقنع في التدليل على بضائع ريانة، بما يحمله من دلالات ومعان مثيرة للخيال، يضج بتلميحات مستهجنة لكنها طريفة، مثل نداء بائع الترخون: (ويلك يا ابن الزنا يا خاين)، فيحرك الفضول لارتباط الكلمات بالنميمة والفضيحة وما يلحق بها من حكايات الخيانات المريبة. وقد يكون لها وقع مثير عند احتوائها على ترميز جنسي واضح الدلالات، غير أنه شاعري، كنداء بائع القثاء (على ضو القمر مدت ها القتة) وبائع الشوندر (بردان تعا صوبي هلق طاب أكل العسل)، وبائع الدراق في التدليل على نوع معين من الدراق (لا تشلحوا بيشلح لحالو).

عناصر الإعلان

التماس المباشر مع أحد التابوهات يعدّ بحد ذاته عامل جذب وإغراء، ومن أساسيات الإعلان، التي تحتاج إلى صيغة تعتمد المواربة تسوغ طرحها للتداول في الشارع العام دون أن يكون لها أثر سلبي منفر، وهنا تظهر أهمية النكتة والطرافة والغمز واللمز المستملح، في استثمار حالة الكبت الاجتماعي، لتعميق أثر الإعلان دون خدش الحياء العام، من خلال الإسقاط والإيحاءات المتعددة المثيرة، وهو من ركائز صناعة الإعلان الحديثة التي تعتمد على الإيحاءات وكل ما يتصل بالغرائز والحاجات الإنسانية. وبالنظر إلى ذلك يمكن اعتبار نداءات الباعة الجوالين أحد أشكال الإعلان البدائية، التي تتوفر فيها كل العناصر الأساسية

لصياغة إعلان ناجح، أولاً: تنوب من حيث الصورة الشعرية عن الصورة المتلفزة أو الفوتوغراف. وثانياً: تؤدي من حيث الصفة المميزة التي تقابل (اللوغو أو الشعار أو العلامة التجارية) غرضها، حين ترتبط مثلاً ثمار الصبار بمنطقة معروفة هي المزة التي تشتهر بها (مزاوية يا حلوة). وثالثاً: استغلال المؤثرات الصوتية، بتنغيم النداء بما يقابل (الموسيقى) كنداء الغزلة (يا غزل البنات يا ما غزلوك في الليالي، يا غزل البنات) مع التشديد على الليالي، فالتنغيم هنا يحرض المخيلة على التداعي وإثارة ذكريات حميمة متصلة بمعان توحي بها كلمات مثل (الليالي) و(البنات)، بل حتى أنها قد تدفع إلى اختراع صورة خيالية لمنظر البنات وهن يغزلن الحرير ... إلخ بكل ما فيها من رومانسية، فالموسيقى تلعب دوراً في توجيه الأفكار نحو صور معينة تفيد في التأثير والإقناع، حتى لو جاء هذا التنغيم قسرياً، فيأتي على بعض الأحرف ويحذفها ويمط أخرى، لتغدو الكلمات مجتزأة وممطوطة يصعب فهمها، إلا أنها لكثرة التكرار تغدو نداءً متعارفاً عليه، وبمجرد سماعه يعرف نوع البضاعة وحتى اسم البائع، مثل نداء كعك التماري الذي يصيح (ريا كعيع) وهي بالأصل (تماري يا كعك) أو بائع الشراشف والملاحف الذي يلفظ الكلمة الأولى مموطة والثانية بسرعة مبتورة يصعب فهمها (آآآآآشف. ملاحف).

أساليب الباعة الجوالين في الماضي تعكس آلية ترويج فطنة، فطرية ومتقنة، وهي على الرغم من بساطتها وعفويتها تنطوي على استخدام جيد لإحدى أهم ركائز هذه الصناعة، بالاستفادة من المخزون الاجتماعي والموروث الجمعي، بتحريك الغرائز ومخاطبة الحواس (السمع ـ الشم ـ البصر ـ الذوق ـ اللمس) في مقاربة مدهشة للصيغة الحديثة للإعلان التلفزيوني (المرئي)، أو الإذاعي

(السمعي) مع الأخذ في الحساب أن للكلمة وحدها تأثيراً أكبر، لكونها تدع مهمة رسم الصورة لخيال المتلقي.

يمكن عدّ نداءات الباعة وسيلة إعلانية مؤثرة لم تفقد فاعليتها على الرغم من التطور الكبير الذي ألم بعالم الإعلان في العالم، ولا تزال صالحة بثرائها الطبيعي كي تؤدي دورها. وبالتوقف عند مثال مناداة بائع البليلة ـ الحمّص المسلوق ـ (بليلة بلبلوك، وسبع جوار خدموك، يا بليلة) لا بد أن تستحضر لدى السامع أجواء الجواري والسلاطين في حكايا الجدات وألف ليلة وليلة، والصورة الكاريكاتورية المعتمدة على المفارقة تُظهر بشكل غير مباشر ميزات الحمص الاستثنائية، فمن طرف بما أنه يُعدُّ من أغذية الفقراء، يأخذ في الوقت نفسه صفة الإمارة والسلطان، ما يعوض عن الشعور بالبؤس بإضفاء صفات العز والجاه على الحمص ليبدو أميراً تغطسه في الماء سبع جوار، فكيف سيكون شعور صاحب الحظ الذي سيشتري هذا الحمص المدلل؟ هذا ما يتولى الخيال نسجه، وإسقاطه حتى على وضع الزبون ذاته، والفضل لشطارة البائع ومبالغات الخيال البشري.

مثال آخر، نداء الملفوف وهو (اليخنا) المصنفة ضمن الخضار المتوفرة والرخيصة، وللتذكير يأنف الكثيرون من رائحتها عند الطبخ، ومع ذلك تظهر في النداء بأبهى صورة: (يخنا واطبخ، والجارية بتنفخ، والعبد ع الباب، بقلع الكلاب)، المشهد لا يكتفي بالمبالغة بل ويستثمر مشهداً مسرحياً يضج بحركة درامية، ميدانه مطبخ لعائلة ثرية يتحرك على خشبته شخوص (جوار وعبيد)، والحدث طبخ ملفوف (يخنا)، والقصة أن الجارية منهمكة في نفخ النار تحت قدر اليخنا، فتفوح رائحة الملفوف

الشهية وتجتذب قطعان الكلاب إلى التجمع عند باب المطبخ، فيضطر العبد إلى إبعادها عن المكان.

الطرافة والمفارقة والمبالغة، ثلاث سمات تضمنتها نداءات كانت أقرب إلى سيناريو درامي إعلاني لا يفتقر إلى التشويق والإدهاش، جعلت من (الحمص) و(الملفوف) على قدر عال من الأهمية من حيث الجودة والمذاق الملوكي الفاخر!!

النداء نوع من الفن يعكس على نحو ما ثقافة اجتماعية بما تعنيه من قيم وتقاليد ومعايير، فيمكن التعرف على بعض القيم الجمالية في الذائقة الشعبية الشامية، في نداء بائع الزعرور (أبيض أحمر يا زعبوب، تمر محنى يا زعبوب، والبزر بن يا زعبوب)، التشكيل اللوني في هذا النداء يركز على روعة اللونين الأبيض مع الأحمر بداية نضوج حبات الزعرور، ويشتبه لونها في هذا الطور بلون الحنة الداكن الأقرب إلى لون التمر، دون إغفال استعارة حلاوة التمر للتدليل على طعم الزعرور، في تعبير يرسم باللون أجمل تشكيل وبالإيحاء أحلى طعم، حتى النواة كان لها نصيب للتعبير عن الجودة ووصف لونها البني بلون البن، في صيغة بصرية في غاية الاختزال والبلاغة والتأثير، تضاهي تطبيقات نظريات الخطاب البصري، في استثمار تقنيات الصورة التي حققت تقدماً هائلاً في عالم الإعلان. مع الأخذ بالاعتبار الفارق بين تأثير الصورة المتلفزة التي تحاول تجسيد المتخيل، وتقديمها تعبيراً منجزاً، وبين تأثير الكلمات التي تمنح الخيال المفاتيح والاستعارات والكنايات ليضع الصورة المشتهاة، وما تنفتح عليه من مسارب شديدة التنوع، إذ يرسم كل متلق صورته الخاصة به، فعندما ينادي بائع العنب: (الزيني ألماس والأحمر دباس) يرتسم للشاري تشكيل بالغ الروعة

لصفاء ولمعان حبات العنب من خلال إحالتها إلى صفاء الألماس ولمعانه، وتخيل طعم حلاوة العنب الأحمر بإحالتها إلى طعم الدبس المركز الحلاوة. أما بائع التين عندما ينادي (دبل وعا دبالك يا عيون الحبيب، وعا دباله يمشي لحاله) يمكن تخيل صورة العيون الجميلة ناعسة الطرف، التي يحكي عنها النداء، مما يتاح لكل سامع أن يتصور تلك العيون وفق معاييره الجمالية الخاصة.

المبالغة في نداءات الباعة تتجاوز الحالة الكاريكاتورية التصويرية لتصبح في بعضها دافعاً لحدث ينطوي على حكاية، مثل نداء بائع الباذنجان الذي يدلل على جودته بشدة سواده، والتي هي بدورها ترعب ناطور الحقل فيثر مذعوراً من سواده، في عملية إسقاط لون البشرة السوداء على لون الباذنجان، إذ يقول النداء (أسود ومن سواده هرب الناطور)، بالإضافة إلى ذلك لا يمكن إهمال الإشارة هنا إلى استبعاد اللون الأسود من الألوان الجمالية في الموروث الشعبي وتحديداً إذا كان يرمز للون البشري، لأن البياض من سمات الجمال في الذائقة الشامية. إلا أن جاذبية هذا النداء تكمن في حالة الغموض التي يثيرها من حيرة تبحث عن إجابة لسؤال حول ماهية المنادى عليه مثلاً، وربما لن يقف في وجه الخيال ما يمنعه تصور أي افتراض آخر غير لون الباذنجان الأسود موضوع النداء. ومثلاً في هذه الكلمات (طلعوا علينا العبيد بالليل يا أسود).!!! هل بالإمكان تخيل أن المنادى عليه هو العنب الأسود وليس الباذنجان؟!!

علامات الجودة

نداءات الباعة بما تمثله من حامل ثقافي للقيم الاجتماعية

والأخلاقية والجمالية، تمثل أيضاً حاملاً نموذجياً لعلامات الجودة المستندة إلى الخبرة في المذاق، فكل منطقة جغرافية تتميز بمنتجات زراعية أو غيرها لها علاقة بالبيئة الحاضنة لهذا المنتج، وعلى صعيد الزراعة تختص كل منطقة بنوع من الخضر أو الفواكه، وحسب نداءات الباعة، أطيب أنواع الصبارة تلك المجلوبة من منطقة المزة الشهيرة ببساتين الصبار (باردة وعا لندى شغل المزة هالصبارة). والكرز أفضله الاسطنبولي والحماني، والتين يُنسب لبلدة مضايا (شغل مضايا يا تين لكن بالأكل شهوة). والسفرجل للزبداني، واليوسفي لطرابلس (شغل طرابلس ها الأفندي رأس الملك). أما البرتقال فنسبه الشهير إلى مدن لبنان وفلسطين (شغل عكا وصور هالبردقان، قشر مالو ها ليافاوي)، والبرتقال السكري للمغرب، والعنب لداريا في ريف دمشق، والتفاح الزبداني والنرباني والإزميري. والتوم يبرودي وكسواني، والجزر قابوني، والتمر بغدادي، والكمأة صحراوية.

يرسم الباعة بنداءاتهم خارطة للجودة، تصنف حسب المنشأ سواء للفواكه أو الخضر، وتكون بمثابة علامات تجارية وُضعت بالتراكم على امتداد خط التجارة القديمة من المغرب إلى المشرق ومن بغداد حتى اسطنبول وإزمير.. إلخ، ويمكن اعتبارها شهادات تعتمد مواصفات قياسية متعارفاً عليها، تعادل العلامة التجارية المسجلة، وقد يكون التفاح إنتاجاً محلياً إلا إن البائع يقول إنه مال أزمير أي أن نوعه إزميري، وكذلك البرتقال اليافاوي .. إلخ. وضمن هذا التنوع تبقى دمشق وأريافها حية في نداءات الباعة وجنة للفواكه والخضر، بما تزخر به من عبارات تحبب بالإنتاج البلدي وحتى المنزلي، فينادون على الليمون الحامض (بلدي شغل بيتنا هالليمون أنا حوشتو من عند بديعة خانم).

فنون البيع

الدعابة أو الطرافة لا تقتصر على المستملح في النداءات بل تغدو وسائل ميسرة لعملية البيع، وتجعل من البائع شخصية ظريفة محببة تحرص على فتح حوارات مع الجميع، فيقبلون على بضائعه مع رغبة في التسلية بعد أن يغريهم نداء يحرك لديهم حس النكتة كتلك التي تحكي عن النكايات بين الجارات مثل بائع الثوم (يبرودي يا توم.. كسرواني يا توم .. ولا عازة الجارة يا توم ..)، وأيضاً (ببلاش الردي يا توم)، وعن العلاقة مع الحماة كما يشير إليها بائع السكاكين المنزلية (يللي بدو يصالح حماتو) إلخ.

بالإضافة إلى كونها وسيلة فعالة، الطرافة حاجة لدى البائع للتحايل على شقاء هذه المهنة ومتاعبها، لما تحمله أسئلة الزبائن ومماحكاتهم ومساوماتهم المضنية لتخفيض السعر، فالتعامل مع صنوف مختلفة من البشر يتطلب مهارات وخبرات، لكسب الود وتحقيق الغاية في حضهم على الشراء، لذا النكتة والمرح والدعابة هي المفتاح السحري إذا تكاملت عناصره بالإضافة إلى الميزات الشخصية للبائع، كالتمتع بخفة الدم وسرعة البديهة وحتى الإبداع، حين يلجأ إلى تأليف نداءات خاصة به كاستعارة طعم أكلات فاخرة شهية لإسقاطها على أنواع أخرى من الثمار المحببة كتشبيه الكستنا بالمخ (مو طيب ها المخ إلا بالحمض لاوي، جديدة ها لكستنا) والدراق بالبقلاوة (دشروا البقلاوة وأجو على شانو طاب يا زهري)، حتى يضيع على السامع صنف المبيعات. وثمة نداءات تمتلك خصوصية شديدة فلا يعرف أصلها إلا بمعرفة حكايتها كنداء بائع الكوسا محشي (يا ربِ ما أكثر خلقك) الذي ذكره نجاة قصاب حسن في كتابه «حديث دمشقي». تقول

القصة إن بائع كوسا محشي كان يكرر نداءً واحداً لا يتغير (ربي ما أكثر خلقك) وعندما سأله مقرب منه عن سر هذا النداء أجاب: منذ ثلاثين سنة وأنا أجلس في باب الجابية أبيع كوسا محشي لا يؤكل من سوء حشوته، ومن يأكل منه لا يعيدها ثانية، ومع ذلك كل يوم تنفق الحلة!!

تبدلت ملامح البائع الفقير الساعي وراء لقمة عيشه من الصباح وحتى المساء بنفس راضية وقناعة لا تفنى، رصيده من الدنيا عربة صغيرة، وكثير من الصبر والمراس في التعامل اليومي، وبعض ما حفظه من نداءات، ودعاء إلى الكريم ليفتحها بوجهه. ومع التحولات الطارئة على سمات المدينة المعاصرة صار البائع الجوال أكثر ارتباكاً وقلقاً، وفقد القناعة أمام الحاجات اليومية الملحة، ولم يعد لديه الجلد على التجوال بين الحارات كما في السابق، بل أخذ يسعى للاستقرار في أماكن الزحام، حيث لا يجدي النداء، فهناك من يبسطون بضائعهم على الأرصفة دكاكين متنقلة لمختلف صنوف البضائع من الخردة والإكسسوارات إلى الملابس ولغاية المأكولات الموسمية .. إلخ. في أمكنة لا صوت يعلو فيها على صوت الضجيج العام الذي اعتادته دمشق إلى درجة الإدمان. فالواقف أمام قلعة دمشق يتناهب سمعه العديد من الأصوات الصادرة عن آلات التسجيل الرديئة، تكرر نداءات باعة الخردوات (حيالله غرض بعشرة)، وأصوات جرداء مبحوحة تنطلق من سيارات نقل يزعق بائعها وهو يطرق بأداة معدنية مسترعياً الانتباه، فلا يثير إلا الحنق والإزعاج، وأيضاً الطنابر المزينة بشتى أنواع الخشاخيش التي لا يمل صاحبها من النفخ في بوق متحشرج، إلا أن الظاهرة التي تبدو الأسوأ في هذا المنظر استخدام الباعة الجوالين مكبرات صوت في الأحياء السكنية الجديدة.

تلك المشاهد الباعثة على الضجر لا تعبر فقط عن فقدان عصرنا لهدوء حميمي كان موجوداً على الأقل في الحارات البعيدة عن صخب السوق والشوارع الرئيسية، تعبر بعمق عن حالة القلق التي تعيشها مدينة دمشق وسائر المدن المأخوذة بحركة السوق العالمية ضمن واقع اقتصادي مترد، تحول فيه البائع إلى صائد زبائن مع شطارة ملتبسة بفنون الخداع، ومع كثرة العرض وقلة الطلب تحول البائع الجوال إلى مندوبة أو مندوب مبيعات، ينطلق حاملاً حقائب البضائع بحثاً عن زبون يغرر به وراء كل باب بيت أو مكتب أو مؤسسة، بعملية لا تختلف كثيراً عن التسول من حيث آلية الإقناع إلى حد الرجاء والاستعطاف، باستخدام عبارات إعلانية ترغيبية نمطية تفقد قدرتها على التأثير بمجرد إلقائها آلياً من دون أي إحساس أو إبداع.

البائع الجوال الذي عرفناه في النتاج الثقافي والتراثي الدمشقي ذكرى جميلة لا تحتملها شوارعنا المثقلة بالصخب والفوضى. ومهما بدا واقع السوق اليوم خالياً من الدفء الإنساني، فهو حتماً انعكاس لواقع عام تتقاسم عيشه مدن عبثت بملامحها العولمة.

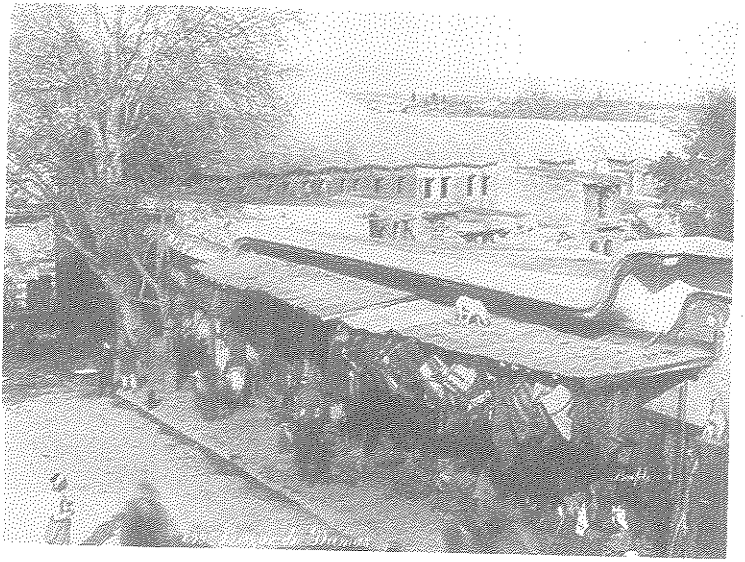

مدخل السروجية

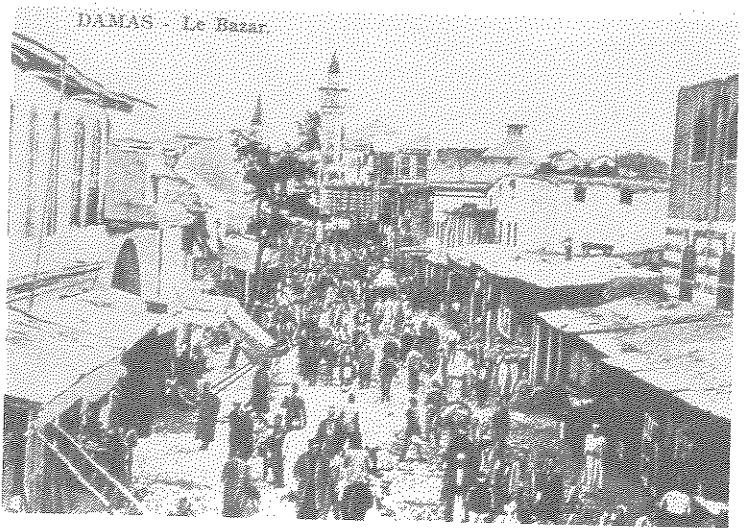

أسواق دمشق

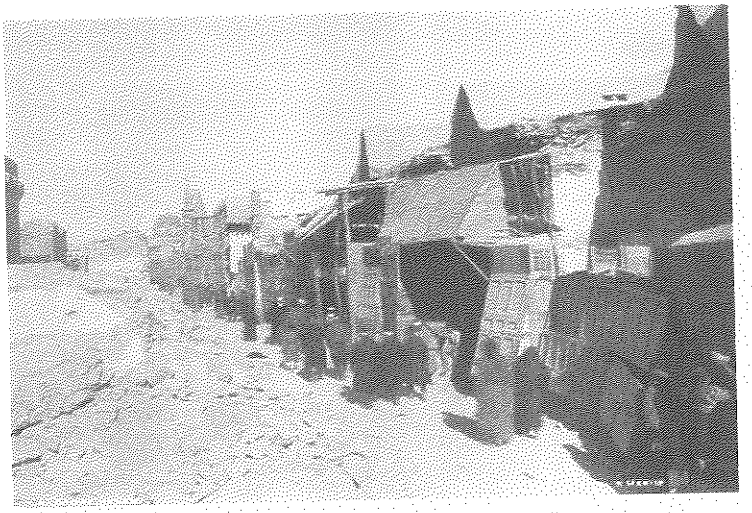

الحميدية ١٨٩٠ تصوير سليمان الحكيم

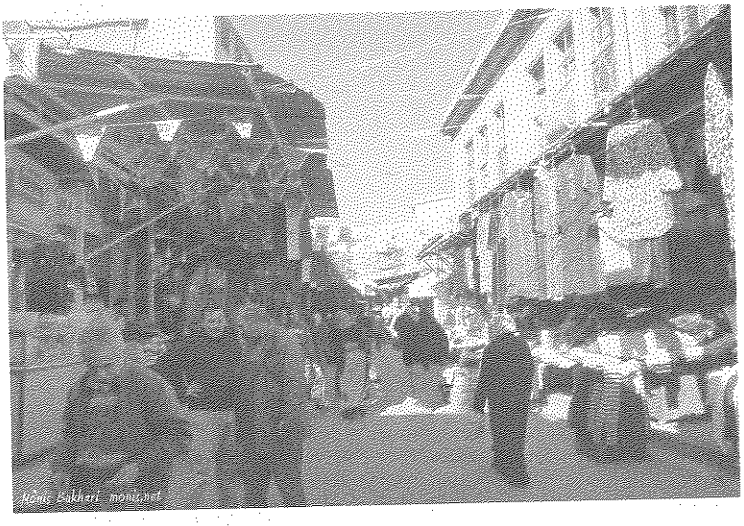

سوق الشيخ محيي الدين بن عربي

سوق الشيخ محيي الدين بن عربي

الباعة الجوالون

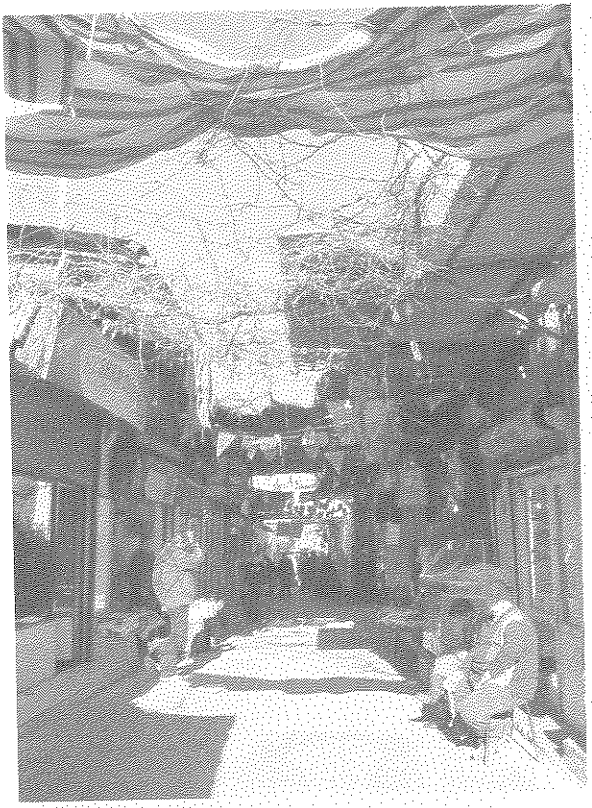

حارة الشيخ
محيي الدين بن
عربي

أسواق دمشق

لولا بردى لما كانت دمشق..
مرثية نهر

ربيع دمشق الساحر، كان يغرينا بقطع المسافة بين الجامعة في المزة إلى منطقة البرامكة القريبة من مركز المدينة، سيراً على الأقدام. كنا مجموعة من الطلبة الوافدين إلى العاصمة للدراسة وآخرين من الدماشقة. في طريقنا، كان نهر بردى يؤنسنا، ولا ندري وهو يماشينا أنه كان سيحط رحاله متعباً في مكان قريب، قبل أن يصل إلى مصبه، كان على خلاف سمعته الحسنة، قد أصابه الاضمحلال والضعف، يجري ساهياً بتؤدة إلى حتفه؛ أنموذجاً للموت الصامت للأنهار. وقد يكون للمديح الذي أحيط به على ألسنة العامة وفي المحفوظات المدرسية، رد فعل طائش من جانبنا، جعلنا نسخر مما شاع عنه أكثر من أن نحزن عليه.

نهر بردى حكاية غير ما هي عليه اليوم، لكنه سر جماليات

دمشق، هذا السر لم يختلقه عوام الدمشقيين، بل كتب عنه المؤرخون والرحالة الشرقيون والغربيون، فالرحالة ابن بطوطة فضل دمشق على جميع البلاد وأطلق عليها جنة المشرق، ووصفها بأنها أرض سئمت كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ. وكانت حصة بردى من الشعر أكبر، فلم تخل منه قصيدة تغنت بالعاصمة دمشق، ولم يأت شاعر، إلا طابت له الإقامة فيها، واستمد من ماء نهرها السلسبيل، مداداً لقصيدة عصماء كانت عرفاناً بالجميل لمنظر أعاد إلى روحه الصبا والشباب وأوحى إليه بالحب وعشق الحياة. حتى أمير الشعراء أحمد شوقي استهل قصيدته به، وخلط ماءه بالدمع مشيداً بالحرية وثورة السوريين عام ١٩٢٥.

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

مجرى الذهب

إذا نحينا الشعر جانباً، تبقى المفارقة فاقعة ومؤلمة بين جدول معتل، بؤرة للقمامة ومرتع للحشرات، وما سجله الأديب الدمشقي نعمان قساطلي في وصف دمشق عام ١٨٧٩، بأنها مدينة كثيرة المياه والبساتين، موقعها في سهل خصيب في غوطة تعد من أفضل جنات الدنيا، والى شمالها جبل قاسيون يزيدها بهاء ونضارة، فتصبح جنة تجري من تحتها الأنهار، فيها كل أنواع الفواكه والبقول، وكل ما تشتهيه نفس الإنسان من مأكول ومشروب ومشموم ونزهة وانشراح. ويشير القساطلي إلى أنه في جميع أسفاره لم ير ماء كمائه في النقاوة والجودة. كذلك الوجيه الدمشقي عبد العزيز العظمة ١٩٣٠ في كتابه «مرآة الشام» واصفاً إياه: «ماء دمشق عذب فرات سائغ شربه، وليس فيه كما غيره أثر للجراثيم التي تولد البثور قط».

شعور غريب يسيطر على شباب وافدين عرفوا بردى حبراً يفيض على ورق الكتب المدرسية بندى المسك والعنبر، وشبان دمشقيين أحفاد أولئك الذين تتيموا بخرير مياهه وزرعوا من جيل إلى جيل حنين حكايات صبواتهم المشبوبة عن السيارين على ضفافه في الربوة والهامة وبساتين الغوطة. كلاهما يعجزان عن إيجاد تفسير لما حل بنهر سمّاه الآراميون «أبانا» و«أمانا»، تناسلت منه حياتهم؛ ووصفه اليونانيون بـ (خرايسوراس) مجرى الذهب، دلالة على صفاء مائه وبهاء جريانه. وأطلقوا عليه اسم «باراذيوس» وتعني الفردوس، التي جاء منها اللفظ العربي «بردى».

حضارة الماء

منذ ذلك الزمن وإلى أمد قريب، لم يبخل بردى بمياهه الوفيرة على كل من حل بحوضه، فتكاثرت بفعل كرمه التجمعات السكنية لتشكل مركزاً لحضارة مدنية في العهد الروماني، تمثلت في سدود وشبكة ري متقدمة، قبل استخدام الآلات لحفر الآبار واستخراج المياه الجوفية. ساد في حوض دمشق توازن مائي تقليدي اعتمد على الينابيع الكثيرة المنتشرة في سهل سرغايا والزبداني والديماس وصيدنايا وسفوح جبل الشيخ، كانت تمد السكان باحتياجاتهم من مياه الشرب والزراعة، عبر أقنية تدعى بالفجارات الجماعية، أوصلت المياه حتى سهل القطيفة وجيرود، بالإضافة إلى إقامة سدود تحويلية على وادي بردى والأعوج ووادي منين، لتتفرع إلى أنهار هي: يزيد ـ ثورا ـ بانياس ـ القنوات ـ الديراني ـ المزاوي. وأنشئت شبكة ري توصل المياه إلى أحيائها المتشعبة وأزقتها الضيقة، عبر أنابيب وقساطل فخارية وحديدية تحت الأرض، عندما تبلغ الأحياء تتوزع في المقاسم

(الطوالع) الكبيرة والصغيرة، بنسبة اتساع الحي المخصصة له؛ والطالع عبارة عن حوض متوازي المستطيلات يأخذ ماءه من فرع رئيسي من النهر. ويطلق على نقطة انطلاق الماء من النهر إلى الطالع اسم (الماصية)، ويتدفق من خلال أنابيب فخارية محكمة القفل إلى الطالع، ومنها إلى أنابيب فرعية تتوغل في الدور والمنشآت. وبعض الأحياء الدمشقية أخذت اسمها من الطوالع كحارة السبع طوالع، وحارة طالع الفضة. من جانب آخر لعبت المراتب الاجتماعية بين العائلات دوراً في توزيع حصص المياه التي كانت تباع مقاديرها بموجب حجج شرعية مع العقار. وحصل البعض على حق استخدام فروع ثانوية عند الحاجة.

الثواب

استمر هذا النظام المائي لقرون طويلة، قبل أن تبدأ رحلة عذاب النهر، ويدهم التلوث بعض أفرعه نتيجة زيادة عدد السكان، ما اضطر الحكومة العثمانية إلى جر قسطل حديدي من عين الفيجة إلى المدينة مباشرة دون أن تمتزج بمياه الأفرع الأخرى، جعلت له خزاناً عاماً في الصالحية لماء الشرب فقط، يعمل بضغط انسياب الماء، فيما استمرت الفروع الأخرى بالجريان لأغراض الغسيل وري النباتات، وما فاض منها، يجري مستوراً مغطى في قنوات الصرف الصحي لتصب في أنهر خاصة كنهر بانياس الذي سمي لقذارته بـ«قليط» فكان يدخل القلعة، ويقلط أقذارها لتصب فيه لاحقاً فضلات مياه الأحياء الواقعة في جنوب القلعة، فيما تنحدر باقي الأنهر متوجهة إلى الشرق والجنوب، بعد أن تسقي حدائق المدينة وقرى الغوطة وبعض قرى المرج ووادي العجم المتصلة بالمدينة، حيث تتفرع في الغوطة إلى عدة أفرع منها العقرباني

والداعياني والمليحي والزبيديني والزابون والبيلاني والملك والشيداني والأبيض، وكل منها يسقي جهة من ضواحي دمشق عبر تخصيص نهر لكل مجموعة من القرى، تتناوب على الاستفادة منه خلال أيام محددة، ما عرف بنظام «العدان»، يشرف على تنظيمه «الشاوي»، تعينه القرية لقاء أجر معلوم لضمان وصول الماء إلى القرية ومنع التعديات والتجاوزات على «العدان»، ويتولى تسليم الدور لنظيره في القرية التالية. في قاموس الصناعات الدمشقية للقاسمي يعرف الشاوي بـ«المحافظ على طوالع الماء وسير الدمن»، وهو «القنواتي» المكلف أيضاً بالتفتيش على الطوالع الواقعة ضمن مسؤوليته ويتعهد تنظيفها من الأوساخ وأوراق الشجر، كي لا تنسدّ قساطلها. وعمل الشاوي يتكامل مع حرص السكان، وبالأخص المستفيدين من نهري يزيد وثورا بتعزيل النهر سنوياً، فكانت المياه تقطع عن النهرين بإذن من الحكومة لينظف العمال مجراهما قبل قدوم موسم الفيضان، عناية كفلتها التقاليد الاجتماعية المتوارثة؛ أحد سكان حي العمارة يقول إن المسنين من أهالي الحي كانوا ينظفون الطوالع بأيديهم كل صباح لدى مرورهم من أمامها في الطريق إلى عملهم، لما في هذا السلوك من ثواب كبير عند الله.

احتضار

لا مبالغة في وصف دمشق أوائل القرن التاسع عشر بجنة تجري من تحتها الأنهار، تحديداً أثناء الحكم العثماني، فقد أبدى الولاة اهتماماً بالغاً في زيادة السقايا والسبلان، وعملوا على تدفق المياه منها إلى الشوارع والأسواق والحارات، وبدورهم قام السكان بجرها إلى البرك والنوافير في المنازل، واعتنوا ببناء البحرات بأشكال مختلفة

تضمن سقاية أحواض النباتات المنزلية والشرب والطبخ والاستحمام، كما لعب إيصاله إلى قاعات الجلوس والاستقبال دوراً في تخفيف وطأة حر الصيف، ولولاه لما اغتسلت صباحاتهم الندية بمائه المضمخ بعبق الياسمين ورائحة زهر الليمون.

إلا أن التقاليد والجهود الأهلية للعناية بسلامة النهر صارت من الماضي، ولم يكد القرن العشرون ينتهي حتى ماتت بعض أفرعه تماماً، وزالت من الوجود كنهري يزيد وتورا، مخلفين وراءهما صدى قصيدة الشاعر الدمشقي فتيان الشاغوري من العصر الأيوبي:

يَزيدُ يَزيدُ القَلب شَوقاً إلَيكُمُ وَثَورا أَسيرُ الوَجدِ فَهوَ جَليلُ

أما باقي الأنهار الشقيقة، فقد أمست سواقي صغيرة تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت ركام الوخم ومخلفات المصانع المنتشرة في محيط دمشق، وحده الفرع الرئيسي مازال صامداً، ينتظر كل سنة عطاء مواسم المطر، ليجدد معركته الخاسرة مع الجفاف، مراوغاً قدرته على البقاء بقدر العطاء.

ما كان.. كان

المحيّر، الدأب على تجاهل ما يحل ببردى من خنق واختناق مستمرين منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن!! فبردى يعاني منذ عقود من تراجع غزارته وجفافه، بسبب تفاقم الاستهلاك تحت ثقل الانفجار السكاني وزيادة حفر الآبار بتأثير شح المطر. وقد يتعين على الأجيال التي لم تعرف دمشق ونهرها قبل دخولهما القرن العشرين، العودة إلى كتب التاريخ للتعرف على ماضي

مدينتهم التي اشتهرت بنقاء هوائها، وحلاوة مائها، وشذا حدائقها، وكثرة أشجار بساتينها، ولذة فاكهتها؛ دمشق حين كانت قطعة من الطبيعة البكر، تتخلل جنباتها الأنهار، وتتسلق جدرانها العرائش الخضراء، وتلغو باحات بيوتها بالورود الشامية المتنوعة. مشاهد لم تعد سوى خيالات مبعثرة حفظتها الصور الفوتوغرافية للفرنسي «بونفيس» الملتقطة مطلع القرن الماضي. منذ ذاك الوقت، بدأت دمشق رحيلها المتتالي والدؤوب نحو المجهول، ولم يبق منها على الأرض، ما يشير إليها سوى الأسماء، الحامل الأخير لظلال الماضي، فيما باشر الزحف السرطاني للعمران، دون هوادة ولا رحمة، القضاء على غوطتها، بلغ أوجه في العقدين الأخيرين، مستبدلاً الحزام الأخضر بحزام من الصفيح والفقر.

ومن الحب ما قتل

دمشق لم تَفقد عشاقها، الولع بها يتوارثه الأحفاد عن الآباء والأجداد، بل وربما كانت تعاني من تكاثر العاشقين المتلافين الجهلاء الكسولين، حتى ليصدق عليها القول ومن الحب ما قتل. فالهجرة المتنامية إليها من الريف تكاد تقضي عليها، فأن يتركز نحو ٤٢٪ من سكان سورية، في مدينتي حلب ودمشق، وتستأثر دمشق بالحصة الأكبر منها، مؤشر يثير القلق حول المستقبل، أكثر بكثير من التحسر على ضياع الماضي واندثاره بفعل اختفاء بعض معالمه من الوجود، إذ لا سبيل للعثور على أثر لفندق فكتورية المبنى الجميل والضخم المطل على بردى، وكذلك دار الحكومة المهيبة، التي أُعلن من على شرفتها بيان استقلال سورية الأول ١٩٢٠، أما ساحة المرجة التي أخذت اسمها من مرج الحشيش، البساط العشبي الأخضر الذي يحف

بنهر بردى ويقصده الأهالي للتنزه والترويح عن النفس، مع ما اقترن به لاحقاً من ذكرى شهداء ٦ أيار الأليمة الذين أعدمهم جمال باشا السفاح؛ فقد تحولت إلى منطقة أسواق شعبية تكتظ بفنادق من الدرجة العاشرة، بكل ما يحمله ذلك من ازدحام بشري وتلوث دؤوب، يجعل أغنية «زينّوا المرجة والمرجة لينا/ شامنا فرجة وهي مزينة»، مثار أسى وأسف بعدما كانت أهزوجة العزة الوطنية.

الشام كانت فرجة حقاً، ولنا أن نتخيل أنهار مياهها تتدفق صاخبة لتصب في المجرى الرئيسي «بردى» النابع من مدينة الزبداني بين سلسلتي جبال حرمون والقلمون ٤٥ كلم غرب دمشق، ليقطع ٧١ كلم قبل أن ينتهي في بحيرة العتيبة ــ جفت عام ١٩٥٥ ــ ينحدر خلالها وقبل دخول دمشق شرقاً ليمر في عين الفيجة ويمتزج بمائها الغزير، رافدة بردى إلى جانب مياه ينابيع كثيرة تنتظره على الطريق ألطفها وأصفاها مياه عين الخضراء، وبعدها يتجاوز النهر منطقة الهامة ليبدأ بالتفرع إلى سبعة جداول تتغلغل كالشرايين في جسد المدينة حاملة معها الحياة والخضرة والنماء، دون أن يجد سبيله إلى بحر بعيد، كما هي عادة مسيرة الأنهار، وكأنه هبة الطبيعة لهذه المنطقة من بلاد الشام، لتقوم أقدم مدينة مأهولة في العالم.

النبع والإنسان

حسبنا استعادة مناظر بردى في اتجاهات دمشق الأربعة، واصطفاق مائه في طوالع البيوت وتناثرها من نوافير البحرات، لنفهم أحاسيس الدمشقيين وهم يسمعون غناء فيروز أثناء حفلات معرض دمشق الدولي منذ أواسط القرن الماضي إلى العقود الأخيرة منه. كان التصفيق يعلو كلما شدت بكلمات الشاعر سعيد عقل: شام يا ذا

السيف لم يغب؛ وليشتد التصفيق مقاطعاً صوت فيروز كلما بلغت مقطع:

أنا صوتي منك يابردى مثلما نبعك من سحبي

وليس ثمة افتعال ولا انفعال، بل واقع الحال في وصف الأديبة الدمشقية سهام ترجمان في كتابها «يا مال الشام» تأثير تلك اللحظات، عندما يرتوي صوت فيروز بماء الشام، فيروي غليل السميعة: «تغني فيروز ويبتل الصوت في حلقي. أسمعها عطشى فأرتوي. أشرب من بردى وكأنني أشرب صوت فيروز. وأضيع بين الحقائق والأوهام بين النبع والإنسان». معاني الشعراء البليغة في بردى، أصبحت صوراً من الماضي التليد، إذ أين نجد اليوم موازياً لشعر الياس أبو شبكة:

الماءُ في بَرَدى عَذبٌ مرقرقه كَأَنَّهُ لُؤلُؤٌ في عَينِ حَوراءِ

لكن ما بقي ماء عكرٌ جاد عليه الزمن بشتى ألوان الحظ العاثر، رغم الجهود الكثيرة التي تبذلها الحكومة السورية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بردى، في ظل تفجر سكاني يسجل أحياناً تزايداً يتجاوز ٤٪، ما أدى إلى ارتفاع عدد سكان سورية من ٥,٠ مليون في بداية القرن العشرين إلى ٣ ملايين في منتصفه إلى نحو عشرين مليوناً في نهايته، تتركز نسبة كبيرة منهم في دمشق، ما عكس خللاً كبيراً في الموازنة المائية، والدراسات جارية منذ سنوات للبحث عن موارد مائية جديدة، إلى جانب مشاريع لحل مشكلة تفاقم تلوث لم تعد تجدي معه إجراءات محافظة دمشق للتعزيل والتنظيف السنوي التي تسبق موسم الفيضان الذي يبدأ في كانون الأول ويستمر حتى شهر أيار من كل عام. ومع تغير المناخ

العالمي فقد يتأخر موسم الفيضان. أما موسم التحاريق فيبدأ من حزيران ويستمر حتى تشرين الثاني، يكون فيه النهر بأسوأ حالاته، ففي عام ١٩٩٩ تعرضت دمشق لموسم جفاف دفع محافظة دمشق للقيام عام ٢٠٠٢ بمشروع تبليط مجرى النهر وبناء نوافير صناعية في بعض المناطق لإيقاف ما ينجم عن الجفاف من انتشار للأوبئة والحشرات، ما أثار اعتراضات كثيرة على ما قد ينتج من هذا المشروع من ضرر بيئي بالغ بالنهر، بعزله على محيطه الطبيعي، وتدمير بعض حلقات الدورة البيئية الطبيعية، ولعل موسم المطر الوفير في السنتين التاليتين، أعاد الحياة لبردى، فارتفع منسوبه على نحو غير مسبوق منذ عقود، وجرف معه الرواسب والنفايات متحدياً التعديات عليه، وتفاءل الناس خيراً بعودته يتدفق كما في سابق زمانه، وإن لم يكن معافى تماماً. معيداً إلى الأذهان ذكريات الفيضان «الزودة» وصدى نداءات الأهالي «ياجيران أجت الزودة» فيهرع الناس ويلملون أثاثهم وحاجياتهم من الطابق الأرضي «التحتاني» المهدد أولاً، ليهربوا إلى الطابق العلوي «الفوقاني». أما من يضطر لمغادرة بيته إلى عمله، فعليه اللجوء إلى شباب أقوياء البنية يمتهنون في هذا الظرف الطارئ حمل الناس على ظهورهم، أو نقلهم بعربات جر، لقاء فرنكات قليلة مقابل توصيلهم إلى الضفة الثانية.

ترنح الحلول

نظام جريان بردى مازال محكوماً بعوامل عدة منها: نظام التشغيل لسد التكية، والسحب المائي من نبع بردى ونبع الفيجة وصرف المياه المستعملة لمدينة دمشق، وتزويد مناطق الاصطياف وتوسع مدينة دمشق، والسحب المائي لري مزارع جديدة خارج أراضي

غوطة دمشق التقليدية.. تسهم هذه العوامل في بقاء الخطر قائماً يتهدد النهر. لذا تتجه الحلول نحو البحث عن موارد مائية جديدة كجر مياه الفرات إلى حوض دمشق، أو جر مياه من الجولان المحتل. الحل الأول مكلف جداً، أما الثاني فغير ممكن ما دام الجولان محتلاً من إسرائيل، وهناك من يفكر بوضع حد للهجرة الداخلية إلى دمشق، والعمل على الإغراء بالهجرة إلى شمال سورية حيث الفرات ودجلة وذلك عبر إيجاد فرص عمل لهم هناك. حلول تترنح ضمن إمكانات إما مفتقدة أو هزيلة، مهما بلغت لن تعيد إلى بردى أمجاده، ولن تعيد إلى دمشق ألقها المائي، فالحضارة التي تمثلت في احترام الإنسان لهبات الطبيعة، بلغ حدود التقديس، انحرفت عن مسارها، حين ظن الإنسان أن التقدم على خصام مع الطبيعة، وسمح لنفسه باستباحتها مستغلاً صمتها إلى أن بدأت تتخلى عنه فعلاً ليصبح اعتلالها دليل تخلفه وهمجيته.

يقول المؤرخون، لولا بردى لما كانت دمشق. لكن الآن، الذي يرى دمشق والهجمة العمرانية العشوائية والقبيحة، يقول لولا دمشق لما مات بردى، فالنهر الذي صبر قروناً طويلة، فقد القدرة على التحمل، لقد أوفى للسكان بعهده ومدهم بنسغ الحياة. لكنهم اليوم تنكروا له وحولوه مجمعاً لنفاياتهم، دون أن يثنيهم ذلك عن التغزل به والتغني بماضيه، والتحسر على ضياعه، وفي الوقت نفسه لا يوفرون جهداً للزراية به وتدميره ونفيه من الحياة. كحال الأشياء العزيزة، مأواها الماضي والذاكرة والشعر، أما الحاضر فقد اعتاد الجفاف والقبح وتشويه الطبيعة وسلخها عن الإنسان، حتى لو علمتنا الحضارة أن الجمال متعة للعين وبهجة للنفس، عاشها أجدادنا على ضفاف بردى، في رحلة مع الماء والخضرة والوجه

الحسن. أما نحن فنستسلم لقضاء غاشم، نرمق بردى بحسرة، ونعزي النفس بأن دوام الحال من المحال، وكأن نصيبنا اليوم، أن نشهد الاحتضار البطيء والطويل لنهر دمشق العنيد.

المصادر والمراجع

ـ **مجتمع دمشق**، الدكتور يوسف جميل نعيسة، دار طلاس، دمشق.

ـ **مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها**، عبد العزيز العظمة، دار رياض الريس، بيروت.

ـ **يا مال الشام**، سهام ترجمان.

ـ **رحلة ابن بطوطة**.

ـ **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء**، نعمان قساطلي.

ـ دراسة الأستاذ الدكتور شبلي الشامي «نحو استراتيجية مائية في سوريا».

ـ مقابلات مع مواطنين دمشقيين.

(*) ترجمت هذه المقالة إلى الفرنسية ونشرت في مجلة «القنطرة» الصادرة عن معهد العالم العربي بباريس.

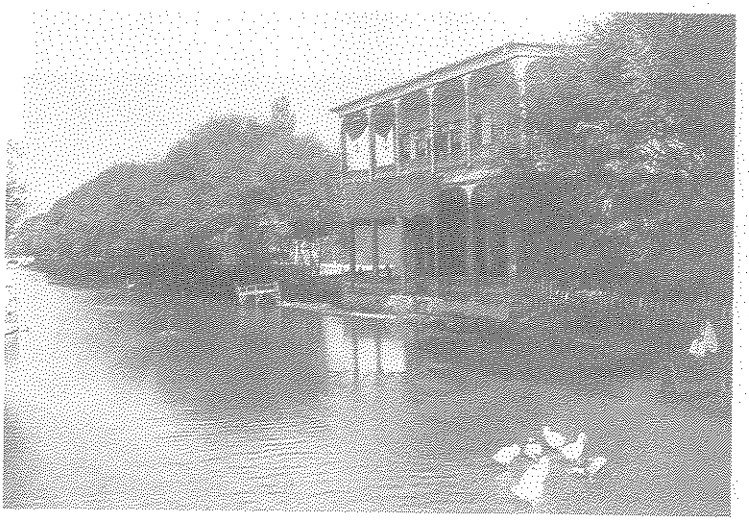

بردى.. تصوير بابتيست شارلير ١٨٧٠

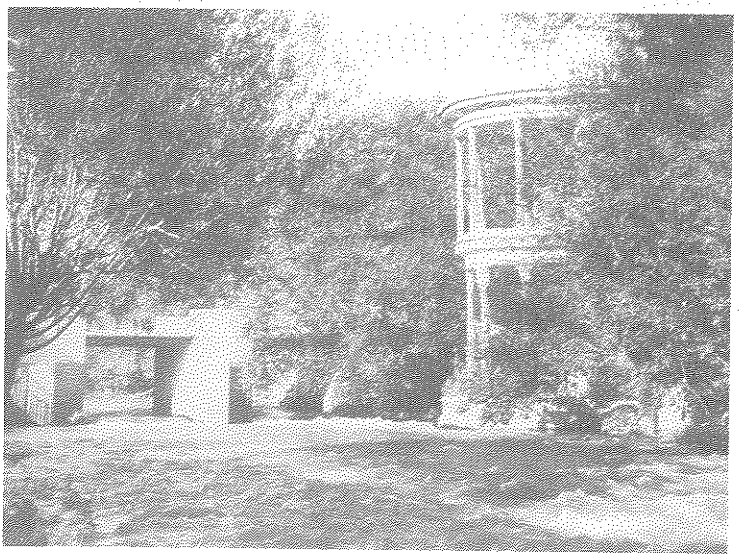

بردى تصوير سليمان الحكيم ١٨٩٥

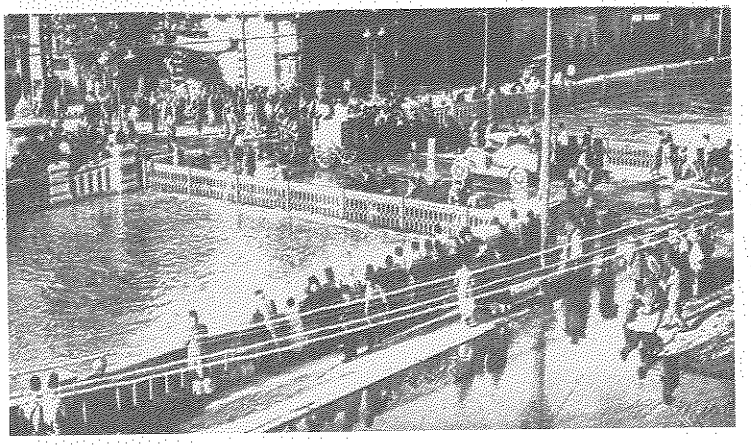

نهر جسر الحسين

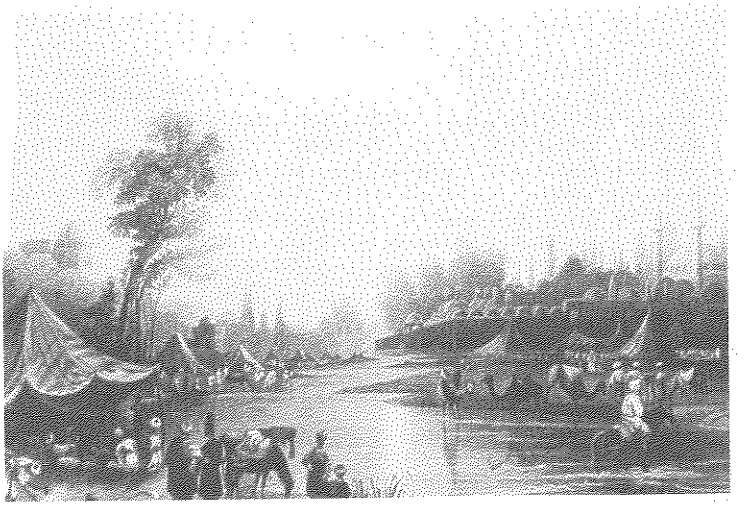

رسم لدمشق بالقرن السادس عشر

الخط الحديدي الحجازي...
تاريخ متعثر

من معالم دمشق الرئيسة والقديمة بناء محطة الحجاز، المتميزة بالطراز العثماني، الفخم والعريق، يحيط بمدخلها من جوانبه الثلاثة درج حجري، يقودنا إلى بهو الانتظار، وكوة قطع التذاكر، ومن ثم إلى رصيف محطة الانطلاق.

بعد غياب طويل عاد القطار إلى العمل حسب خطه القديم، لكنه لم ينطلق من المحطة الرئيسة، بل من قرية القدم الواقعة في ظاهر دمشق. السفر بالقطار ما زالت له نكهة مميزة مستمدة من عراقة هذه الوسيلة ومحاكاتها لرحلة الإنسان الوجدانية نحو المجهول، وتعبيرها عن الذهاب إلى مسافات بعيدة واختصار للزمان، بالإضافة إلى دلالات رمزية أسقطها الأدباء والمفكرون على مناح كثيرة، فدخلت كلمة القطار في ما يراد به التعبير عن الحياة،

فنقول قطار الحياة، ولا نستخدم مثلاً كلمة الطائرة أو السيارة للتعبير عن مضي سنوات العمر، وكم من الكتاب والشعراء والسينمائيين تناولوا القطار في أعمالهم بكل ما يملكه من معان وإيحاءات، مما جعله من وسائل النقل المرموقة في تاريخ الشعوب الحديث الممتد على ما يقارب ثلاثة قرون منذ اختراع أول قاطرة بخارية في فرنسا وتحديداً عام ١٧٦٩.

إنكلترا أول دولة في العالم استخدمت القاطرة البخارية والخطوط الحديدية، تلتها الولايات المتحدة الأميركية عام ١٨٢٩، ثم ألمانيا عام ١٨٣٥، وفرنسا عام ١٨٣٧. وكانت مصر أول دولة عربية من بين الدول العشر في العالم التي استخدمت الخطوط الحديدية، ومدّ روبرت ستيفنسون عام ١٨٥٢ ثاني أطول خط حديدي في العالم في مصر، بينما تأخر مد السكك الحديدية في الدولة العثمانية حتى عام ١٨٥٦.

كانت الخطوط الحديدية من أهم المشاريع التي تنافست عليها الشركات الأجنبية للحصول على امتيازات تنفيذها واستثمارها. ففي سورية تقاسمت كل من ألمانيا وفرنسا امتياز خمسة خطوط حديدية هي خط (دمشق مزيريب ـ دمشق بيروت ـ رياق حلب ـ حمص طرابلس ـ حلب الشمال والخط الحجازي).

ينطلق قطار الخط الحجازي من محطة القدم، مخترقاً غوطتها نحو الجنوب الشرقي في استقامة، فيمر من الكسوة متابعاً إلى قرية الشرائع وهي من أهم قرى اللجاة، ثم يقطع سهل حوران برمته ليصل إلى محطة درعا، ليبقى مستمراً نحو الجنوب قاطعاً الحماد قرب قلعة المفرق، ثم وادي الزرقا ليصل عمان. بعدها يتابع صاعداً السهول الصحراوية واصلاً إلى معان، وهي المحطة

المتوسطة للخط الحجازي. ومن معان يخرج مخترقاً الصحراء صاعداً إلى العقبة، ليهبط بعدها نحو بطن الغور، واصلاً إلى المدورة، ثم يدخل أراضي الجزيرة العربية متوغلاً إلى مدائن صالح، فالعلا وأخيراً المدينة المنورة.

بدأت فكرة إنشاء الخط الحجازي عام ١٨٦٤ أثناء العمل في فتح قناة السويس، حين تقدم الدكتور زامبل الأميركي من أصل ألماني باقتراح تمديد خط يربط بين دمشق وساحل البحر الأحمر، لكن هذه الفكرة لم تجد طريقها إلى التنفيذ بسبب سيطرة الدولة العثمانية على لواء الكرك في الأردن. ثم عادت للظهور عام ١٨٨٠ عندما قدم وزير الأشغال العامة في الآستانة مشروعاً أوسع من السابق يقضي بمد خط حديدي من دمشق إلى مكة المكرمة، ولم يلق هذا المشروع قبولاً كالسابق بسبب الصعوبات المالية إضافة لوجود وسائط نقل بحرية. بقي هذا المشروع مهملاً حتى أتى عزت باشا العابد العربي السوري، وكان يحتل مركز الأمين الثاني للسلطان عبد الحميد، وطرح الفكرة على السلطان ووجدت صدى عام ١٩٠٠، وبُحث في المشروع جدياً بتدخل مباشر من السلطان.

قام المشروع على عدة أهداف هامة منها ما هو سياسي يرمي إلى ربط البلاد الإسلامية بعضها مع بعض بطريق حيوي وسهل، وتخفيف مظاهر الضعف أمام الدول الأجنبية، ومنها ما هو عسكري لتشديد قبضة السلطان عبد الحميد على الولايات العربية التي يمر بها الخط وجعلها في متناول اليد بأسرع ما يمكن، كإحكام السيطرة على اليمن كاملة، لكون الحكم العثماني ظل مقتصراً على الجهات الساحلية منه. أما الأهداف الاقتصادية

للمشروع فكانت تعمير المناطق الواقعة جنوبي نهر الأردن وتطوير الزراعة وتنشيط اقتصاد شبه الجزيرة العربية من خلال اتصالها ببلاد الشام. إلا أن السبب المباشر والمعلن لإقامة المشروع هو الأهداف الدينية وغايتها تسهيل سفر الحجيج وتوفير الراحة والأمان لهم. إذ كانت نفقات الدولة العثمانية على إدارة الحج تقدر بنحو ١٥٠ ألف ليرة عثمانية ذهبية يضاف إليها ٦٠ ألف ليرة أعطيات وهدايا.

الحج الشامي

ومن خلال الوقوف على تاريخ الحج الشامي والصعوبات الكثيرة التي كان يعانيها الحجيج نتعرف على الدوافع الحقيقية وراء حماسة الآلاف من الأيدي العاملة، ودعم الدول الإسلامية لواحد من أهم المشاريع في المنطقة. فقد كان على موكب الحج الشامي أن يقطع من دمشق، التي يجتمع فيها الحجاج من أنحاء الديار الإسلامية، إلى المدينة المنورة، مسافة تستغرق زمناً يقدر بخمسين يوماً للذهاب ومثلها للإياب، عدا أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول الكريم أي ما يقدر بنحو أربعة أشهر ونيف، تتطلب نفقات باهظة إضافة لما قد يعترض طريق الحجيج من أخطار طبيعية من أمطار وسيول وعواصف، فضلاً عن قطاع طرق.

تبدأ مسيرة موكب الحج في الأول من شوال بحماية وحدات من الجيش العثماني، بعد حفلة وداع بمراسم عسكرية واحتفالات ضخمة، يشترك فيها كبار الموظفين في الدولة. يتألف الموكب من نحو عشرة آلاف مسلم يأتون من سائر البلدان الإسلامية، بالإضافة للفرسان والهجانة، وكان الانطلاق من دمشق تحت إدارة حاكم عثماني يلقب بأمير الحج، المسؤول عن تنظيم

الموكب، وكانت طاعته واجبة على الجميع. بعد دمشق يتوقف الموكب في قرية القدم (أحد أحياء دمشق اليوم) يتوجه بعدها الحجيج إلى قرية الكسوة، حيث يجري الاحتفال بتسليم كسوة الكعبة المشرفة (من هنا اكتسبت الكسوة اسمها)، ثم يتابع المسير إلى المزيريب. هناك يستريح الحجاج حول بحيرة صغيرة بضعة أيام. بعدها يتجه الموكب نحو بلدة المفرق، ثم عين الزرقاء فعمان. حينئذ يبدأ الطريق الصعب لكونها مناطق صحراوية خطرة صيفاً وشتاءً، يتابعون المسير في منطقة شديدة الوعورة تجبرهم على السير مشاة، فيعتلي أمير الحج أرضاً مرتفعة يشرف منها على مرور الحجاج، وهكذا إلى أن يصلوا المدورة، وبعدها تبوك فمدائن صالح. في هذه المناطق القاحلة الجرداء يوزع أمير الحج المياه المحمولة على الجمال مجاناً، ويكون عمل الجند في المراحل التالية لمرحلة المزيريب الحراسة وتنظيم المسير، فيقسّمون إلى مقدمة وميسرة.. إلخ، وقد دأبوا على إطلاق عدة طلقات نارية صباحاً ومساءً إعلاماً بالوقوف أو المسير للركب الممتد على نحو أربعة كيلومترات، على طريق ترابية. تقدر مسافة الطريق ما بين مكة ودمشق بأربعمائة وتسعين ساعة مسير مقسمة إلى أربعين مرحلة، يقطعها الحجاج خائفين، وكانوا يودعون الأهل، وكأن الموت متربص بهم عند كل خطوة.

قبل الحرب الأولى

بلغ عدد القاطرات التي كانت تسير على الخط قبل الحرب العالمية الأولى ٥٠ قاطرة و١٨٠ عربة للركاب وكان كل قطار يجر ما بين ١٣ و ١٥ عربة إضافة إلى أربعة خزانات للمياه لإمداد المحطات ونقاط الحراسة. لم يكن الخط منتظماً إلا في

موسم الحج الذي لا يستغرق أكثر من ثلاثة أشهر، لينحصر استعماله باقي الأيام لخدمة الأمور العسكرية. أما التبادل التجاري، فلم يكن نشطاً لأن احتياجات الحجاز من التجارة السورية كانت قليلة، لذلك بقي القسم الأعظم من الخط من معان إلى المدينة المنورة شبه معطل على مدار السنة، فخصصت الحكومة دخلاً للخط من الطوابع إضافة لبعض الامتيازات كالحقوق الثابتة والعقارات التي تحفظ بقاءه واستمراره وإمكانية توسيعه في المستقبل بوصفه وقفاً إسلامياً.

إنشاء الخط

ساهم في إنشاء الخط الحديد الحجازي الآلاف من المتطوعين والأيدي العاملة، كما استعين بعناصر من الجيش العثماني للمشاركة في أعمال البناء. بلغ عدد الجند الذين وضعوا في خدمة الخط الحجازي ٧٥٠٠ جندي فضلاً عن الذين جلبوا من فيلقي سورية والعراق إلى جانب عدد كبير من المقاولين، النمساويين والإيطاليين والعرب. عانى العمال من مشاكل كثيرة، وبالأخص في المناطق الصحراوية حيث الجفاف وقلة المواد الغذائية والمواد اللازمة لأعمال الإنشاء، ومع ذلك سار تمديد الخط سريعاً. وأنجز حتى المدينة المنورة، وكان من المقرر أن يصل إلى مكة المكرمة، ومن ثم إلى جدة وصولاً إلى عدن في اليمن، لكن صرف النظر عن تلك الفكرة بسبب التغييرات السياسية حينذاك وعزل السلطان عبد الحميد. وبقيت مواد البناء الخاصة بالمشروع في مستودعات المدينة المنورة، واستخدمت في ما بعد لصيانة الخط ولتمديد خط (فلسطين ـ مصر) الذي أنجزته الحكومة البريطانية. وجدير بالذكر أن

الاتحاديين حاولوا بعد وصولهم للحكم تمديد الخط إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك.

استغرق تنفيذ المشروع ثماني سنوات من ١٩٠٠ حتى ١٩٠٨ على عدة مراحل. وأول قطار وصل إلى المدينة المنورة قادماً من دمشق في الثاني والعشرين من شهر آب سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ ميلادية في رحلة استغرقت نحو ٥٥ ساعة، وجرى الافتتاح رسمياً في الأول من أيلول من العام نفسه المصادف لعيد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني، وحضر الافتتاح ثلاثون ألف مدعو، وممثلون عن الصحف الأجنبية.

إن اعتبار مشروع خط الحديد الحجازي وقفاً إسلامياً كان له دور كبير في تشجيع الكثير من دول العالم الإسلامي على التجاوب مع دعوة السلطان عبد الحميد آنذاك إلى التبرع للمشروع بمبالغ طائلة. فتبرع السلطان بمبلغ ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية ذهبية ووصله من شاه إيران ٥٠ ألف ليرة، ومن خديوي مصر كميات هائلة من الأخشاب والمواد الأولية اللازمة للبناء، كما تألفت جمعيات عديدة لمساندة المشروع، ففي الهند تألفت ١٦٦ جمعية لهذا الغرض، حيث أرسل سكان مدينة لكناو ٣٢ ألف ليرة، وأهالي رانغون ومدراس ٧٣ ألف ليرة، كما أرسل الميرزا علي من كلكوتا مبلغ ٥ آلاف ليرة، ومثله من جريدة الوطن في لاهور أعلن السلطان منح أوسمة وشارات وألقاب لمن يتبرع للخط ووضعت الضرائب لمصلحة الخط، ومن الموظفين من تبرع براتب شهر كامل، أو حسم ١٠٪ من راتبه لمدة عام، وأحدثت طوابع تذكارية للمشروع، وبيعت لمصلحته ما جمع من جلود الأضاحي، وأوقفت عليه أراض ومشروعات أهمها ينابيع الحمة

المعدنية ومرفأ حيفا. وقد تجاوز المبلغ الذي جمع ٨ ملايين ليرة عثمانية ذهبية ساهمت في تسريع إنجازه.

سيرة متعثرة

ومن أهم الصعوبات التي واجهت عمل الخط الحجازي في المرحلة التي سبقت الحرب الأولى قلة الوقود، حيث كان القطار الواحد يستهلك ما يزيد على ٣٠ ألف طن سنوياً من الفحم الحجري، تجلب من الشمال مع الحطب ومن أشجار السنط الصحراوية. وبلغ العجز في زمن فخري باشا حداً جعله يهدم البيوت في المدينة المنورة للاستفادة من أخشابها. استمر استثمار الخط الحجازي بانتظام بين دمشق وحيفا ودمشق والمدينة المنورة، من عام افتتاحه حتى عام ١٩١٤ حيث ازدهر خلال هذه الفترة ازدهاراً كبيراً، وتشير الإحصائيات إلى أن أرباحه كانت كبيرة.

ومن النوادر التي رويت في تلك الفترة، زيارة أنور باشا وزير الحربية العثمانية وجمال باشا السفاح قائد القوات المسلحة للمدينة المنورة سنة ١٩١٩، وكان القطار يستغرق في قطع المسافة بين دمشق والمدينة المنورة ثلاثة أيام، لكن السائق أراد أن يثبت مهارته للشخصيتين الكبيرتين، فقطع المسافة في يوم واحد، وكانت خيبته كبيرة عندما تعرض للجزاء الرادع مع إيقافه عن العمل بذريعة تعريضه حياة المسؤولين للخطر بجنون السرعة. كما كُبّلت تلك القاطرة بسلاسل حديد ضخمة، وهي موجودة في المدينة المنورة ويقال إنها محكومة بالإعدام شنقاً!!

عند نشوب الحرب العالمية الأولى استخدمت الدولة العثمانية هذا

الخط في تنقلات جيوشها وعتادهم الحربي، ولدى قيام الثورة العربية الكبرى التي شارك فيها الكولونيل الإنكليزي لورنس، خرّب الأخير الخط، ليس بهدف عسكري، بقدر ما كان قطعاً للاتصال بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية. كان يمكن في نظر الإنكليز أن ينافس الخط قناة السويس فيما لو تم تمديده إلى البحر الأحمر.

عملت الحكومة العربية في دمشق على إصلاحه باستثناء المناطق البعيدة، فتم إصلاحه بين دمشق ودرعا وعمان، وتمكنت لجنة الإصلاح رغم ضعف إمكاناتها من تسيير قطار بين دمشق والمدينة المنورة أواخر عام ١٩١٩ حاملاً معه الأمير علي بن الحسين (الملك علي) زائراً أخاه الملك فيصل في دمشق. وعندما دخل الفرنسيون دمشق ١٩٢٠ كان هناك ١٢٠ قاطرة بخارية قيد الاستخدام، بالإضافة إلى ٢٠٠ شاحنة و١٠٠ عربة للركاب و٢٠ شاحنة للبريد إضافة إلى خزانات المياه. وأول الأعمال التي قامت بها الجيوش الفرنسية هو حل لجنة إصلاح الخط الحديدي الحجازي.

قسم الخط في تلك الفترة إلى عدة أجزاء بما في ذلك عرباته وعقاراته، فاستولت بريطانيا على الجزء المار في شرق الأردن وفلسطين، وجرى تسليمه لإدارة الخطوط في فلسطين. وبقي الجزء الواقع في الجزيرة العربية مهملاً، وهو أطول مسافات الخط إلا أنه غير مثمر لوقوعه في البادية ولخراب جسوره. أما الجزء الواقع في سورية، فتم تسليمه إلى الحكومة الفيصلية. في معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء سنة ١٩٢٣، اتفق الإنكليز والفرنسيون على تأليف لجنة إدارية عليا من المسلمين يكون مقرها في المدينة

المنورة، تنظر في شؤون الخط وتسعى لإصلاحه. وفي مؤتمر الآستانة عام ١٩٢٤ المؤلف من ممثلي الدول التي انفصلت عن تركيا، تقرر تقسيم الخط نهائياً واعتبار كل قسم ملكاً للمناطق التي يمر بها. وخلال الانتداب الفرنسي على سورية علت أصوات الاحتجاج مطالبة بإصلاح القسم الجنوبي من الخط وإعادة تسييره إلى المدينة المنورة، فاضطرت حكومتا الانتداب الفرنسي والبريطاني لعقد مؤتمر حيفا عام ١٩٢٩ ضم ممثلين من الأقطار التي يمر بها الخط، وطالب المؤتمرون حكومات الانتداب بالاعتراف بوحدة الخط الحديدي الحجازي واستقلاليته واعتباره وقفاً إسلامياً، إلا أن جميع المحاولات باءت بالفشل بسبب تهرب حكومات الانتداب من الاعتراف بوحدة الخط وتنصلهم من البروتوكول الملحق بمعاهدة لوزان القاضي بوحدة الخط الحجازي. وفي عام ١٩٣٤ عقد مؤتمر آخر تقرر فيه إصلاح الأقسام المخربة لكن القرار لم ينفذ رغم الجهود الشعبية التي كانت تؤيده.

بعد الاستقلال

بعد استقلال سورية عام ١٩٤٥ أعيد تسليم القسم الواقع في سورية من الخط إلى الحكومة الوطنية وشكلت حينها المديرية العامة للخط الحديدي الحجازي تحت إشراف الحكومة. وقد أثرت الأحوال السياسية التي شهدتها سورية والمنطقة العربية عموماً خلال فترة ما بعد انسحاب الاستعمار الفرنسي والبريطاني وحتى الستينيات، من ضمنها كارثة فلسطين، على إعادة الحياة للخط الحجازي. وبتدمير أجزاء كبيرة من الخط في فلسطين قصُر نحو ٨ كلم إثر نسف إسرائيل للجسر الحديدي بين الحمة

وسمخ عام ١٩٤٦، وتوقف النقل بين سورية وفلسطين من جهة وبين فلسطين والأردن من جهة ثانية مما أوقع خسائر فادحة، إذ كان النقل على هذه الخطوط من أكثر استثمارات الخط الحديدي الحجازي ازدهاراً. ومنذ ذلك التاريخ بدأت الخسائر تزداد ولم يعد الخط يغطي نفقاته، وتوقف نقل الحجيج من دمشق إلى النقب إثر العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وانقطاع المواصلات بين لبنان والأردن، والاعتداءات المتكررة على الخط بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦١ مما أدى إلى نسف آخر جسر في خط اليرموك. وكانت حرب ١٩٦٧ السبب في انقطاع خط درعا الحمة نهائياً.

رغم تلك الصعوبات استمر الخط الحديد الحجازي في خدمة نقل البضائع والركاب على نحو محدود بعدما أضيف إلى إدارته في عام ١٩٦٠ القسم الضيق الممتد بين دمشق وسرغايا.

منذ ثلاثة عقود سعت سورية والأردن والسعودية إلى إعادة إحياء الخط الحديدي الحجازي من خلال لجان عمل تدرس واقع الخط وضرورات إصلاحه والبحث عن شركات عالمية تقوم بعمليات الإصلاح. لكن الظروف السياسية في المنطقة والعلاقات العربية الخاضعة لمنطق المد والجزر، وقفت حائلاً أمام تلك المحاولات بالإضافة إلى أن دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروع لم تأت دائماً وفق التصورات المرجوة. وبقي الخط معطلاً في كثير من أجزائه منها الجزء الواصل إلى فلسطين والآخر الواصل إلى المدينة المنورة، بينما ظل يعمل إلى عمان وبيروت. مع أن خط بيروت ـ دمشق كان مستقلاً عن الخط الحجازي حتى عام ١٩٦٠ حيث ألحق الجزء الواقع منه في الأراضي السورية بالمؤسسة العامة للخط

الحديدي الحجازي. وظل هذا الخط يعمل حتى نشوب الحرب الأهلية اللبنانية في السبعينيات وخرب جسوره. أما الخط الوحيد الذي لم يتوقف فهو الخط الواصل بين دمشق وعمان رغم اقتصاره على رحلة أسبوعية لنقل البضائع فقط.

ظلت المؤسسة العامة للخط الحديدي الحجازي في سورية تعبر عن أمانيها بتعاون البلدان العربية التي يمر فيها الخط كي يعاد إحياء الخط بعد تعثر استمر قرابة قرن من الزمان، تحولت خلاله الأجزاء العاملة إلى معالم أثرية تصلح للاستثمار السياحي المتحفي، فمعظم الرحلات داخل سورية كانت للاستجمام والتمتع بالسفر عبر وسائل نقل نادرة كالقاطرات البخارية تقوم برحلات يومية إلى مصايف دمشق ورحلات أسبوعية إلى الأماكن الأثرية والسياحية في جنوب سورية (درعا تل شهاب ومزيريب وبصرى). ولم تفلح حملة ترميم محطة الحجاز التي قامت بها المؤسسة عام ١٩٩٥ في إعادة الحياة للخط الحديد أللهم سوى بإنقاذ العربات من التلف وترميم القاطرات والعربات القديمة، وكذلك قاطرات الديزيل، التي لم توضع في الخدمة سوى بضع سنوات من عمر استيرادها، وأحيت عربتين أثريتين كانتا مخصصتين للسلطان عبد الحميد الذي أمر بإنشاء الخط، تحتويان على مقصورتين للنوم وأخرى للجلوس ومقصورة للاجتماعات وعربة للمطعم، لم ينعم السلطان عبد الحميد بالسفر فيهما إذ خلع عن العرش إثر تدشين الخط..

ومع إتمام افتتاح الخط الحجازي عامه المائة عام ٢٠٠٨، تحول إلى ذكرى عزيزة إكرامها في افتتاح متحف لها، حيث احتفلت المؤسسة العامة للخط الحديدي الحجازي بمشاركة عدة جهات

عربية منها الخط الحجازي الأردني والمملكة العربية السعودية، والاتحاد العربي للسكك الحديدية إضافة إلى تركيا بهذه المناسبة. وافتتح متحف في محطة «القدم» (١٥ كلم جنوبي دمشق) يضم نحو ١٨ قاطرة تاريخية تعود إلى العامين ١٨٩٤ و١٩١٦ ومقتنيات وآليات قديمة وصوراً من أرشيف المؤسسة.

ميلودراما الخط الحجازي كانت شاقة شقاء العلاقات بين العواصم العربية التي يصل بينها، فهي مثله كانت ومازالت هدفاً للسياسات الدولية خربتها الحروب ولم تحيها صلات القربى.

المصادر

خط الحديد الحجازي، المؤسسة العامة للخط الحديدي الحجازي.

مقابلات مع موظفي المؤسسة ـ المدير العام، مديرة العلاقات العامة ـ عام ١٩٩٩.

خط الحديد الحجازي

خط الحديد الحجازي

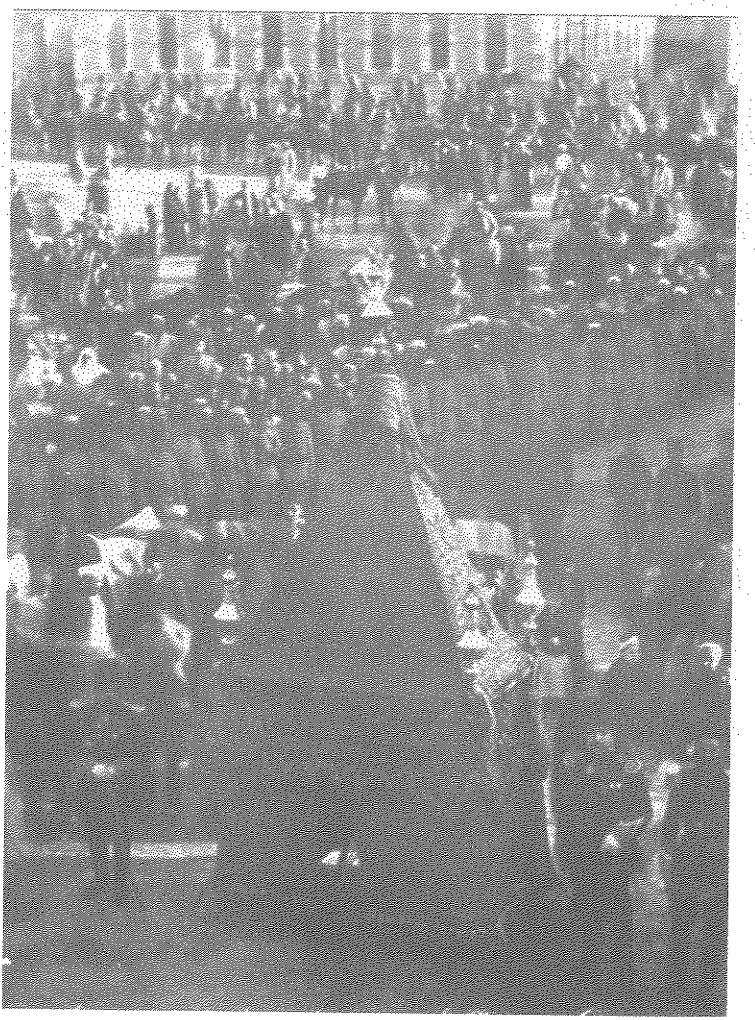

محمد الحج تصوير ميس بونيفس ١٨٨٠

محمل الحج الشامي عام ١٨٨٧ تصوير انونيم فرانسيس

المطبخ.. القطبة المخفية

السؤال الشعبي الدمشقي الدارج (شو جايبه من حلة الرواس؟!) مازال متداولاً بين العامة للدلالة على الافتقار إلى الذوق وسوء الاختيار وإلى القذارة أيضاً، فالروّاس كان في أوائل القرن الماضي، يطبخ رؤوس الغنم وغيرها من الكروش والأيدي والأرجل (المقادم) في «حلة كبيرة ينصبها في الأسواق الشهيرة، كسوقي الزرابلية والعتيق، ويبيع طبيخه للعابرين والفعلة من العمال الميامين، ودرجت العادة ألا يأكل من عند الرواسين الا من بعد به طلب الرزق عن أهله، والفقراء الذين لا قدرة لهم على ارتياد المطاعم المشهورة المعروفة بطبخها الطيب الممتاز[٩] الذي تراعى

(٩) ما بين قوسين من مقابلة مع بيير أنطاكي أمين سر جمعية ذواقي الطعام السورية.

فيه أدق معايير المطبخ الشامي العريق.. إلى أن جاء الوقت ليمضى «الرواس» بطبيخه وحلته مع جملة ما مضى من تاريخ وأمكنة وعادات وتقاليد متوارثة لها علاقة بالمطاعم والأسواق.

في العقود الأخيرة، غزت المجتمعات العربية عموماً، والدمشقية على سبيل المثال، ذائقة بديلة فرضتها أطعمة حديثة، تنافست على استيراد وصفاتها وعلاماتها التجارية مطاعم راحت تنتشر على نحو سريع وعشوائي، ظهر فيها التفنن في تهجين الأطعمة الغربية والأميركية بما يتوافق والذائقة المحلية، فبرزت كثير من الأكلات شاعت شعبياً باسمها الغربي وتركيبها المحلي، كالسباكيتي (المعكرونة) بأنواعها، واللازانيا، والبيتزا، والهوت دوغ، والشيش طاووق، والهمبرغر.. إلخ.

مع تزايد الأطعمة المستحدثة والمهجنة، أو بمعنى أدق (الأطعمة المعولمة)، راحت تظهر مطاعم متخصصة بأطعمة شديدة المحلية مثل المطعم (المكسيكي ـ الياباني ـ الصيني ـ اللبناني ـ التركي ... إلخ) كمجال سياحي يستثمر الخصوصية والمعطيات الثقافية في الطعام، التي تميز كل بيئة عن غيرها، وبات تجريب أنماط جديدة من الثقافة الوافدة عبر صحون الطعام أحد أساليب الترفيه ومصدراً للدخل الوفير. تقول الباحثة سليمى محجوب: «قلما اختلفت الأمم قديماً وحديثاً في شيء قدر اختلافها في شرابها وطعامها»، ففي المطعم الصيني، تخضع لطرائق الأكل الصينية بما تحتويه من معان موروثة، فمثلاً يجب ألّا تضع عيدان الطعام في الطبق بشكل قائم، لأن ذلك يعني موت صاحب الدعوة، وفق المعتقدات الصينية. وسوف تضطر للاتكال على المضيف لنزع حسك السمك، لأن نزعه باليد مباشرة يحمل معاني سيئة.. إلا أن

ذلك لم يتجاوز أغراضه السياحية الترفيهية، ليبقى مد المطبخ الأميركي السريع، هو الأكثر رواجاً، لانسجامه مع روح العصر من حيث السعر الرخيص نسبياً والسرعة في الإعداد واختصار الزمن.. ويمكن القول إن سندويشات الهمبرغر غدت من رموز العولمة في النظام العالمي الجديد، ومطاعم مثل الماكدونالد والكانتاكي، دخلت قائمة استهدافات مناهضي الغزو الأميركي، فهي عرضة للمقاطعة والمهاجمة مثلها مثل السفارات وأعلام الدول.

إلا أن ذلك لم يحدّ من سيادة المذاق الأميركي عالمياً، بحمولته الثقافية، ويمكن رد ذلك إلى أنه يكاد يكون المطبخ الأكثر تخففاً من وصفات الإعداد المعقدة وطقوس التناول التقليدية، إذ لا عادات ولا موروث مقدس مع الوجبات السريعة، بل ثقافة متحركة قابلة للتوطين في أية رقعة من العالم. وربما هذا ما جعل المأكولات الأميركية السريعة قابلة للتعميم، وهو ما ساهم في خلق ذائقة مستحدثة أخذت مكانها على حساب الذائقة المحلية المبنية أساساً على تراكم ثقافي تاريخي له علاقة بالبيئة الاجتماعية والجغرافية، التي تختلف في الساحل والجبل عن الداخل والبادية، وعلى سبيل المثال بالنسبة لسورية، المطبخ الحلبي مشهور بمذاقه الحار حيث يستخدم رب الفليفلة الحارة بدل رب البندورة مع الكوسا المحشي، كذلك الكباب الحلبي الذي يجيده أرمن حلب ويجيدون معه إعداد السجق والبسطرما، فيما لا يجرؤ الشوام في المدن الأخرى على الحذو حذو أهل حلب في المذاق الحار. وما زالت كل مدينة تتميز بتخصصها بوصفة معينة، فحمص مختصة بمحشي الجزر الأصفر، وحماه بـ(الباطرش الحموي) وأهل الساحل بـ(المبردة) أو (المتبلة). والجزيرة السورية بـ(الكبيبات) .. إلخ.

مذاق وأذواق

وصفات الطعام تنم عن ثقافة حياتية تتصل بالبيئة، وترتبط أحياناً بالعادات والتقاليد الشرقية المتصلة بالمواسم والمناسبات، فبعض المأكولات ترتبط بأعياد دينية، حيث المسلمون في دمشق مثلاً، يطبخون في ذكرى عاشوراء ورأس السنة الهجرية مأكولات (على بياض) لتكون السنة بيضاء مبشرة بالخيرات، مثل اللبنية وشيخ المحشي والشاكرية والرز بحليب والحبوب بالحليب والقشطة، ويستحضرون من الحلويات في شهر شعبان (الغريبة)، وفي شهر رمضان (البرازق). أما مسيحيو دمشق فيطبخون ليلة الميلاد دجاجاً وبسماشكات وكبيبة مسلوقة بالشوربا ومحاشي، وليلة رأس السنة يطبخون (على بياض) مثل المسلمين، وفي عيد الغطاس يستحضرون من الحلويات السمبوسك بالسكر والجوز وخبيصة بدبس، بالإضافة الى البرك بلحمة وبرك القريشة. ويوم سبت اليعازر (حريرة، سليقة، حبوب مسلوقة وقطايف). أما في أحد الشعانين ويوم عيد البشارة، فيأكلون السمك حصراً لتخللهما أيام الصوم الكبير الذي ينتهي بعيد الفصح، والذي يطبخ فيه المسيحيون الشوام (الشاكرية) لاحتوائها على اللبن واللحم المادتين الأساسيتين التي يصوم عنهما المسيحيون عادة.

اختزن المطبخ عبر تطوره ملامح من التمازج الحضاري بين الأقاليم المتجاورة، تظهر في التسميات وما تحمله من دلالات تاريخية تعبّر عن فترات معينة، فهناك كثير من الوصفات الشامية ذات المسميات التركية مثل (داوود باشا وعساكره)، و(الأبلمة، والشيشبرك، والستي زبقي، والفاختية، البسماشكات وغيرها). ترتبط تلك

التسميات بفترة الحكم العثماني للمنطقة العربية الذي استمر نحو أربعة قرون، فيما تسميات أخرى بموروث شعبي يتصل بموقف ما من مجموعة بشرية مثل (يهودي مسافر) الخالية من اللحم، كما أن هناك أكلات أخرى ترتبط من حيث الوصفة لا التسمية بحقبة تاريخية مثل الأكلات المعتمدة على الخبز اليابس كالفتات والحراق بأصبعو، التي برع في ابتكارها الدمشقيون أيام المجاعات والحصار. ومن المفارقة أن تتربع هذه الأكلات اليوم على رأس الموائد العامرة، في المطاعم الحديثة كجزء من الفلكلور المطبخي، ومازال هناك من يرى فيها مجالاً للتندر على براعة الدمشقيين في التقنين وترشيد الاقتصاد المنزلي، المتجسد في أنموذج تحويل الخبز اليابس إلى وجبات شهية... ويرى الدمشقيون في ذلك اتهاماً مرفوضاً لما يضمره من تلميح إلى بخل الدمشقي، ويردون عليه بالإشارة إلى القيم الأخلاقية التي تعطي للخبز قيمة مقدسة بصفته نعمة، ويدعمون رأيهم هذا بالتقليد السائد في مجتمعاتنا عندما يجد أحدهم كسرة خبز ملقاة على الأرض، يرفعها ثم يقبلها ويضعها على جبينه، ويشكر الله ويطلب منه أن يديم النعمة عليه. نجد لهذا سنداً في قول الباحثة سليمى محجوب في تقديمها لكتاب «الوصلة إلى الحبيب» لأبن العديم: «الغذاء وسيلة للكشف عن أخلاق الأمم، فطعام الأمم المجبولة على التقشف والحياة البسيطة التي لا تعرف التعقيد، غير طعام الأمم المسرفة في الترف، المعقدة في حياتها المتأنقة في كافة مناحيها».

حركة التغيير

العلاقة مع الطعام بما هي سلوك اجتماعي لا تعكس حركة التغيير الاجتماعية وحسب، بل قد تتطور ويسهم في تكريس أنماط

جديدة في السلوك والعادات، فالمطاعم التي كانت لغاية بداية القرن العشرين حصراً على الزبائن الغرباء، كما نقرأ عنها في قاموس الصناعات الدمشقية، انتشرت وتحولت إلى أماكن لهو وترفيه. كذلك تغير نمط العمل، وخروج المرأة إلى الميدان العام انعكس على عادات ارتياد المطاعم، بما يشبه عادات المجتمعات الصناعية، فالذين يمضون الأسبوع في عمل طويل وشاق، لابد لهم من يوم إجازة يغيرون فيه طعامهم المألوف، بتجريب وصفات جديدة في مطاعم حديثة، ولم يعد يوم الإجازة بصحبة العائلة حول مناقل المشاوي ممتعاً، بالقدر الذي تكون عليه صحبة الأصدقاء في سهرة خارج الروتين اليومي وبعيداً عن العائلة. فالسيارين الدمشقية التي كانت إحدى طرائق توطيد العلاقات الأسرية من خلال المشاركة في إعداد الطعام تراجعت كثيراً، كذلك نمط الدعوات النسائية الى عصرونية لتناول صحن تبولة، بما يعنيه ذلك من دعوة إلى المشاركة في إعداد التبولة التي تتطلب عدة ساعات، تمضيها الصبايا في تنقية عروق البقدونس والنعنع يتخللها تبادل الأحاديث والنمائم، أو تكون فخاً ينصب للحبيب كما عبر عنها فيلم «سفر برلك» للرحابنة من خلال أغنية طريفة تكشف عن معاني عزومة «التبولة» كمكرمة لا يخص بها إلا الأشخاص المقربون، وكذلك أغنية نجاح سلام (ميّل يا غزيل أسقيك فنجان قهوة وأعملك تبولة) بما تحمله من معان غزلية وطقس أنثوي احتفالي قابل للتحول إلى كمين غرامي.

ومع أن مجتمعاتنا لا تزال تعدّ الدعوة إلى الطعام تكريماً للضيف، فإن ما تغير هو أنها لم تعد دعوة إلى البيت، وتذوق طعام من صنع ربة المنزل، بل صارت الدعوات إلى المطاعم أكثر وجاهة، لأن الحفاوة والتكريم صارت تقدر بعدد نجوم المطعم وتكاليف

الدعوة، بعدما كان يقاس بتعدد المأكولات وجودة الطعام المنزلي.

ربة المنزل

التحولات في العلاقة مع الطعام واكبها تحول في العلاقات الاجتماعية سواء بين الأفراد، أو داخل المؤسسة الأسرية وبالتحديد في دور المرأة الأم كربة للمؤسسة الأسرية، ولا ريب في أن سمة المحافظة للمجتمع عبر قرون طويلة فرضت تواجد المرأة في البيت، وجعلت من المطبخ عالماً خاصاً قائماً بذاته له فلسفته وثقافته الحياتية التي لا يمكن عزلها عن فلسفة المجتمع وأنماط علاقاته. فمكانة الطعام المنزلي آخذة في التراجع بما هي إحدى دعائم الروابط الأسرية وبالتحديد في علاقة الأم بالأسرة؛ الأم التي تمضي شطراً كبيراً من حياتها في المطبخ، وتستهلك تربية الأولاد الشطر المتبقي، فالمرأة الشرقية المتوارية خلف جدران منزلها منشغلة بالتجويد على ما ورثته من مخزون أمومي يعنى بالتفاصيل الحياتية الكثيرة، المكونة لبنية تفكيرها وتذوقها الجمالي ورؤيتها للحياة والمحيط، كانت من خلاله تبني أسرتها وتربي أولادها، وتبدي الحرص على نقل خبراتها ومعارفها لبناتها، كأسرار تعطي لصفة (ربة المنزل) معناها الحقيقي، تشهد عليها الفاعلية باللمسة والنكهة والإيثار؛ العلامات الفارقة للأم والزوجة في مجتمع، مهما بدا لنا فيه المنزل صغيراً وهامشياً، فهو موئل الزوج والأولاد.

في الطبخ وإعداد الطعام يتبدى الحيز الإبداعي المثير للمرأة، وبقدر ما تحمله من خبرات حياتية ومنزلية موروثة تتمكن من استيعاب المتغيرات واحتوائها والتغلب عليها، وهو ما يؤهلها لتكريس ذائقتها وفرضها على أولادها تحديداً، بتربية ذوقهم وفق

مقاييس الذائقة المتطلبة، بحيث تصبح أي أكلة غير أصيلة، إذا كانت لا تشبه ما تقدمه الأم، وهذا يؤكده قول العامة «الطبخ نفَس»، دلالة على الخصوصية الشديدة للطبخ. ولعل ذلك سبب أساسي في عدم شيوع الأكلات المحلية في الأماكن العامة، فعدا ارتباطها بالمنزل والأم والزوجة، تفتقر حتماً لتلك الأسرار المتنوعة والمختلفة بين امرأة وأخرى، من خبرة وابتكار في طرق تحريك اللبن للكبة اللبنة أو الشيشبرك أو الشاكرية، كذلك في الإضافات التي تجعل قوام اللبن متجانساً، فكما هو متعارف عليه إذا لم يحرك اللبن على نار هادئة باستمرار قبل أن يصل إلى مرحلة الغليان (يفرط)، وهناك من النساء من تنصح بإضافة نشاء أو بيضة، بينما تسخر أخرى من أية إضافات وتعدّها نقيصة وقلة تجربة، إذ تؤكد أن اللبن يحتاج إلى (معلمية) ـ حرفة ـ بالتحريك!! وما ينطبق على اللبن يصح على طريقة حشي الكوسا بالأرز واللحمة، فمن النساء من تقول بوجوب المحافظة على توجيه فوهة حبة الكوسا إلى الأعلى دون دق، مع ترك مساحة فارغة دون حشو كي (لا ترزرز)، وأخرى تصر على سد حبة الكوسا المحشوة بقطعة بندورة، وامرأة ترى نفسها الأكثر دراية، تؤكد أن استعمال لحمة مدهنة للحشي وطريقة صف الكوسا بالطنجرة، هما السر وراء الكوسا المحشي المسقسق، وما خلا ذلك مجرد فذلكة. أما لغز عجينة الكبة فهو الماء البارد جداً وأسلوب خلطه ومقادير استعماله في الوقت المناسب أثناء العجن والرق!!

تنم تلك التفاصيل الصغيرة عن صنعة أصيلة وتفنن متناقل ومتوارث لا يخلو من ابتكار ولا يقل مهارة عن غيره في المجالات الحياتية الأخرى، التي تميز مبدعة عن أخرى، وعلى أساسها تقاس قدرات المرأة وتفوقها الأنثوي؟ فعندما تحافظ على أسرار طبخها ومطبخها

تحمي بالحقيقة ما نالته من امتيازات حازتها بذكائها وصبرها وكدها، لتجعلها سيدة بيتها دون منازع من ضرة أو كنة. وهناك الكثير من الأزواج ممن يعيّرون زوجاتهم بطبخ أمهاتهم. فليس من العبث أن تمضي السيدة الشامية نصف نهارها في إعداد أكلات صعبة ومعقدة مثل (القشة) و(السجقات) و(المقادم) أو أكلات (الكبة) من الكبة بالصينية إلى كبة الحميص مروراً بالنيئة واللبنية والمقلية وحتى المشوية، سيدة الكبب. ومن هنا يمكن فهم مقولة العامة: «إذا أردت أن تتزوج زيجة هنية فعليك بالمرأة الشامية»، مع الانتباه إلى أن هذه المرأة تضارع شهرتها بالطبخ، شهرتها بإحكام سيطرتها على الرجل على قاعدة: «أقرب طريق إلى قلب الرجل معدته» كسلوك لا يمكن تجاهل مدى رسوخه لدى النساء الشرقيات.

وإذا حاولنا البحث عن جذور تاريخية لهذه الفرضية، يلاحظ أن كثيراً من العادات وألوان الأطعمة الفارسية والرومية انتقلت إلى المجتمع العربي في العصرين الأموي والعباسي من خلال الجواري، كما لا يمكن إغفال تسلل الجواري إلى البلاط ليصبحن زوجات لخلفاء وولاة، الأمر الذي مكنهن من لعب أدوار مثيرة في دسائس القصور وفي ما يشاع عن تغيير مجرى بعض الأحداث التاريخية.

الأم التي لا تأكل

اهتمام المرأة بالطعام خولها الاستئثار بموقع القيادة، إذا حسبنا الطعام عنصراً اجتماعياً وأسرياً قوياً للم الشمل، فالأم التي تنجح بجمع أسرتها حول مائدة تحفل بأكلات يصعب عليهم تناول نظير لها على مائدة أخرى، تجعل من اللقاءات الاحتفالية إحدى

وسائل الحفاظ على التماسك الأسري حتى بعد أن يكبر الأبناء ويستقلوا في بيوتهم بعيداً عن بيت العائلة. غير أن موقع الأم الاجتماعي يبقى مصوناً ومعززاً، فالأم الشامية عادة تنال مكانة هامة في أسرتها. وعلى الرغم من سمات المجتمع الذكوري الذي يقصي المرأة عن الحيز العام، الا أنها في بلاد الشام تنال مكانة تحسد عليها في الحيز الخاص، فالأم الكبيرة بالسن كبيرة بالقدر ولها الكلمة الفصل في ما يخص شؤون أسرتها من طلاق وزواج وصلح وحرد وخصام، مهما بدا ظاهرياً من سيطرة الأب، وعندما تحرص الأم على العناية بتربية وتغذية أبنائها تكون في العمق تعمل على نيل ولائهم لها ولمجموعة القيم والمفاهيم الأمومية التي تمدهم بها، وبالتالي وضعهم تحت جناحها. ومن الطريف أن المرأة الشامية التي تهتم بالطعام، تحرص بفعل تربيتها على تكوين صورة مثالية لها أقرب للملائكية من حيث التعفف عن مقاربة الطعام، على الرغم من تنميتها لدى أبنائها الحس التلذذي بأطايب المائدة، فيما هي تتجنب مظاهر الشراهة وتكتفي بالقليل من الطعام، والمثل الدمشقي (العروس بعقلها وقلة أكلها) يعبر بوضوح عن علاقة المرأة بالطعام كوسيلة تستعمل لكسب الآخرين، ومن خلاله تشبعهم بأفكارها وأخلاقياتها، وهذا يقودنا على نحو ما إلى معنى قول العامة عن شخص سيئ الخلق أنه (لم يشبع من حليب أمه) إذ لم ينل الرعاية والحنان اللازمين لتكوين وعيه الإنساني والاجتماعي بمعناه الأمومي الرحيم والمتسامح.

وإذا ما أخذت المرأة الشرقية بالتخلي عن ورقة الطبخ كوسيلة لتعزيز مكانتها في الحيز الخاص، فذلك نتيجة لأفكار التحرر والتحولات في سوق عمل لم يعد يُميز كثيراً بين المرأة والرجل، وهكذا لم يعد طبخ الأم أو الزوجة القطبة المخفية في المؤسسة

الأسرية، جراء تغير ثقافة المجتمع وبزوغ سلوك للاستهلاك فرض نفسه مع مد غربي غزا العالم على مدى القرن العشرين، ليتوج بثقافة الوجبات السريعة، متمثلاً في الانتشار الواسع لمطاعم الـ take away التي باتت ملازمة لأماكن تجمع الشباب في المدارس والجامعات والنوادي، وفي المقابل انحبست مطاعم الأكلات المحلية الشعبية كالفلافل والمسبحة والفول والسجقات في مكانين، إما الأحياء الشعبية وتبذل بأسعار رخيصة، أو في المطاعم الفخمة حيث تقدم بحلة فاخرة كفلكور نادر، يتضاعف سعرها إلى حد مدهش، فيقبل عليها الأثرياء لاستعادة نكهة الماضي والبيت السعيد، كذلك السياح للتعرف على هوية البلد. أما أفراد الطبقة الوسطى، فيتناولون في المطاعم الدمشقية الحديثة أطعمة لا هوية لها عدا اسمها المستورد، لتبقى الطبخات المعقدة أسيرة مطبخ ست البيت التقليدية مثل «زنود البنات»، و«الطباخ روحو»، و«أبو شلهوب»، و«أبو بسطي» و«الشلباطو» والمحاشي بأنواعها إلى جانب اللحمة المدللة، واللحمة المقرطة وأكثرها أكلات غير معروفة إلا في دمشق.

الطعام وعالم الأعمال

من هنا يبدو من اللافت وجود جمعية لذواقي الطعام في سورية، لأن الاهتمام بثقافة الطعام كجزء وثيق الصلة بعالم الأعمال مازال غير مألوف في مجتمعنا. هذه الجمعية التي لم تلق حقها من الشهرة والاهتمام بعد، أسسها عام ٢٠٠٢، عشرة أعضاء، خمسة منهم من حلب وخمسة من دمشق. وهي جمعية غير ربحية تضم متطوعين من رجال الأعمال وسيدات المجتمع، ويشترط لقبول طلبات الانتساب أن يكون المتقدم سوري الجنسية حائزاً على

شهادة جامعية، ويجيد لغتين على الأقل الفرنسية والإنكليزية، لكون أغلب نشاطاتها في أوروبا، كما أن لغة الأكاديمية الدولية والتي مقرها باريس هي الفرنسية.

تطلق الجمعية على نشاطاتها التي بدأت ممارستها بعد تشكيلها بموافقة وزارة السياحة صفة «القصوفية»، من مقصف وتعني الأكل أو تذوق كل ما يدخل في مكونات الطبخ، من البهارات إلى الفواكه والخضر والحبوب .. إلخ.

إلا أن الجمعية غير معروفة محلياً كما هي في الخارج، بكونها عضواً نشيطاً في الأكاديمية الدولية لذواقي الطعام، التي تضم أكثر من عشرين دولة. وقد نشأت فكرة الجمعية بالأصل لدى رجل الأعمال الحلبي جورج حسني، الذي كان على علاقات صداقة مع أعضاء في الأكاديمية الدولية، طلبوا منه تمثيل المطبخ السوري في الأكاديمية. وبصفته مطبخاً مشهوراً بعراقته وبغناه وشدة تنوعه، فهو يجمع بين مأكولات الجبل والساحل والداخل والبادية، الملونة بنكهات الشرق والغرب معاً. حيث كان لوقوع سورية على طريق الحرير القديم أثر كبير في تلوين المطبخ السوري بمذاقات متعددة. «فطريق الحرير ذو ذاكرة قديمة، ليس في التبادل التجّاري فقط، بل في إقامة علاقات متينة بين الشعوب المختلفة في العادات والتقاليد والثقافات. وأقر الباحثون بأنّ العرب استفادوا من كل من سبقهم حتّى في الطبخ، وطوّروا وحسّنوا كلّ ما أخذوه، فهم الذين بنوا جنّات بابل، وجلبوا من أفريقيا إلى المتوسّط البرتقال والدرّاق والخوخ والمشمش والأرضي شوكي وغيرها.. واستوردوا قصب السكر من الهند والصين وزرعوه في بلاد الشام ومصر، وطوروا استخراج السكر

منه. ثم بدؤوا بتصدير السكّر في القرن التاسع إلى إسبانيا وجزر المتوسّط والبندقيّة».

تشارك الجمعية في نشاطات دولية لتذوق الأطعمة، فثمة «معايير للتذوق بغض النظر عن القبول الشخصي لطعم ما، فمثلاً هناك وصفة ستيك النعامة بالشوكولا، الذائقة المشرقية لا تستسيغ طعم الحلو مع المالح، لكن الحكم عليها يكون بناءً على مزاوجة مواد الوصفة، وعلى درجة النضج، وطراوة اللحمة... إلخ، كذلك الفوائد الصحية، من ضمن المعايير.

وتتبدى أهمية هذه الجمعية في الجدوى الاقتصادية الناتجة من تسجيل المذاقات الخاصة بكل بيئة. فالجمعية تبذل جهدها في سبيل «تسجيل أحد أفخر أنواع زيت الزيتون الذي لا يوجد إلا في محافظة إدلب السورية، وتسجيل نوع من الفستق الحلبي لا يوجد إلا في حلب» وذلك في مواجهة «تصدير المنتوجات الزراعية السورية إلى دول أخرى حيث تغلف وتأخذ علامة تجارية من بلد التغليف، وتحصد أرباحاً كبيرة. فالقناعة لم تتوفر بعد بأهمية الحصول على شهادات مذاق، لما يقدم في المطاعم المحلية، ومازال مزاج أصحابها هو الحكم الوحيد، بكل ما يعنيه ذلك من تهديد للمذاقات المحلية».

هناك وصفات كثيرة في طريقها إلى الاندثار إذ لا أحد يذكرها أو يتذكرها. حتى أن قائمة الطعام الشائعة في إقليم الشام هي: السلطة والمتبل والحمص والمشاوي، ويكاد السائح لا يعرف من المطبخ سوى هذه القائمة المحدودة جداً، وعلى سبيل المثال الكوسا محشي لا يقدم نهائياً في المطاعم. بالإضافة إلى توثيق وصفات الأكلات المحلية، تلعب الجمعية من خلال الأكاديمية

الدولية دوراً في محاولة التصدي لمشاكل الطعام التي يواجهها العالم الصناعي، مثل السمنة، حيث تعيد العديد من الدول النظر بنظام التغذية الشعبي المتمثل بالوجبات السريعة الغنية بالسعرات الحرارية. المفارقة أن المجتمعات العربية تستورد هذه الأنواع الغذائية لتضيف مشكلة أخرى فوق المشكلة الأساسية في نمط الحياة وأسلوب تناول الأكل ونوعيته المسببة للسمنة والترهل. فيما نوع الغذاء في «منطقتنا صحي جداً بدليل أن آباءنا لم يعانوا من السمنة كما نعاني منها الآن»(١٠).

نشاطات القصوفية لجمعية ذواقي الطعام ليست مجرد رحلات للاستمتاع وتذوق ما لذ وطاب، حيث تهدف الجمعية إلى التعريف عالمياً بالطبيخ السوري وتشجيعه على الانتشار محلياً، فهناك أكلات في الجزيرة السورية يجهلها الدمشقيون، وأصناف من الكباب اشتهرت بها حلب كالكباب بكرز، غير معروفة في حمص أو غيرها من المدن السورية والعكس صحيح، والطريقة الحمصية بتحضير المكدوس غيرها في المدن الأخرى .. إلخ.

سوقنا السياحية ما تزال تتجاهل كثير من الوصفات المحلية المميزة، لعدم جدواها اقتصاديا. كما أهملها المؤرخون خلا قلة ممن كتبوا عن الحياة الاجتماعية والتراث اللامادي من باب الحنين للأمس والتمسك بالذاكرة أكثر منها مقاربة تاريخية أكاديمية تحفظ ذلك الموروث من الزوال، مع ما تحمله من ثقافة محلية خاصة، كما هي حال ثقافتنا الحياتية التي ابتدعتها المرأة

(١٠) لقاء مع علي الروماني المسؤول عن المكتبة في مدرسة المحسنية لعدة عقود.

(ربة البيت) في أروقة المنازل وحول المواقد، على الضد من دعوات التحديث التي تجتاح مجتمعاتنا بعشوائية لا تتيح تعويضها ببدائل حقيقية تنسجم مع روحها.

مكتب عنبر موئل الوطنية الأول

في الطريق إلى قصر الثقافة حالياً، نسلك سوق مدحت باشا وصولاً إلى البزورية، ثم ندلف إلى اليمين داخل زقاق مرصوف بالحجارة، لنجد أنفسنا أمام بيت دمشقي جميل وضخم. هذا هو مكتب عنبر، يلفه الهدوء والسكينة!! وكأنه خرج من تاريخه المؤار بالأحداث إلى تاريخ آخر راكد، لا يليق به ولا بماضيه، غير أننا سنسمع على الرغم من الصمت هسيس الماضي وضجيجه، يترددان في جنبات مكان كان في أواخر القرن التاسع عشر ولغاية أوائل الحرب العالمية الأولى مجمع رجال الرعيل الأول، الذي كان أول من رفع صوته بذكر العربية على عهد الاتحاديين من الترك، وتحول إلى موئل الوطنية ومصدر الحركات الشعبية المناهضة للانتداب والمطالبة بالسيادة والاستقلال.

أمام البوابة العالية المزينة بلوحة مكتوب عليها إعدادية ملكية، يبدأ

الزمن رواية قصة دار عنبر المعروفة قبلاً بدار رستم أفندي قهوجي السلطان، تتخللها الأساطير عن الأموال التي أنفقها التاجر اليهودي يوسف عنبر في بنائها سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م حيث تجاوزت ٤٧ ألف ليرة عصملية، لتكون داراً قل نظيرها وواحدة من أشهر الدور الدمشقية، المرصوفة أرضها برخام ملون من نوع لم يوجد في دمشق من قبل، لكن يوسف عنبر لم يهنأ بالدار وساءت حاله المالية قبل أن يتنعم بها، فآلت ملكيتها إلى مدير البنك العثماني في بيروت بنيامين بن وانيس ابن الكستريان، لدين عليه. وفي تموز ١٨٨٤ اشترت بلديات دمشق الأربع دار عنبر، وحولتها إلى مدرسة إعدادية حكومية سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، عُرفت باسم «مدرسة الرشدية» التي تعد الطلاب للانتقال بعدها إلى الآستانة لإكمال دراستهم العليا. وكانت لغة التدريس التركية بينما تدرس العربية كمادة مستقلة، ولابد من استذكار قصة المدرس التركي الذي كلف بشرح معاني القرآن للطلاب، ولما وصل إلى (والسماء ذات الحبك) قال السماء «اشتا» تعني سماء، وكلمة «ذات» يعني ذات أما «الهبك» ويقصد الحبك فهذا شيء لا نعرفه «لا نهنو ولا أنتو»، أي لا نحن ولا أنتم.

الوجه العربي

مع بداية القرن العشرين بدأت رياح القومية العربية تهب على دمشق من نافذة جمعية النهضة العربية التي تأسست عام ١٩٠٦، ووصلت تأثيراتها إلى مكتب عنبر عبر الصلات الجامعة بين أعضاء الجمعية وأهالي طلاب المكتب. مع عام ١٩٠٨ الذي شهد عودة الحياة الدستورية إلى الدولة التركية، بدأ مكتب عنبر يسفر عن ملامح وجهه العربي، تجلى ذلك في أول إضراب أعلنه الطلبة عام

١٩١٢ أي قبل إطلاق الشريف حسين ثورة العرب الكبرى، وكان إضراب الطلاب على خلفية إساءة وجّهها أستاذ الفيزياء والكيمياء التركي مصطفى ثابت مدير المكتب حين وقف أمام الطلاب العرب وشتمهم بقوله (بيس آراب) أي (عربي قذر)، حدث ذلك بعد أسبوع من احتفال أقيم في حديقة الصوفانية في باب توما قدم فيها أساتذة وطلاب عنبر مسرحية عربية عن طارق بن زياد اعتبرت في تلك المرحلة تحدياً كبيراً، كونها أول عمل مسرحي باللغة العربية يمجد تاريخ العرب في وقت أخذت سياسة الأتراك على مختلف ميولهم ونزعاتهم تميل إلى سياسة التتريك. أراد القائمون على المسرحية تنبيه الناس إلى تاريخهم وتعويد الطلاب على الخطابة باللغة العربية الفصحى. فكان لهذه المسرحية وقع كبير في نفوس العامة وبقيت تتردد أصداؤها لشهور طويلة، وكان من ارتداداتها الأولى إعلان طلاب عنبر الإضراب وإعلان حقوق العرب والمطالبة بفصل المدرس التركي الذي أساء إلى العرب، وقام عدد من الطلبة الغاضبون بإغلاق المكتب ووقف أحدهم عند الباب شاهراً سلاحه مانعاً الدخول والخروج. حضر على الفور مدير المعارف ومدير الشرطة، فلم يستطيعا فعل شيء، وعندما تفاقم الأمر حضر والي الشام عارف المارديني وكان عربياً يجيد الخطابة بالعربية، ففتح الطلاب الباب له، وما كاد يتوسطهم حتى خطب بادئاً بالقول، إنني عربي وأحب الشهامة، فاهتاج الطلاب وحيوا الوالي الذي أمر فوراً بعزل المدير الذي أساء للعرب وخرج من المدرسة وسط مظاهر السخط. وما كان من المدرس مصطفى ثابت إلا الذهاب إلى الآستانة ورفع شكوى ضد والي الشام واتهامه بالتآمر مع الطلاب العرب، فاستاءت وزارة الداخلية وعلى الفور عزلت والي الشام، وأوعزت بطرد الطلاب الذين قادوا الإضراب بعد منحهم علامة الصفر في الأخلاق. كان

ذلك أول إضراب عرفته الحياة المدرسية في دمشق، وكان نجاحه بتحقيق أهدافه المرجوة فضلاً في التأسيس للحركة الطلابية الوطنية فيما بعد.

المكتب ـ الثكنة

عقب الحرب العالمية الأولى، وبجلاء الترك عن سورية أضحى مكتب عنبر أول مؤسسة تعربت كلياً، ولم يفت المعلمين والتلاميذ ما كانت ترتبه فرنسا من انتداب، وعاشوا مرحلة من الغليان إلى درجة تحول فيها المكتب إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، فجيء إليه بالسلاح وجرى تدريب التلاميذ على استخدامه، بل وكانوا ينامون والى جانبهم السلاح، حتى أن فريقاً منهم التحق بمعركة ميسلون.

في العشرين من تموز عام ١٩٢٠، دخلت القوات الفرنسية إلى سورية وأعلن الانتداب عليها وسحب السلاح من طلاب عنبر، الذين خاب أملهم وهم يرون العلم الفرنسي يرتفع إلى جوار العلم العربي على المباني العامة. فمكثت النفوس ملتاعة تنشد الاستقلال والسيادة، إلا أن السوريين لم يصمتوا بل رفعوا الصوت عالياً، حتى أن أستاذ التاريخ رشيد بقدونس ندد بالانتداب الذي فرض فرضاً، وكان في الصف طالب أراد التخابث فقال له، دعنا من هذا الحديث مظهراً الخوف على أستاذه من أن يصيبه أذى. فصاح الأستاذ في وجهه قائلاً: اذهب إلى غورو، وقل له إن رشيد بقدونس يعلم الطلاب الوطنية! ليكون هذا أول درس علني في محاربة الانتداب. وكان أول ما استهل به الخطيب المفوه الشيخ عبد الرحمن سلام حصة اللغة العربية لطلاب الصف الخامس خطبة رنانة قال فيها، إنه اليوم غدا مدرساً للغة العربية حقاً.

والشيخ سلام صاحب الخطبة الشهيرة التي ألقاها من على شرفة النادي العربي يوم ميسلون ورددتها الخلائق التي كانت تموج ما بين محطة الحجاز وبوابة الصالحية: «غورو لن تدخلها إلا على هذه الأجساد».

عاش طلاب المكتب فترة قلقة في النظام التدريسي ما بين ١٩١٨ و١٩٢٠، بين رحيل الترك وقدوم حكم الملك فيصل ومغادرته ومن ثم قدوم الفرنسيين، عانى خلالها الطلاب من انقطاع الدراسة وعودتها ومن إعادتهم للصف ذاته حتى استقر الأمر عام ١٩٢١. في هذا العام دعا طلاب المكتب إلى إضراب عام بمناسبة الثامن من آذار ذكرى الاستقلال الأول الذي طوته حكومة الانتداب، وسيقف الطلاب النهاريون خارج المكتب يدعون الناس إلى التجمع في المرج الأخضر، أي ساحة المرجة اليوم، أما الطلاب الليليون فقد اختاروا وقت العشاء لإحياء هذه المناسبة بإلقاء خطب نارية مناهضة للانتداب.

الثانوية الأولى

في عهد الانتداب صارت المدرسة تضم حلقتي التدريس الإعدادية والثانوية ليكون مكتب عنبر الثانوية الأولى والوحيدة الكاملة في دمشق بل في سورية، راح يأتيها الطلاب من مختلف الأنحاء، ولم يكن هناك شهادة كفاءة في نهاية الحلقة الإعدادية بل تتصل الدراسة حتى الصف الثانوي الأخير وهو الحادي عشر، يتخللها امتحانات نهائية لكل صف من الصفوف، وكانت شهادة البكالوريا الأولى التي ينالها الطالب في نهاية الصف الحادي عشر، والبكالوريا الثانية ينالها في الصف الثاني عشر رياضيات أو فلسفة، بعدها يتجه لإكمال تعليمه في الجامعة بحسب تخصصه،

إما علمي للحاصلين على بكالوريا رياضيات أو أدبي للحاصلين على بكالوريا فلسفة. كانت العربية اللغة الرسمية للبلاد وكانت لغة التدريس في مكتب عنبر. أما الفرنسية فكان يدرّسها متخصصون، يتبعون في تطبيق برامجهم إلى شخص فرنسي «مدير التدريسات الفرنسية» له غرفة خاصة ويشارك في التدريس، صلته مباشرة مع المستشار الفرنسي في وزارة المعارف التي كان وزيرها على الدوام سورياً. وقد عرف مكتب عنبر في أول نشأته مدرسين فرنسيين تعاقبوا على موقع مدير التدريسات متفاوتين جداً في الخلق والكفاءة، ومنهم من أسس لعلاقات طيبة مع الطلاب استمرت حتى وفاتهم. مثل الأستاذ غولمييه المعروف بسعة أفقه وحبه مهنة التعليم. ومنهم من كان سيئاً كالمسيو «تريس» الفرنسي المتعجرف ضحل المعرفة.

انقسم الطلاب فيها إلى قسمين: نهاريون ينصرفون بعد انتهاء الدوام الذي يبدأ من الصباح حتى بعد الظهر، وداخليون يبيتون في المكتب، وأساتذة معيدون يقيمون مع الطلاب الداخليين، وأساتذة يتناوبون على المبيت مع الطلبة.

نلج البوابة التي تنفتح على جانبيها نافذتان زينتا بالحديد المشبك، ومنها إلى الممر، لتتراءى لنا ظلال كاظم آغا الأرناؤوطي حارس البوابة ذات المفتاح الطويل، وأكثر المتمسكين بتعليمات إدارة المدرسة، حتى ظن الطلاب أنه لا يعرف الرحمة، فمن تأخر منهم فاقد لا محالة أي أمل بالنجاة من عقوبة الانتظار أمام باب إذا أوصد لا يُفتح قبل انتهاء فترة الدوام الأولى وقرع جرس الفرصة الكبرى، والتي يخرج خلالها الطلاب لشراء ما يأكلونه، إما صحن حمص مدقوق مع رغيف ساخن تعوض عن الذهاب

إلى البيت لتناول الطعام، أو شراء بوظة من عند بكداش في الحميدية صيفاً، أو رأس شوندر مسلوق شتاء. وكانوا يقولون عن كاظم آغا (لا يعرف ربه إلا بالإشارة) لأن عقوبة الانتظار كانت من أقبح العقوبات وأقساها!! العقوبة ذاتها التي باتت في أيامنا أحب العقوبات إلى قلوب الطلبة.

هذا الفناء سيشهد أغرب حادثة تحصل في المكتب عند يقرر طلبة في ميعة الصبا إجارة ثلاثة جنود فرنسيين من صف الضباط، وكان قد جيء بهم للإقامة في المكتب أيام الثورة السورية، وكانت دمشق في ذلك الحين مقسمة إلى منطقتين، إحداها تحت السيطرة الفرنسية وتمتد من الجسر الأبيض وحتى باب الجابية، ومن باب مصلى إلى الميدان، وفيما عدا هذا كانت المنطقة الثانية تقع تحت سيطرة الثوار، وبما أن مكتب عنبر واقع فيها اعتبرت إقامة ثلاثة جنود في المكتب مغامرة غير مأمونة، وذات ليلة وبعد انصراف الطلاب النهاريون وإغلاق باب المكتب الخارجي، ومنع الدخول والخروج كالعادة، اجتمع الطلاب الداخليون في قاعة الدراسة ومعهم الأساتذة المناوبون، ومع حلول وقت صلاة العشاء جاء خمسة وعشرون رجلاً من الثوار إلى المكتب، ونادوا بصوت الملهوف كاظم آغا الذي كان يصلي العشاء في الفناء خلف الباب كي يفتح لهم ويغيثهم من دورية ادعوا أنها تلاحقهم. فقطع الحارس صلاته وسارع إلى الباب يفتحه، فلما أضحوا داخل المكتب شهروا أسلحتهم وطلبوا تسليم الجنود الفرنسيين الثلاثة. كاظم آغا رغم ارتباكه رحب بهم ودعاهم إلى الجلوس لحين إحضار الجنود، وثم ذهب إلى الأستاذ المناوب ليخبره بما يجري في الباحة، سمع الطلاب الحديث وراعهم اضطراب الأستاذ والحارس، فاستنفروا وعددهم قرابة

المائة، توجه قسم منهم إلى الضباط الفرنسيين يعطونهم من ألبستهم المدنية لمساعدتهم على التخفي، وانطلق الآخرون إلى الباحة، وهناك تواجه الرجال الثائرون مع الفتية الغاضبين لأكثر من نصف ساعة أصر فيها الثوار على تسلّم الفرنسيين فيما أصر الطلاب على الرفض، وقال أحدهم: ليس مكتب عنبر هو المكان الشرعي لتسلمهم، وأضاف آخر: ما كنا ننتظر أن تكون مرجلتكم عليهم بين جدران المدارس وفي الليل! وبعد أخذ ورد هدد الثوار باستخدام العنف، إلا أن ذلك زاد في تحدي الفتية، وقرروا أنهم لن يسلموا الفرنسيين إلا على جثثهم، ولما تأكد الثوار من جدية موقف التلاميذ، انصرفوا تجنباً لوقوع مجزرة لا شك سيكون فيها ضحايا من الطلبة.

الجنود الثلاثة المتوارون من شدة الذعر، بدا منظرهم مضحكاً في ملابس الطلاب المدنية فهذا لم يصل البنطلون إلى ركبتيه، وآخر تمزق الجاكيت عليه، وما أن انزاحت الغمة حتى انضموا إلى حلقات الطلاب، وقال أحدهم إنه كان يعتقد أن ما يحكى عن إغاثة العرب للملهوف مجرد أساطير، لكن بعد هذه الحادثة على كل فرنسي وكل أوروبي أن ينحني أمام هذه السجايا، فقد كان موقف الطلاب عظيماً رغم معرفتنا الأكيدة أنهم لا يكرهون إقامتنا بينهم وحسب بل يكرهون النظر في وجوهنا، لكن حين جد الجد كانوا عرباً أصلاء.

في مكتب عنبر

تتقدم بنا الخطا نحو فسحة سماوية جافة، على اليمين غرفة كانت تستعمل لتدريس الموسيقى، وفي آخر الساحة على اليمين حجرات استخدمت حمامات، إلى اليسار درج يصعد إلى مكتب المدير،

وبعد الدرج يساراً باب يفضي إلى باحة داخلية، والى يسار هذا الباب نوافذ غرفة المعيدين ومن بعدها صالة كبيرة كانت مطعماً ومطبخاً للطلاب الداخليين.

هنا في الباحة الأولى، سجل طلاب المكتب مأثرة أخرى تكشف الوعي الوطني الذي تمتع به ذلك الجيل حين قرر توجيه صفعة للمفوض السامي الفرنسي دو جوفنيل صاحب خطة (الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم) التي أطلقها قبل قدومه إلى سورية عام ١٩٢٦ بهدف إخماد الثورة السورية الكبرى، صفعة غير متوقعة من فتية صغار، فلدى وصول أخبار زيارته إلى المكتب، ألفوا وفداً قابل مدير المدرسة وكان حينها جودة الهاشمي، وطلبوا منه إلغاء هذه الزيارة، لما يمكن أن تجره من عواقب، لكن الهاشمي لم يملك من الأمر شيئاً، فقد كان البلد محكوماً من الجيش الفرنسي مباشرة.

صباح الزيارة، وفد نحو مئة شرطي فرنسي إلى المكان وارتفعت الأعلام الفرنسية في باحات المدرسة. وأول إجراء اتخذه الطلاب سكب زجاجة حبر على زميل لهم كلف بإلقاء خطاب بالفرنسية يشيد بدولة الانتداب ويرحب بالضيف الكبير، أما الإجراء الثاني والمفاجئ فكان في طريقة استقبال المفوض السامي، فقد كان مقرراً أن يستقبله مجموعة من الطلاب اصطفوا في صفين، تفصلهما أربعة أمتار، كلفوا بالتصفيق لدى دخول الضيف، لكن وما أن توسطهم حتى باغتوه ببدئهم لعبة (بيل - بيل) الشائعة في ذلك الوقت، وحسب قواعد اللعبة: تقسم الباحة إلى نصفين بخط، يفصل بين فريقين متساويين يسعى فرد من أحد الفريقين إلى تجاوز الخط والدخول إلى منطقة الفريق الآخر، فإذا ألقي

القبض عليه ومنع من تجاوز الخط يخرج من اللعبة، وكان يصطلح عليه بقول (مات) ويخسره فريقه، وإذا نجح في لمس واحد أو أكثر من الفريق الآخر، وأيضاً في تجاوز الخط، فإن الذي يمس يخرج من اللعبة ويخسره فريقه، وهكذا بين كر وفر، شاعت الفوضى في الباحة، فيما المفوض السامي يتابع ما يجري مندهشاً وسط أصوات تصيح بيل ـ بيل، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل راح زملاؤهم يتسلقون الأعمدة الحديدية في الرواق، وآخرون يلعبون بالطابة ... هذه الحادثة يرويها ظافر القاسمي بكثير من الاستفاضة المشوبة بمشاعر الفخر، ويقول إن المفوض السامي دخل بعدها إلى قاعة الرسم وهناك كان ثمة طلاب احتجزوا مع رسوم جاهزة كانت معدة ليطلع عليها المفوض السامي على أساس أنها من إنتاجهم، لكن أحد الطلاب، حاول تدبيج خطاب باللغة الفرنسية، وفحواه مطالبة فرنسا بالرحيل عن سورية.

استشاط المفوض السامي غضباً وتوجه بسؤال للأساتذة مستنكراً: «هل هذا ما تعلمونه لطلابكم؟!.» هب مدير المعارف وكان فرنسياً ليأمر باحتجاز الطالب، لكن دوجفنيل انتهره، وهنا تدخل الأستاذ شكري الشربتجي وقال إنه في مثل هذا اليوم أعدم جمال باشا والد هذا الطالب، فهدأ روع المفوض السامي وقال إذا كان الأمر كذلك فإنني أعفو لا عقوبات، ولدى انصرافه مشيعاً بصفير الطلاب، واجه مستشار الأمن والشرطة الفرنسي بيجان، ومعه فرقة من الجنود حاملين رشاشاتهم، فسأله عن سبب قدومه، فرد بيجان: أريد أن أصفي حسابي مع هؤلاء الأوباش، إلا أن دوجفنيل أمره بالانصراف فوراً.

إثر ذلك فتح تحقيق واسع لمعرفة من دبر الأمر من الطلاب، استدعي الجميع كل على حدة، ليجيب عن أسئلة مكتوبة، وكان الأستاذ جودت الهاشمي حريصاً على الاقتراب من كل واحد منهم ليهمس في أذنه «ما بتعرف شي موهيك». وبدوره كان يفهم الطالب الرسالة ويكتب إجابته تحت كل سؤال «لا أدري». فمر الحدث بسلام ولم ينل أحد من التلاميذ أي سوء.

النخبة الوطنية.. معلمين وطلبة

في الفسحة السماوية الثانية، نقف في أوسع باحات المكتب تتوسطها فسقية كبيرة تحلقت حولها غرف واسعة استخدمت صفوفاً للتدريس، محاطة بأحواض الياسمين والورود والأشجار، يتصدرها من جهة اليمين إيوان عال استخدم مصلى، وفي الجهة المقابلة يساراً ارتفعت خمسة أعمدة رشيقة من المرمر تطل على بهو استخدم مخبراً علمي، ومعرضاً للأعمال المميزة التي يصنعها الطلاب من الوسائل التطبيقية، والى يمين ويسار هذا البهو غرفتان خصصتا للمعيدين (الموجهون التربويون) المكلفين بمراقبة الطلاب.

في هذا القسم من الدار، حمّام من الرخام الكامل وله باب يصل إلى الزقاق الخلفي يستعمل لإدخال الحطب. في هذه الزاوية، نستحضر معاناة الطلاب في فصل الشتاء إذ تتحول الغرف المكسوة بالرخام إلى ثلاجات، لا سيما أن حصص الصفوف من الحطب محدودة، فيعمدون أحياناً إلى سرقته من المستودع. يحكي أحد طلاب السنة الأخيرة في صف الفلسفة: كان البرد قارساً في غرفة كسا الرخام أرضيتها وجدرانها ونوافذها، حين دخل الأستاذ المسيو غولمييه الصف ببشاشته المعهودة، قال فاركاً يديه هل تشعرون بالبرد مثلي؟ رد الطلاب نعم. سأل: لماذا لا

تشعلون النار في المدفأة؟ قال الطلاب: لقد نفدت حصتنا المقررة من الحطب. فقال مازحاً: اكسروا المقاعد وأشعلوها.

جدران هذا القسم ونوافذه زينت بزخارف غنية بتفاصيل دقيقة مستوحاة من فنيّ الباروك والروكوكو اللذين كانا منتشرين في أوروبا في تلك الحقبة، بكل ما فيها من فخامة وزخارف ملونة في غاية الجمال. وتظهر في هذا القسم عناية فائقة لا تتوفر في الأقسام الأخرى من القصر، والسبب كما يقال أن يوسف عنبر الذي بناه كان ينوي تزيين كل أقسام المكتب وبدأ بالقسم الثاني الأكبر وكان مخصصاً للحريم، إلا أن أحواله المالية ساءت قبل انتهائه من تزيينه.

في هذه الباحة، تعود صورة الطلاب وهم يقضون دقائق الفرصة الصغرى، باللهو وممارسة ألعاب كانت شائعة حينذاك، فإما اللعب بالكرة، وإما بالكجة (الدحل)، أو ما كانوا يسمونه (عمود) أو (بيل بيل). أما الفرصة الكبرى فيتمتع الطلاب بإلقاء الشعر حيث ينقسمون حلقات يجرون منافسات أدبية تدعى (مذاكرة أنفاس) يمتحنون فيها قوة ذاكرتهم، وتُفتتح ببيت من الشعر وعلى المنافس الإجابة ببيت آخر من الشعر أوله على ما روي البيت الذي رواه المنافس. ولن نحذف من هذا المشهد طلاباً يعيدون مذاكرة دروسهم، وآخرين يتداولون في شؤون خاصة بهم في زاوية قصية.

هنا لا بد أن تحضر يوميات نخبة من الشباب الوطني المثقف، الذي تلقّى العلم على يد أساتذة أجلاء كان لهم دور هام في إذكاء الوعي القومي، وبقراءة تاريخ هذا المكان ومن حلَّ فيه سواء كان تلميذاً على مقاعد الدراسة أو معلماً يكرس حياته لهذه المهنة النبيلة ندرك واحداً من أسباب وصف دمشق بـ(قلب العروبة

النابض) فمن هنا تخرج عشرات الطلاب الذين حملوا لواء العربية والنخبة الوطنية التي ستناضل من أجل الاستقلال، ومنهم الرئيس شكري القوتلي بطل الجلاء ورجل الحرية وأحد العاملين في جمعية الفتاة العربية والمؤثرين في نشاطها وقراراتها، ونسيب البكري المناضل الثائر ضد الاستعمار التركي والفرنسي والوزير في عهد الحكومة الوطنية، وسعيد الغزي الرجل الوطني ورئيس الحكومة السورية، والطبيب حسني سبح رئيس الجامعة السورية، صاحب المؤلفات الطبية ومؤسس مستشفى المواساة، ورئيس مجمع اللغة العربية بدمشق مدة ثمانية عشر عاماً. ووجيه السمان الأديب والمترجم المحب للعلوم وزير الصناعة في فترة الوحدة مع مصر والذي أسهم في اكتشاف النفط واستثماره في سورية.. والشاعر والأديب والمناضل المدرس أمجد الطرابلسي، وبدوي الجبل أحد عبقريات الشعر في القرن العشرين، وزكي المحاسني العالم والأديب والشاعر وعالم اللغة والذي ألف «٧١» كتاباً.... هؤلاء وغيرهم كثر، يصعب تعدادهم تحضر ذكراهم في هذا المكان وهم يتلقون العلم على يد أساتذة مناضلين نفاهم الاحتلال عن بلادهم في ليبيا وتونس والجزائر، مع نخبة من شباب سورية الذين تعلموا في فرنسا وعادوا ليكونوا نواة للنشاط السياسي والحزبي الذي ستشهده البلاد في العقود اللاحقة.. فالتأثير الذي تركه هؤلاء لم ينحصر في مجال تلقي العلم والتعليم بل تجاوز ذلك ليرسم ملامح المراحل اللاحقة، ومن هؤلاء أستاذ التاريخ بكري قدورة المنحدر من أصل ليبي وكان عنصراً فاعلاً في الساحة الطلابية وهمزة الوصل بين الطلاب والمناضلين ضد المستعمر، وكذلك نخبة تعلمت في فرنسا وعادت بأفكارها الجديدة كالأستاذ ميشيل عفلق الذي عني بنشر الأفكار الاشتراكية أكثر من اهتمامه بتدريس التاريخ، والأستاذ صلاح

البيطار مدرس الكيمياء، وقبلهم عرف المكتب شيوخاً أفاضل أسسوا لنهضة اللغة العربية بعد طور من الانحطاط كالشيخ عبد الرحمن سلام ومحمد الداودي وعبد القادر المبارك الذي درس الدين من ثم العربية لسنين طويلة معاصراً العثمانيين ومن ثم الانتداب، وكان يقرأ ويكتب بدون تنقيط، وقيل عنه إنه أعلم أهل زمانه بالمفردات، حتى أن خصومه لقبوه بنسخة حية من القاموس. أما الشيخ سليم الجندي مدرس تاريخ آداب اللغة العربية، الذي عرف بقلة الابتسام كغالبية مدرسي زمانه، فما زالت ضحكته التي علت ذات يوم حدثاً يذكر، حين دعا أحد التلاميذ إلى السبورة، وكانت ممتلئة بالكتابة، ولا بد من محوها، بحث الطالب عن المحاية فلم يجدها، وأراد أن يتكلم بالفصحى فسأل: أين الممحاة؟ وإذ بالشيخ سليم الجندي يغرق بالضحك قبل أن يسأل الطالب: ويحك! هل تعلم ما معنى الممحاة؟ رد الطالب: لا يا أستاذ . فقال الجندي: الممحاة هي خرقة الحيض! وكان هذا اليوم هو الوحيد الذي رأى فيه الطلاب الشيخ سليم يضحك في الصف. ولو أنه رحمه الله عاش حتى يومنا هذا لما أضحكته كلمة ممحاة لأنها صارت شائعة جداً كتعبير فصيح عن المحاية، أما المعنى الأصلي فلا يكاد يعلم به أحد.

ولأن الضحك كان نادراً حفظ التلاميذ المفارقات الطريفة التي كانت تحصل بين حين وآخر كقصص يروونها كلما ورد ذكر للمكتب، فيحكون عن الأستاذ مسلم عناية الضابط الممتاز في الجيش التركي أستاذ الرياضيات والموسيقي البارع والمتقن لسبع لغات والمعروف بعصبيته، ويقال إنه غضب عندما أكثر الطلاب من مناداته أستاذ، أستاذ .. فطلب منهم الكف عن هذا النداء قائلاً، لو عرفتم من أين اشتقت هذه اللفظة (أستاذ) لما أعجبتكم،

إنها مشتقة من الفارسية ومعناها (معقل المجانين)!! أما الرقة واللطافة فكانت سمات الأستاذ صالح التونسي، سليل الأسرة التونسية المالكة، جاء دمشق منفياً من دولة الاحتلال، عمل في تدريس اللغة الفرنسية، وكان طلاب المكتب ينادونه بالمسيو صالَح بفتح اللام كما كان يلفظها، وذات مرة طلب من أحد التلاميذ ترجمة جملة من العربية إلى الفرنسية، فقال له ترجم جملة ولفظها باللهجة التونسية «ملك عطش ملقاما» وهي «ملك عطش ما لقي ماء» فلم يفهم الطالب لهجة الأستاذ الأمر الذي أغضب صالح فقال له «نكلموك بالعربي ما تفهم»!! كما يروى عنه أنه ألزم طلابه بحفظ قصيدة بالفرنسية طويلة وكان يختار عدداً من الطلاب ليلقوا ما حفظوا منها، وذات مرة وقف طالباً يلقي ما حفظه من تلك القصيدة المشبعة برقيق المعاني، إلا أن تلاوته جاءت بصيغة تقريرية رتيبة، فنبهه الأستاذ، وحاول الطالب تلافيها، لكن حين وصل إلى مقطع يعبر عن حالة عشق، ارتبك وحار كيف يتلوه فقال له الأستاذ صالح باللهجة التونسية (بدها ظحكا وغمزا) ومثل بيديه وتعابير وجهه تلك الحالة من الوجد في لحظة اعتبرت غريبة في ذلك الزمن على أستاذ في مكتب عنبر.

كذلك لا يمكن تجاهل أن الذاكرة الوطنية السورية تحتفظ بمكانة خاصة للأستاذ جودت الهاشمي الذي جاء إلى إدارة المكتب بعد اثنين من زملائه، الأول شريف بك رمو، وهو أميرلاي متقاعد، تلاه مصطفى ثابت الملقب حينها بأبي المعارف والذي جرى فصله بعد إضراب الطلاب كما ورد سابقاً. إلا أن الهاشمي الجزائري الأصل الذي حرم من زيارة بلده طيلة فترة استعمارها من فرنسا، كان قامة علمية وتربوية، علَّم الرياضيات سنين طويلة في مكتب عنبر، عاش للعلم ولم يعرف عنه اللهو،

حتى سمي (بجودة الرياضي). ثم اقترن اسمه بمدرسة التجهيز بدمشق لغاية اليوم، كنموذج للمربي الفاضل، فهو الحازم الصارم النادر الابتسام، وإذا حصل وشوهد يبتسم فبشكل رمزي، ويصفه طلابه بقصير القامة، كبير الهيبة، عميق الجد، وافر الوقار، قليل الكلام، صادق الوطنية، بار بالطلاب، حتى أنه عندما جاءه رجال الأمن يطلبون منه تسليم أحد الطلاب (حسن السقا) وكان داخلياً، رفض طلبهم وقال لهم لا أسمح باعتقاله داخل المدرسة فإذا شئتم اعتقلوه خارجها، وصادف ذلك يوم خميس؛ اليوم الذي يذهب فيه الطلاب الداخليون بعد انتهاء الدوام إلى أهلهم لقضاء عطلة يوم الجمعة، ولا يحتجز في المدرسة إلا المعاقبون، فعمد الهاشمي إلى إضافة اسم السقا إلى قائمة المعاقبين الممنوعين من الذهاب إلى أهلهم في العطلة، دون أن يبين السبب، وقد حاول السقا كثيراً لمعرفة سبب منعه من مغادرة المكتب إلا أن الهاشمي لم يفصح عن السبب حتى سُوّي أمر التوقيف.

واحتل الأستاذ الشاعر محمد البزم مكانة خاصة في قلوب تلاميذه، لما امتلكه من حضور بديهة ونقد لاذع مرير، فهو واحد من مشايخ اللغة العربية، لا يتكلم إلا بالفصحى، وأول من عود الطلاب على الرجوع إلى المعاجم واختار لهم أيسرها وأصحها، وكيفية رد اللفظ إلى الثلاثي لتقوى ملكتهم اللغوية، ومرة سُئل عن معنى كلمة من وحشي اللغة. فرد البزم: نصف العلم لا أدري. فقال الطالب، سألنا الأستاذ المبارك فعرفها وهو يحفظ قاموس اللغة عن ظهر قلب. فقال البزم: زادت نسخة في البلد.

لا شك في أن طرافة تعليقاته حرضت هذه الملكة عند بعض تلاميذه، ورغم ما عرف عنه من حساسية وسرعة تأذٍّ كان يغض

النظر عما قد تحمله ردودهم من تهكم وسخرية إذا كانت على مستوى رفيع من البلاغة والظرف، ومنها ما حصل لدى تصحيحه وظيفة الإنشاء، وقد اصطف الطلاب في طابور وهم يتقدمون إلى طاولته، شاعت الفوضى في الصف فطلب من أحد التلاميذ البحث عن مصدر التشويش وكان يقصد التهويش لأنه ليس في المعاجم كلمة تشويش، فرد الطالب وكان حاضر الذهن لم أجد مصدر التشويش، ولكن وجدت اسم الفاعل أي (واش). أعجب البزم برد تلميذه وصمت عما حمله هذا الرد من تهكم. وحصل أيضاً عندما دخل الصف ورأى أحد الطلاب كاشفاً عن رأسه وهو أصلع. فقال له، استر من عورتك يا فلان. فرد الطالب، لعن الله الناظر والمنظور. فقال له البزم: والله لولا حسن جوابك لمسحت بك الأرض.

صفحة مضيئة

ولعل من المثير ونحن نشهد مرحلة تراجع فيها تدريس الفنون في مراحل التعليم قبل الجامعي، أن نعلم أن مكتب عنبر في تلك الحقبة من الزمان والتي كانت فيها الأولوية لتدريس علوم الدين واللغة والعلوم التطبيقية من رياضيات وفيزياء وكيمياء وعلوم طبيعية، اعتنى أيضاً بتدريس الفنون (المسرح والرسم والموسيقا)، فضلاً عن العناية بالرياضة البدنية، ويتذكر الطلبة أستاذ الرسم عبد الوهاب أبو السعود الممثل والمؤلف والمخرج المسرحي والموسيقي البارع والرسام المبدع الذي يرسم كل ما يجب رسمه حتى الستائر والكواليس، ويحكي طلابه عن مشاركتهم في أكثر من مسرحية لأبي السعود كمسرحية (مدينة دمشق) التي قدمها على مسرح اللونابارك المقهى الصيفي مكان سينما السفراء اليوم،

ومسرحية (لويس الحادي عشر) التي قدمها على مسرح سينما الهبرا في باب توما وذلك في عام ١٩٣٣. ويقول سهيل العشي، إن الأستاذ أبو السعود كان مهووساً بالفن، قال لهم مرة وكان واقفاً في ساحة المرجة: «لو عرف الشعب السوري قدري لوضع لي تمثالاً في ساحة المرجة»، وصادف مرور شحاذ بجانبهم، فلم يأبه له الأستاذ، فدار إلى خلفه وطلب حسنة، فصاح أبو السعود: «لك يا أخي من وشنا ما شفت خير، يعني من قفانا رايح تشوف».

وكان أبو السعود يدخل الصف ويستدعي الطلاب واحداً واحداً مصطحبين دفاتر رسمهم، فيمسك بالدفتر ويقول للتلميذ: يا أخي ما هذا، انظر كيف يجب أن يكون الرسم. ويأخذ القلم ويبدأ بالرسم حتى ينهي جزءاً منه، ثم يضع علامة للطلاب تسعة من عشرة أو عشرة من عشرة.

نخرج من الفسحة الثانية بجوار غرفة في الطابق الأرضي والأول، يظن أنها كانت مخصصة لصاحب الدار، إذا أراد لنفسه خلوة. لنلج باحة ثالثة يتصدرها إيوانان متقابلان من الشرق والغرب، وتبرز هنا زخارف الرخام والمرمر النافرة والمحفورة برسوم جدارية، وزخارف سقفية تتداخل فيها المرايا مع الرسم العجمي الدقيق والغني بالألوان. وقد استخدمت غرف هذا القسم للطلاب الداخليين.

في الفسحة الرابعة أو القسم الرابع، والذي يعتقد أنه قسم خصص للخدم تتوسط باحته الصغرى بركة ماء. إلا أنه استخدم لاحقاً للمعيدين المقيمين في المدرسة، تحيط به غرف صغيرة وفيه باب المكتب الشرقي على شارع المنكنة.

في هذه الباحة كان الطلاب يمارسون الرياضة البدنية. ويحكون عن أستاذ الرياضة أنه كان غريب الأطوار، فقد اعتاد أن يفتتح العام الدراسي بكتابة قائمة ممنوعات على السبورة على الطلاب التقيد بها، من قبيل ممنوع الكلام مباشرة مع الأستاذ بل بواسطة العريف. وهذا الأستاذ كان قليل الكلام حيث يتولى العريف أخذ الطلاب إلى الباحة الثالثة الصغيرة، وهناك يتفرقون ليمارس كل هوايته؛ جنباز أثقال قفز رمي كرة حديدية ... إلخ، فيما يعتزل الأستاذ في غرفة خشبية يراقبهم عن بعد.

نغادر المكان وأصداء أحاديث الطلبة تتردد في ردهات المكان عن السيارين في الربوة والوادي وباب السريجة التي اعتاد المكتب إقامتها في نهاية كل عام للمتخرجين، وتتداعى إلى الذاكرة صور لتلك المناسبات وقد ظهر فيها الطلاب والأساتذة على العشب وتحت ظلال الأشجار كأسرة أنجبت نخبة من الآباء كانوا ومازالوا قدوة حسنة.

بعد نيل الاستقلال وخلال الحكم الوطني انتقل مكتب عنبر إلى موقع آخر قريب من زقاق الصخر ليصبح مدرسة التجهيز الأولى التي أطلق عليها اسم جودة الهاشمي ولا تزال قائمة إلى الآن. أما مكتب عنبر فغدا من الأبنية التابعة للحكومة وجرى ترميمه في الثمانينيات ليغدو قصراً للثقافة تابعاً لوزارة الثقافة، ثم تبع لمحافظة دمشق حيث توجد فيها مكاتب مديرية حماية المدينة القديمة.

هذا المكان اليوم، وهو ما ينبغي تذكره، ليس مجرد قصر للثقافة تقام فيه الحفلات والأنشطة الثقافية المتنوعة، ولا مقراً لمديرية حماية دمشق القديمة، ولا حتى تحفة معمارية من أربعين غرفة تشغل مساحة خمسة آلاف متر مربع وسط دمشق القديمة ومثالاً

للبيت الدمشقي الجميل ذي الشاعرية بباحاته الداخلية وبألوانه التي تشيع البهجة والراحة في النفس فقط. بل قبل ذلك، والأهم صفحة مضيئة من تاريخ سورية المعاصر التي خطها جيل المناضلين القوميين والوطنيين من الأدباء والسياسيين والمعلمين والطلبة الذين أدوا دوراً هاماً في التأسيس للجمهورية العربية السورية التي نعيش على أرضها اليوم.

المصادر والمراجع

- **مكتب عنبر صور وذكريات**، ظافر القاسمي، دار العلم للملايين، ١٩٦٤.

- **فجر الاستقلال في سورية**، محمد سهيل العشي، دار النفائس، دمشق ١٩٩٩.

- **دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني**، ماري دكران سركو، إصدار الهيئة العامة للكتاب.

- **سوريا والانتداب الفرنسي**، فيليب خوري، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٩٧.

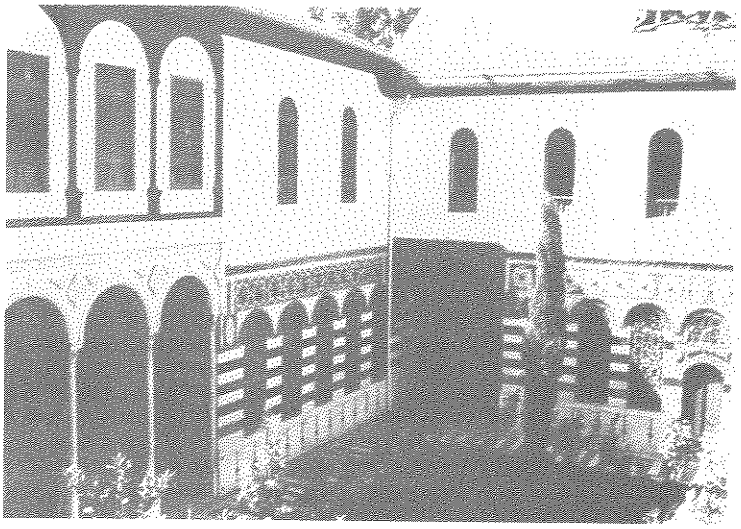

مكتب عنبر

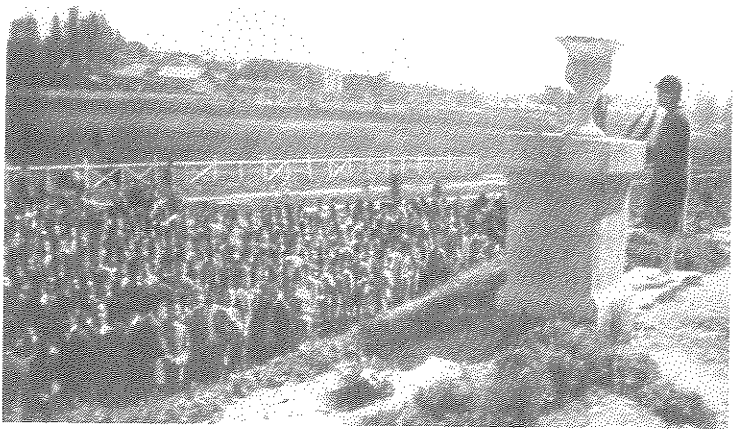

إضراب طلاب الجامعة ومكتب عنبر ١٩٣٩

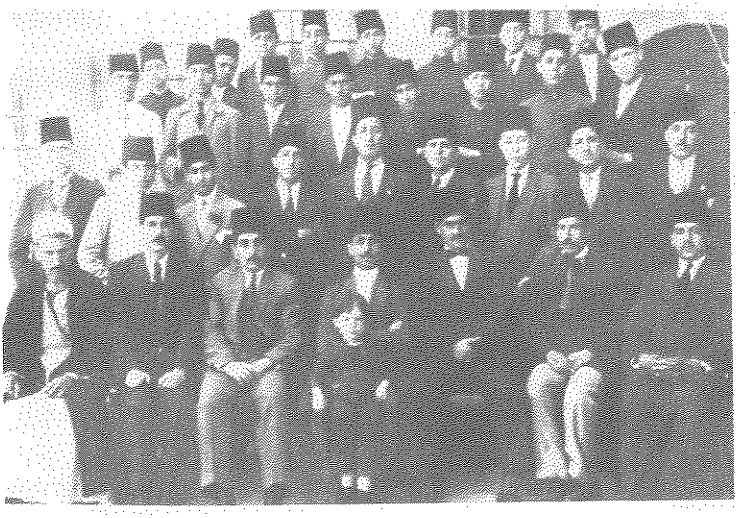

طلاب الصف السادس عام ١٩٢٠ ويلاحظ بينهم السيد صبري حمادة، وهو الأول من الوقوف في الصف الأول إلى اليمين

زيارة الملك فيصل الأول لمكتب عنبر عام ١٩٢٠

مدرسة المحسنية
تجربة علمية واجتماعية رائدة

بعد تجولنا في شارع الأمين المتفرع عن «الشارع المستقيم» المعروف بشارع مدحت باشا المنتهي بالبزورية حيث تقع المدرسة المحسنية، كانت الوقفة الأولى، ورغم الظن أنها وقفة ستكون عابرة .. انفتح الممر على مشهدية واسعة تعرض بعضاً من تاريخ الحارة ودمشق والمنطقة.

فوق الباب الخشبي العتيق كتب بخط عربي جميل وبأحرف نحاسية مزخرفة «المدرسة المحسنية للذكور أنشأها العلامة السيد محسن الأمين الحسيني سنة ١٣٢١ هجرية».

استقبلتنا صورة بالأبيض والأسود للعلامة مؤسس المدرسة، في الموزع الرخامي، وقد ارتفعت فوق الباب المؤدي الى الفسحة

السماوية، وهناك حيث العمارة الدمشقية الأموية الطراز بحجارتها البيضاء والسوداء والوردية، يروي البناء تاريخ توسع المدرسة، باستقامة جدرانه الحديثة الممثلة للتوّسع المستجد، إلى جانب البناء القديم المحتفظ بلمسات الماضي الحميمة، لتؤلف معاً مبنى من ثلاثة طبقات تطل على باحة، يتصدرها ليوان منقوش بالعجمي والرخام المجزع، محتضنة صورة أخرى كبيرة ملونة العلامة مؤسس المدرسة.

أخذنا طريقنا بين الطلبة، نحو الطبقة الثانية حيث مجلس إدارة الجمعية المحسنية المشرفة على المدرسة. وهناك جلس عدد من المربين المشرفين، ومن هناك، الى غرفة المكتبة حيث يأخذ التاريخ استراحته الطويلة، لم نتوقع لقاءه وجهاً لوجه بعد قرن من الزمن، نشطاً كأن غبار الأيام لم تنل من حيويته، وتلك الصناديق الكرتونية والخزائن الخشبية والأبواب الزجاجية لم تمنع شخوصه من الخروج لملاقاتنا.

غرفة المكتبة بنيت حديثاً وفيها أكثر من مكتبة، بينها مكتبة السيد محسن، التي تبرع بشرائها الحاج رشيد بن عبد الله الروماني، بمبلغ خمسة آلاف وخمسمئة ليرة سورية سنة ١٩٥٣ ووقفها للمدرسة، بالإضافة إلى مكتبة الأستاذ أديب التقي، من أوائل مدرسي المحسنية، ومكتبات أخرى أهداها المحسنون(١١).

عبر هذا المشهد كانت رحلتنا مشوبة بالمتعة وعلى مدى ساعات أخذت مساحتها فوق الزمن، منفلتة من ثوانيها. خرجت الكتب،

---

(١١) لقاء مع المشرف في المحسنية حبيب لطف.

والمخطوطات، والمجلات، من الصناديق. بعض المخطوطات كتبها السيد محسن الأمين بيده والبعض الآخر من مقتنياته، بعضها أصول لكتب صادرة، ككتابه الشهير أعلام الشيعة، وبعضها دفاتر خاصة، ومنها أيضاً كتب منسوخة من مكتبة النجف الأشرف.

على الطاولة الخشبية المغطاة بالزجاج فردنا بعضاً من تلك المخطوطات، والمجلات، والكتب، وأيضاً البيانات السنوية للجمعية، وكأننا بذلك كنا نكشف عن وجوه شخصيات عديدة متميزة، حاولت أن تقدم نفسها من خلال أعمالها؛ طلبة، معلمون، وتجار دمشقيون محسنون، سيدات مجتمع راقيات، كان لهن باع في العمل الاجتماعي، منهن المحسنة حرم الحاج يوسف بيضون، وأيضاً أعضاء لجنة السيدات المؤلفة عام ١٩٥٠، بعدما تناهى إلى سمع بعضهن أن قسم الثانوي في المدرسة مهدد بالإلغاء بسبب نقص الواردات.. وعلى ذات الطاولة اللجنة الثقافية المؤسسة عام ١٩٤٦ المكوّنة من شباب جندوا أنفسهم لمكافحة الأمية آنذاك، فخصصوا وقتاً مسائياً في المحسنية لتعليم الأميين..

تبنت الشخصيات الخارجة من البيانات السنوية قيادة الرحلة، لنتوقف عند شخصية علمية متفردة عاشت في حي شديد الخصوصية، لما يتمتع به من تنوع اجتماعي، ومذهبي، وجغرافي.

مركز تنويري

يضم الحي المسلمين السنة والشيعة والمسيحيين ــ عدة طوائف ــ وأيضاً الدروز، إلى جانب اليهود، أما من حيث تنوع الانتماء الجغرافي فقد أمّ حي الأمين أناس من أقاليم عدة من جبل عامل

في لبنان ومن جبل العرب ومن إيران والعراق ومن شمال سورية ومن بعلبك ومن الباكستان، ومن فلسطين بعد عام ١٩٤٨.. إلخ. ضمن هذا الموزاييك من الجنسيات والمذاهب برزت المدرسة المحسنية مركزاً علمياً تنويرياً شعاره (الدين الخلق والعلم) .. وتحت هذا الشعار قدم الوجهاء التمويل والدعم اللازم للمدرسة كما تشير البيانات والنشرات الأدبية والتربوية الصادرة عن الجمعية، والخطب المناسبات الخاصة، وقدمتهم تلك الخطب بصفتهم محسنين من خلال تعداد خصالهم النبيلة، وبما يجعلهم قدوة حسنة للتلاميذ، وكانت مناسبات الاحتفاء بذكرى أحدهم مناسبة أيضا للتذكير بأهداف الجمعية، فمثلاً في ذكرى وفاة المحسن كامل نظام، ألقى رشيد مرتضى سنة ١٩٤٦ خطبة قال فيها: «إن للبشر في حياة المحسنين عظة، وفي موتهم ذكرى، أما في حياتهم فيرينا المحسن في أعماله كيف تكون التضحية والإنفاق..... وأما الذكرى في موتهم فيرينا الجمهور من بعدهم كيف تحفظ أعمال الرجال، وكيف يكون الاعتراف بالجميل».

جداول التبرعات لعام ١٩٤٥ م تعطي فكرة عن تمويل هذه المؤسسة العلمية والذي ينم عن مقدار الاهتمام أو الوعي لإنشاء مؤسسة تربوية دينية حديثة فالحاج رشيد الروماني تبرع بمبلغ ١٧٠٠ دينار عراقي لشراء وقف المدرسة، ومحمود الروماني تبرع بمبلغ ١٥٠٠ دينار عراقي لشراء وقف المدرسة أيضاً، والحاج عبد الحسين صاحب من إيران من المؤازرين والعاملين في إنشاء القسم الداخلي، والسيد إبراهيم البيشلى المتبرع من وصيته بمبلغ ٣٦ ليرة عثمانية لوقف عقار للمدرسة، والشيخ بلاسم آل ياسين مؤسس مدرسة في العراق على نفقته الخاصة، وتبرع بمبلغ ١٠٠٠ دينار عراقي للمدرسة المحسنية، والكلية العاملية في بيروت.

الرابط الروحي بين علماء الشيعة في العراق وسورية ولبنان وإيران، شكل الداعم الأساسي لبناء المحسنية بما هي مؤسسة دينية إسلامية، في حقبة زمنية كانت تشهد أوج مد المدارس التبشيرية الغربية المسيحية، في منطقة الشرق الأوسط فترة ضعف الدولة العثمانية، وبدء تمدد الاستعمار الأوروبي، وكان نشر تعاليم الدين الإسلامي وتثقيف أبناء الشعب واحدة من وسائل مواجهة ثقافة المبشرين الذين أنتجوا نخبة مثقفة منفتحة على الغرب، ويتوضح هذا البعد السياسي في ما قاله العلامة السيد محسن الأمين العاملي في تبريره تأسيس المدرسة العلوية العثمانية (المحسنية) وموقفه كعالم دين من المدارس التبشيرية المنتشرة في ذلك الزمن فيقول: «إن تفاضل العلوم وشرفها إنما هو باعتبار شرف غاياتها. فأفضلها علوم الدين .. ثم العلوم الرياضية ... وغيرها التي لا يستغنى عنها في الدين ويحتاج في أمر الدنيا وعلوم الصناعات وشبهها التي يجب تعلمها على الكفاية، ويتوقف عليها نظام العالم ... وما أكثرها في هذا الزمان إنشاء المدارس لتعليم القراءة والكتابة واللغات والحساب وجملة من العلوم الرياضية وكان جل هذه المدارس يوجب الدخول إليها البعد عن عقائد الدين الإسلامي المنيف ومحاسن الشريعة الغراء والتخلق بغير أخلاق ... وذلك إما لأن مؤسسيها والقائمين بها قد نصبوها أشراكا لاصطياد أبناء المسلمين .. وإما لأنهم لا يحافظون على أمر الدين ولا يهمهم شيء منه ولا يستحسنون غير التخلق بأخلاق الإفرنج وتقليدهم .. لكن لما أعجزهم تقليدهم في محاسنهم اقتصروا على اتباعهم في مساويهم لأن ذلك لا يحتاج إلى كثير عناء.. وتفادياً لوقوع قومنا في هذه الورطة بذلنا غاية الوسع وجهد الطاقة في تأسيس مدرسة كافلة لجمع شمل أبنائهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم. مع علمنا بأن طائفة من الناس لا يروق في أعينهم غير

تلك المدارس التي أشرنا إليها. وطائفة أخرى يرون في التصدي لإنشاء مثل هذه المدارس من المحرمات لأنه يؤدي بزعمهم إلى ما لا يسوغ في الدين، وهذا توهم ... فالأولى لهم أن يوجبوا التصدي لذلك من باب المقدمة لدفع غائلة الدخول في تلك المدارس الضارة فإن الناس لم تعد تنفع فيهم المواعظ في الامتناع عنها إذا لم يروا ما يقوم مقامها مما بني على أساس الدين فوفق الله تعالى بمساعدة جماعة من محبي الخير إلى ابتياع دار واسعة تامة المرافق بمدينة دمشق المحروسة ووقفها مدرسة بعد تسميتها (بالمدرسة العلوية العثمانية)».

التدريس والإدارة

اتبعت المحسنية الطرائق التدريسية ذاتها المتبعة في المدارس التبشيرية، في نشر تعاليم الدين إلى جانب العلوم الأخرى، ففي المرحلة الابتدائية كان يجري تعليم ثلاث لغات أجنبية وهي: التركية، والفارسية، والفرنسية، إلى جانب تعلم وإتقان اللغة العربية من حيث القواعد والنحو والصرف والخط والخطابة، بالإضافة إلى علوم الحساب والـ(دوبيا) والمنطق والجغرافيا، وفي سنوات لاحقة أدخلت الموسيقى والغناء والرسم إلى المواد الدراسية إلى جانب دروس الرياضة واللياقة البدنية. كما كانت تعتني المدرسة بالنشاط الطلابي خارج الدوام كالقيام برحلات علمية أو تنزه في مصايف دمشق أو إقامة مخيمات الكشافة لعدة أيام، وأيضاً العناية بالمواهب الفنية كالمسرح. بالإضافة للمناهج العلمية المتقدمة التي اتبعتها المدرسة المحسنية، تبنت أيضاً منهجاً تربوياً متقدماً استبعد من قانون التأديب الضرب والتوبيخ الذي يمس الكرامة، واقتصرت العقوبات على كتابة عدد من الأسطر في وقت الفرص، ويزيد

عدد الأسطر كلما كانت العقوبة أكبر، فيعاقب التلميذ المتخلف عن المدرسة لمدة يوم كامل غير مبرر بكتابة ثلاثمئة سطر، بينما يجازى من لا يهتم بنظافته الشخصية بكتابة عشرين سطراً أو بالوقوف أمام الحائط بدون لعب فترة الفرصة، أما عقوبة الطرد من المدرسة فكانت تقع على من يتفوه بكلام مناف للأخلاق أو من يعتدي على زملائه بالضرب أو مشاكسة معلمه، ولا يكون الطرد إلا بعد تنبيه الطالب أكثر من مرة، وإبلاغ أهله ومناقشة الأمر معهم.

النظام المالي كان متوجهاً لدعم الأهداف «الخيرية» للمؤسسة، وحسب النظام الداخلي للمدرسة الابتدائية العلوية كان الأهل يدفعون مبلغ ٤ قروش سورية لتعلم مبادئ القراءة الكراس الأول، و ٦ قروش لتعلم تتمة أجزاء مبادئ القراءة وأجزاء القرآن لحد سورة ياسين والخط والحساب، و٩ قروش لتعلم ما بعد سورة ياسين إلى الختام والخط والحساب والديانة، ١٢ قرشاً لتعلم التجويد والخط والحساب والديانة والنحو والصرف والإملاء والقراءة العربية، ١٨ قرشاً لتعلم المذكورات مع اللغات و٢٤ قرشاً لتعلم المذكورات مع الدوبيا. أما الدفع للمدرسة فهو شهري. تلك الأرقام تبدو كبيرة قياساً إلى بداية القرن العشرين ولكن تخصيص المحسنية عدداً كبيراً من الكراسي للتعليم المجاني لأبناء الفقراء، يجعل من تلك الاشتراكات بمثابة مساهمات خيرية، ففي البيان السنوي للأعوام ١٩٤١ و١٩٤٤ بلغ عدد الطلاب ١٦١ بأجرة تامة، ١٠٨ بنصف أجرة، ١٥٣ المجانيين والعدد الإجمالي بلغ ٤٢١. وتشير الأرقام للسنوات التالية إلى مدى الإقبال على التعلم في هذه المدرسة قياساً لواقع التعليم آنذاك، في بيان سنة ١٩٤٧ وحتى ١٩٤٨ كان عدد الطلاب بالمدرسة ٤٨٤ طالباً منهم ١٨٩ طالباً يدفعون أجرة كاملة و١٤٥ يدفعون نصف أجرة

و١٥٠ طالباً يتعلمون مجاناً، حيث أظهرت «المحسنية» اهتماماً بتعليم أبناء الطبقة الفقيرة، من خلال سياسة التكافل في الاشتراكات التي قد يسددها المقتدر مضاعفة، بينما الفقير مجاناً، أو بسعر مخفوض.

النشرة الثقافية

وكسائر المدارس الحديثة مطلع القرن، كانت «المحسنية» تصدر نشرة ثقافية يحررها الطلبة باسم «صدى المحسنية» الناطقة بلسان حال طلابها، وبالإضافة إلى المقالات التي تؤكد القيم والأخلاق والإسلام، كانت هناك مقالات سياسية تعنى بالأفكار القومية وتنمي حس الانتماء لأمة عربية واحدة، في انعكاس لأصداء المشروع القومي الذي كان في طور البزوغ مع التحرر من السيطرة العثمانية والدخول تحت السيطرة الأوروبية.

في النشرة الأولى من «صدى المحسنية» الصادرة في أيار ١٩٤٨ نقرأ تعريفها /صدى المحسنية رسالة أدبية ثقافية مدرسية/ تصدر عن فئة من الطلاب الثانويين ضمن هيكلية مؤسساتية مصغرة فيها (سكرتير التحرير) و(أمين السر) و(مدير الدعاية) و(مدير المكتبة) و(أعضاء)، بإشراف بعض الأساتذة، أما سعر النسخة فهو ٢٥ قرشاً سورياً والاشتراك السنوي ٦٠٠ قرش سوري للعموم و٣٠٠ قرش سوري للطلاب.

ويعد سعر النشرة مرتفعاً جداً بالنسبة لفترة صدورها، وهنا لا بد من الإشارة إلى التضخم المالي في تلك الفترة إبان الحرب العالمية الثانية وما قد يبرر أيضاً غلاء هذه النشرة كنشاط استثماري لدعم صندوق الجمعية.

في افتتاحية النشرة الأولى ١٩٤٨ م كتب محمد صندوق قائلاً: «أما أهداف المحسنية التي وضعها مؤسسها العلامة السيد محسن الأمين فثلاثة: الدين والخلق والعلم، تلك هي الدعائم الثلاث التي ترتكز عليها قوة الأمم. وأهداف المحسنية لم تتبدل والمال على كرامته وصعوبة تحصيله أهون المبذول.. أنتم اليوم طلاب المعهد وأبناؤه وغداً رعاته».

لقد اكتسبت هذه المدرسة أهميتها من كونها مؤسسة دينية وعلمية واجتماعية، خرّجت دفعات من الطلاب أثبتوا وجودهم وفاعليتهم في المجتمع، إلى جانب كونها منبراً وطنياً تنامى بعد الاستقلال، وشهد بداية الحكم الوطني، حيث اتسعت جنباته لتستقبل أبناء الطوائف الأخرى، وهذا التوجه خطه محسن الأمين منذ البداية لتكون المحسنية مشروعاً عروبياً تحررياً، وعبرت عنه إحدى مقالات النشرة الأولى لـ«صدى المحسنية» بقلم التحرير: «أصداء المحسنية .. أصداء عيد الجلاء .. وأصداء فلسطين .. أصداء تنبثق في وقت واحد عن مصدر واحد هو قلب الأمة العربية المتألم .... كل هذه الأصداء تجتمع تحت معنى واحد هو أن البلاد العربية متألمة من نواح عديدة وهذه الآلام ناشئة عن تدخل الأجنبي بأمور العرب».

قصة المحسنية

الجمعية المحسنية التي تأسست سنة ١٣٢١ هجرية الموافق لعام ١٩٠٢ ميلادية، تتبع لها (المدرسة العلوية العثمانية) الابتدائية الواقعة في دخلة الشرفا المتفرعة عن زقاق المدار في حي الأمين، وقد نُقلت إلى بناء حديث مع بداية القرن العشرين. أما المدرسة العلوية القديمة فظلت مدرسة ابتدائية إلى جانب كونها

اليوم مركزاً لتعليم الإناث.

وشهدت المدرسة المحسنية توسعات وتطورات كثيرة على مر قرن من الزمن، لتصبح لدى انتقالها إلى البزورية مدرسة للذكور ابتدائية وإعدادية ثم ثانوية، أحدث فيها قسم داخلي للطلبة الوافدين من خارج دمشق، أغلق في العقود الأخيرة لعدم الحاجة إليه بعد انتشار المدارس الحكومية في كل أنحاء سورية. ولا تزال المحسنية مدرسة تعتز برصيد هام من ماض تربوي عريق، جعلها تنوء بأعداد الطلاب الراغبين في تلقي علومهم الأساسية فيها، نخرج من المدرسة لنعود الى سوق البزورية نعبر باتجاه شارع الأمين في الطريق للوصول إلى زقاق المدار، من ثم دخلة الشرفا حيث المدرسة العلوية وبيت العلامة محسن الأمين العاملي الكائن في حي معظم سكانه من عائلات شيعية متوطنة في محلة الأمين، التي عرفت أثناء الانتداب الفرنسي بحارة اليهود، كما جرى تدوينها في الخرائط الفرنسية لدمشق.

مع مجيء الحكم الوطني وما حمله معه من حركات تحرر قومية تمكنت دمشق من رسم خريطتها العربية بعيداً عن الاعتبارات المذهبية، فحارة اليهود في محلة الخراب أصبحت حي الأمين نسبة للسيد محسن الأمين، حيث كرمه الحكم الوطني ليس فقط بتسمية محلة الخراب باسمه بل بتسمية أول مستشفى وطني بدمشق باسمه، وهو المجتهد الكبير، لتطلق هذه التسمية على منطقة كاملة تدعى اليوم المجتهد، حسب ما أفاد أحد مدرسي المحسنية مبيناً أن أصل هذه التسمية يجهله الكثيرون[١٢].

(١٢) لقاء مع السيد علي مكي في منزله بدمشق عام ٢٠٠١

منزل محسن الأمين

وصلنا إلى بيت الأمين بجانب المدرسة (العلوية) وهناك طالعتنا فسحة سماوية يطل عليها بيت دمشقي من طبقتين تعرض لعمليات تحديث وإصلاح، أكسبت جدرانه لوناً أبيض مشبعاً بالنور، في غرفة وسيطة صغيرة تطل على فناء الدار من جهة وعلى المشرقة التي تحولت لغرفة استقبال حيث احتلت الكتب الجدران لتكون هذه الغرفة المكتبة التي قضى فيها الأمين معظم وقته. يتذكر الدكتور شفيق نظام في إحدى مقالاته هذه الغرفة فيقول: وكنت أزوره (السيد محسن الأمين) برفقة والدي في بيته المتواضع وكنا نصعد إلى غرفة في الطابق الأول بدرج خشبي يلف صاعداً كأدراج المآذن ليصل عبر غرفة وسيطة إلى غرفة الاستقبال وكان لهذه الغرفة الوسيطة الصغيرة رفوف عديدة يتكدس عليها مختلف الكتب والمراجع العلمية وكان يجلس على الأرض على بساط متواضع وحوله أكداس الكتب، وبيده القلم التقليدي وهو قطعة من القصب تشق نهايتها وتبرى بنحو مائل وتغمس في الحبر، كان وجهه دائماً متهللاً يتكلم بهدوء بعد إمعان الفكر وكان صدره رحباً يتسع للجميع».

غرفة المكتبة المتواضعة رغم تبدل معالمها لا تزال تحتفظ بروح صاحبها من حيث خصوصيتها الشديدة في التقشف والصغر، فقد كانت كافية ليمارس فيها الأمين طقوسه الخاصة في التأمل والتفكير والتأليف والمطالعة، فمن هذه الغرفة خرجت إلى النور مؤلفات غزيرة واجتهادات في علوم الدين والفقه ناهزت الأربعين كتاباً منها «أعيان الشيعة» وهو ٣٧ مجلداً، بالإضافة إلى ديوان شعر «الرحيق المختوم» في جزءين، كما خرجت من هذه الغرفة

الأفكار التي ساهمت في التأسيس للفكر المؤسساتي لمجتمع إسلامي يتطلع نحو المدنية، فقد أنشأ إلى جانب الجمعية المحسنية والمدرسة جمعيات أخرى منها (جمعية الاهتمام بتعليم الفقراء والأيتام) و(جمعية الإحسان) لإعانة الفقراء و(جمعية المواساة) لتطبيب الفقراء بالمجان، كما أسس مدرسة لتعليم البنات أطلق عليها اسم «اليوسفية» تكريماً للمحسن الحاج يوسف بيضون وتقع مقابل المدرسة المحسنية في البزورية، ولا تزال قائمة حتى اليوم..

بعض من ملامح البيت قد تغيرت، فالدرج الخشبي غدا درجاً حديثاً والغرفة الوسيطة احتفظت بكونها غرفة للكتب ولم تعد للكتابة والتأليف، في بيت تابع للوقف، يتعاقب على سكناه العلماء الشيعة فقد سكنه السيد حسن يوسف مكي، والسيد علي محمد محمود الأمين قبل أن يسكنه السيد محسن الأمين، وبعدها سكنه السيد علي محمود مكي ومن ثم ولده السيد علي مكي..[١٣]

يعدّ الأمين من رجالات العلم الذين تمكنوا من ردف الأفكار بالأفعال على مستوى المجتمع والأمة، وهو من رجالات الدين ممن لم يتوسلوا المواعظ فقط لقيادة حركة الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، فقد عرف بمواقفه الوطنية المتشددة حيال الاستعمار الأوروبي، ففي الثلاثينيات كانت داره منطلقاً لإضراب ضد تحكم الشركات الفرنسية، كما يحفظ الدمشقيون حتى اليوم قول الأمين لأحد القادة الفرنسيين الذي زاره في بيته «إن التاريخ لم يسجل أن القوة استطاعت الانتصار على الحق انتصاراً أبدياً، ولا بد للعرب في سورية من أن ينتصروا في النهاية بحقهم على قوتهم».

---

(١٣) لقاء مع الباحث حسن الأمين في بيروت عام ٢٠٠١.

أحب العلامة الأمين الشام، فقضى غالبية عمره فيها، وقد أتاها من النجف، وعاش نحو تسعين عاماً ليرحل سنة ١٣١٧ هـ الموافق لسنة ١٩٥٢م في بيروت ونقل جثمانه إلى دمشق ليدفن في صحن مقام السيدة زينب. ومثّل يوم تشييعه في سورية ولبنان يوماً للوحدة الوطنية وقدر صدر مرسوم جمهوري في سورية بمنح العلامة وسام استحقاق وضع على نعشه تخليداً لأعماله وخدماته الجليلة.

خرجنا وأنظارنا متجه إلى حسينية الأمين المجاورة للمنزل حيث كان السيد يعقد مجالسه، بالإضافة إلى مشاركته في المجالس التي تعقد في المنازل لمناقشة أمور الحي والمدرسة العلوية، حسب ما قاله الباحث حسن الأمين: «من الذكريات الجميلة في دمشق سهرات الأدوار في ليالي الشتاء، فكانت جماعة من أهل الحي تجتمع في بيت أحدهم في ليلة معينة من الأسبوع فيظل هؤلاء ينتقلون طوال فصل الشتاء، كل أسبوع في بيت حتى يكتمل الدور ليشمل كل أفراد الجماعة، وأدوار حي الخراب ثلاثة: دور للشيوخ والكهول وغالبيته من التجار، ودور للشبان من التجار أو أبنائهم، ودور لمحبي الثقافة والعلم، وقد خصص لهذا الدور يوم الأربعاء من كل أسبوع، حيث أنتج الدور الثالث الكثير من الشعر الظريف كان ناظموه الوالد وأديب التقي وأحمد صندوق»[١٤].

مضينا من دخلة الشرفا إلى زقاق المدار، كأننا نعبر المكان والزمان معاً. انتهت رحلة مائة عام، على أعتاب شارع الأمين

---

(١٤) **حل وترحال**، حسن الأمين.

الرئيسي، حيث شجرة سامقة تنتصب بذاكرة خضراء ترخي بظلالها على نهر من البشر؛ مواطنون دمشقيون وريفيون، طلبة وعمال، وربات بيوت، غرباء من إيران، والباكستان، والعراق، ولبنان. وزوار السيدة زينب رجال ملتحون، ونساء ملفعات بالسواد انتهين من التسوق بالحميدية ومدحت باشا ويجتزن شارع الأمين، في الطريق إلى ابن عساكر حيث حافلات السيدة تنتظر فيما الشمس آيلة للغياب.

المصادر

حل وترحال، للمؤلف حسن الأمين.

أعيان الشيعة.

سجن المزة .. تبادل أدوار

يعدّ سجن (المزة) من المعالم الشهيرة والمجهولة بالنسبة إلى العامة، وتدور حوله الكثير من القصص المخيفة. يتمركز بناء السجن على ربوة في قرية المزة القريبة من دمشق التي أصبحت اليوم ضاحية تابعة لها، تضم إلى جانب القسم القديم، منطقتين راقيتين: الفيلات الشرقية والفيلات الغربية، إضافة إلى منطقة نشأت على الهامش، واحتلت الجبل بأبنية خليط تجمع بين الهشاشة والمتانة، بنيت على عجل، وانضمت بذلك إلى سور الصفيح الذي يطوق دمشق من عدة جهات.

يقع السجن في نهاية الطلعة التي تبدأ من سوق خضر المزة وتمتد صعوداً إلى حيث يقبع ذلك البناء الذي استحق عن جدارة لقب سجن النخبة، لأن أغلب من دخلوه مثلوا النخب الحاكمة والمثقفة من الضباط ورجالات الأحزاب والسياسيين على مدى

عقود من التقلبات السياسية، بحيث مثّل إغلاقه بداية الألفية الثالثة طيَّ صفحة من تاريخ محتقن عبرت عنها عهود ما بعد الاستقلال، وغطت خمسة عقود من الصراعات السياسية والانقلابات العسكرية، ما فتح صفحات من ذكريات نزلاء سجن المزة، استعادوها بخفة ومرح وطرافة، لكن ضحكة مريرة لا بد أن ترتسم على وجوههم بألم لا يمكن إخفاؤه، وليبرز سؤال: هل ذلك الكابوس كان حقيقة؟

يتبع سجن المزة العسكري للشرطة العسكرية، وهو مؤلف من (٣٤) زنزانة فردية و(١٢) مهجعاً كبيراً و(٦) مهاجع صغيرة. وكان هناك زنزانة تسمى «الطومبو» أي القبر، مخصصة لشخص واحد، تتخذ تصميم القبور القديمة، بطول مترين وعرض ٨٠ سنتمتراً وارتفاع أربعة أمتار دون أية مرافق صحية أو خدمات. أما الزنزانات التي كانت تدعى «سيلول أبو ريحة» فتحتوي على مرحاض يزيد من رطوبة الزنزانة، بالإضافة إلى الرائحة الكريهة. تتسع هذه الزنزانة لشخصين ينام أحدهما على المصطبة والآخر على الأرض. وحين كانت تشتد حملة الاعتقالات، يوضع في الزنازين ضعف ما تستوعبه، وفي المهجع الذي يتسع أربعين شخصاً، يحشر فيه أكثر من ثمانين معتقلاً. الاستخدام الأكبر لهذا السجن كان خلال الاستعمار الفرنسي ثم خلال فترة الانقلابات، لاسيما خلال حكمي حسني الزعيم والعقيد أديب الشيشكلي.

السيلول أبو ريحة

محمد سهيل العشي الرجل العسكري الذي ساهم في عهد الاستقلال في بناء القوات المسلحة السورية وعمل في القصر الجمهوري في عهد الرئيس شكري القوتلي، ووزيراً للداخلية في

فترة الانفصال، تحدث عن تجربته في سجن المزة أثناء انقلاب حسني الزعيم والذي كان له الفضل في تحويله من سجن عسكري أيام الفرنسيين إلى سجن سياسي يدخله عتاة رجال السياسة.

يروي العشي لحظات اعتقاله: في حوالي الساعة الثالثة من صباح ٣٠ آذار ١٩٤٩، دهم بيتي خمسة رجال ملثمين ومسلحين برشاشات صوبوها نحوي بينما كنت في فراشي. اقتادوني في سيارة جيب، انطلقت بنا. هددتهم بالشكوى إلى فخامة الرئيس شكري القوتلي، فأجابوا لقد سبقك، أخذناه قبلك. عندما وصلنا سجن المزة، انفجرت أشتم الذي قام بالانقلاب، ولم أكن قد عرفته بعد، لكونه قام بعمل لم تقم به دولة فرنسا المغتصبة. بداية وضعت في سجن غرفة الحرس وأكرموني بكأس شاي، ثم تأكدت أن الرئيس القوتلي وخالد بك العظم والحكومة وآخرين في السجن مثلي. كذلك سمعت صوت فؤاد الشايب الأديب المعروف ومدير الدعاية والأنباء يهدد معتقليه بفخامة الرئيس، وهو لا يعلم أنه سبقه. لدى أول فسحة تنفس في باحة السجن، حيث كان الكلام ممنوعاً بين المعتقلين، رأيت بين المعتقلين المقدمين طالب الداغستاني ومحمد صفا. وسمعت همساً أن حسني الزعيم هو الذي قام بالانقلاب، وأن أول القادمين إلى السجن، كان فيصل العسلي الذي حلقوا شعره حتى فروة الرأس، ووضعوه في السجن المنفرد (السيلول) أبو ريحة.

في الأيام الأولى لاعتقاله رفض العشي أن يزوره أحد، إلى أن فتح عليه باب الغرفة العقيد جميل رمضان، دخل والدموع في عينيه، يسأله: حتى أنا يا سهيل؟ أجابه: طالما أنت مع هذا الانقلاب.. قال:

يا سهيل هذا الرجل (الزعيم) مجنون وفلتان، ماذا تريدنا أن نفعل؟

دام اعتقال العشي ثمانية عشر يوماً، وكان نصيبه أفضل بكثير من غيره، فقد وضع في غرفة مع سجين واحد، وهو نقيب متهم بالاختلاس، بدا له تائباً إلى الله يقرأ القرآن بصوت خفيض، فما كان من العشي إلا أن طلب منه رفع صوته وهو يقرأ عسى أن يكون الثواب مشتركاً.

من الأمور التي أدهشته في سجن المزة، اعتقال رجل مسن وبالغ الاحترام وهو أحمد اللحام الأمين العام لوزارة الدفاع ووضعه في (السيلول)!! يقول العشي، استنكرت أن يعامل هذا الرجل الوطني بمهانة، فطلبت من مدير السجن أن آخذ مكانه ويأخذ مكاني، فلم يعر طلبي اهتمامه. ومما أذكره من شخصيات في السجن أيضاً، ألماني ملتح عالم نباتات لم ندرك سبب وجوده في هذا المكان، جذب انتباهي اهتمامه بالنباتات والحشائش أثناء التنفس في الباحة الصغيرة للسجن، ولأن الكلام كان ممنوعاً بين السجناء، وعقوبة المخالف الحرمان من التنفس، دفعني فضولي لأسأله همساً عما يفعل؟ أجابني: إن التأمل في كل نبتة من تلك يجعلني أجد فيها سر الرب! ذلك كان سبباً في دهشتي، ولكن الدهشة الحقيقية هي من وجود حشائش، وربما الرب في مكان كهذا!!

ويضيف سهيل العشي: في تلك الفترة الوجيزة تعرفت إلى أجواء سجن شهد تاريخاً حافلاً بالعنف والقتل، ابتدأه حسني الزعيم بالاعتماد على رئيس الشرطة العسكرية إبراهيم الحسيني وهو حينها الذي اعتقل شكري القوتلي. وكان حسني الزعيم يهدد الناس به. وفي هذا السياق روى حادثة معروفة عن الزعيم عندما أعلمه مرافقه رياض كيلاني أن العلماء المشايخ الذين أعطيناهم

موعداً وصلوا. فقال له يا رياض، اترك الباب مفتوحاً، وأدخلهم عندما تسمعني أنهي مخابرتي الهاتفية. وكان العلماء يريدون رفع احتجاجهم على حفلات السينما المختلطة للرجال والنساء، فترك الكيلاني الباب مفتوحاً، وإذا بالزعيم يوهم سامعيه بأنه يتكلم مع إبراهيم الحسيني، وهو يقول: إبراهيم هيئ عشرين سريراً عندك فوراً. (وكان عدد العلماء عشرين). بعدما دخلوا، سألهم الزعيم عن مطالبهم. فأجابه أحدهم: «جايين نبارك لك لا أكثر ولا أقل». فشكرهم وتبادل معهم الحديث، ثم وقف قائلاً لهم: طيب مع السلامة. ولما أداروا ظهرهم للخروج رفع واسطة أصابع كفه يشيع الخارجين بها، وإذا بآخرهم يلتفت ليحييه، ففوجئ بقمقمة الزعيم الذي قال له: (هاي خصوصي إلك).

ومما يذكر عن الحسيني صاحب النزعة الانتقامية الرهيبة أنه عندما أوقف بتهمة قتل محمد ناصر، كُلف العقيد حسن العابد برئاسة الشرطة العسكرية، فجاء لتفقد سجن المزة التابع له، ولدى فتحه الملفات لاحظ أن بعض الأسماء لا وجود لأصحابها في السجن، فسأل المدير الذي أجابه: لا أعرف عليكم أن تسألوا إبراهيم الحسيني، فقصد العقيد العابد (السيلول) حيث إبراهيم الحسيني ليسأله، فكان رد الأخير: (لفها)!! فعاد العابد إلى مدير السجن، فأخبره أن إبراهيم الحسيني كان يقتاد البعض من المغضوب عليهم في سيارة جيب إلى الصحراء وهناك يقتلهم ويدفنهم، وكأنه بذلك يترجم توجيهات تصله بتدبر أمر هؤلاء بمعرفته، ومعرفته طبعاً كانت تقتضي التصفية الجسدية!! أما وثوقية هذا الكلام فلم يؤكدها سهيل العشي رحمه الله، كما يفعل الكثيرون لدى إعادتهم سرد تفاصيل الماضي النائية عن الشهود عندما يغيّب القانون.

قتلوا الزعيم

وصال فرحة بكداش، الأمينة العامة للحزب الشيوعي السوري، تسرد في حديث صحفي وقائع اعتقالها أثناء حكم الزعيم: في تلك الفترة اعتُقل مئات الشيوعيين من أنحاء سورية كلها، حيث تعرضوا لتعذيب جسدي فظيع كاقتلاع الأظافر والصدمات الكهربائية.. وآخر شيء توصلوا إليه هو إجبار المعتقلين على حفر خنادق حول السجن قائلين لهم، إنها ستكون قبوراً لكم .. أعلن رفاقنا في السجن إضرابهم عن الطعام. ولما سمعنا بذلك شكلنا نحن النساء الشيوعيات وأهالي المعتقلين وفوداً لإعلان الاحتجاج على المعاملة السيئة، فاعتُقلت ٤٠ امرأة أثناء التظاهرة وبعد التصفية بقينا نحن الثلاث عفاف ملا رسول، وليندا نعنع وأنا. جاء إبراهيم الحسيني وأخذنا بسيارته مساءً إلى سجن المزة، وأدخلونا إلى مهجع كبير حيث رفاقنا وقالوا لهم، إن الآنسات جئن للاطمئنان عليكم. فانبرى أحد الرفاق قائلاً، هذا غير صحيح نعرف أنهن معتقلات وهذا شرف لنا، بعدها أنزلونا في زنزانة منفردة عرضها متر ونصف وطولها متران فيها مصطبتان على كل واحدة بطانيتان وبين المصطبتين فراش قش نمت عليه. وفي ما بعد علمنا أن هذه الزنزانة تدعى (أبو ريحة) لرائحتها الكريهة جداً، من جراء وجود المرحاض فيها، وكانت زنزانتنا تجاور زنزانتي ميشيل عفلق وفيصل العسلي.

تتابع السيدة وصال فرحة: منذ دخولنا الزنزانة أعلنا الإضراب عن الطعام، وحين كنا نائمين بعد يوم مضن من التعب، سمعنا صوت إطلاق رصاص، فصرخت ليندا: لقد قتلوا الزعيم. قلت لها: نامي إنها مجرد ضوضاء. صباحاً جاء مدير السجن عزت حسين وقدم

لنا الطعام فرفضناه، مع أنه أخبرنا أن الطعام من بيته. كان الاعتقال في ٣ آب وبقينا ثلاثة أيام دون طعام. في اليوم الثالث كنا ننظر من فتحة الباب، فمر فيصل العسلي لابساً عباءة سوداء، وخاطبني باللغة الفرنسية حتى لا يفهم الآخرون قائلاً: لماذا تضربون عن الطعام والكلب فطس؟ سألته من يكون الكلب؟! فأجاب: قتلوا حسني الزعيم.

يمهل ولا يهمل

بين جدارن سجن المزة يبدو الحديث عن حقوق السجين وقوة القانون ساذجاً، لأن المسوغ لدخوله هو غضب الممسك دفة الحكم، وبما أن الزبائن كثر، اضطروا لبناء زنزانات إضافية لاستيعاب ضحايا طغيان يتفاقم ويتسع، وعندما دارت الدوائر، كانت من نصيب من بنوها، لم يتوقعوا أنهم سيحلون ضيوفاً فيها، وربما لو خطر ذلك على بالهم لجعلوا من تلك الغرف مكاتب وقصوراً فاخرة.

عبد الحميد السراج رجل الاستخبارات المرعب، ورمز البطش أيام الوحدة، كان من هؤلاء الذين أعلوا صرح الاستبداد، فحل نزيلاً عليه في عهد حكومة الانفصال، فكان حدث اعتقاله في سجن المزة بحد ذاته مدعاة للشعور بالأمان والتسليم بأن الله أكبر ولا شيء يدوم غير وجهه، حتى أشد الناس إلحاداً مثل نصوح الغفري الشيوعي المعروف خرّ ساجداً يسبح بحمده، عندما رأى عبد الحميد السراج داخلاً السجن بعد انفصال سورية عن مصر سنة ١٩٦١. العدالة السماوية تحققت؛ الله يمهل ولا يهمل.

إلا أن السراج لم يمكث طويلاً في السجن، وتمكن من الفرار

بمساعدة الرقيب منصور الرواشدة أحد حراس السجن الذي هرب معه إلى لبنان، حيث كان بانتظاره في بيروت سامي شرف مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر، ومن هناك نُقل بطائرة خاصة إلى القاهرة[١٥].

أما سامي جمعة وهو من الشخصيات المعروفة في جهاز الاستخبارات السوري في الخمسينيات والستينيات، فقد عاصر سجن المزة سجيناً وسجاناً. فعندما كان سجاناً بنى غرفاً في سجن المزة لتتسع للقوميين السوريين المتهمين آنذاك بقتل عدنان المالكي في أواسط الخمسينيات، ومارس دور المحقق مع العديد من السياسيين طيلة فترة الوحدة التي امتدت ثلاث سنوات، وعندما اعتقل في زمن الانفصال مع ذوي الاتجاه القومي العربي والوحدويين، كان ينام بين العماد مصطفى طلاس وعدنان دباغ وإلى جانبهما حافظ الأسد، ويأكلون معاً في مهجع رقم أربعة في الطبقة العلوية التي بناها مع رئيسه السابق عبد الحميد السراج، ومكث هناك مدة عام كامل. ويذكر سامي جمعة أن الرائد أحمد زهير العادلي حقق معه، وكان يعاونه توفيق صالحة الذي صار في ما بعد عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، ومثله شتيوي سيفو الذي أدى دور المحقق مع المعتقلين البعثيين، ثم صار وزيراً في حكومتهم بعد تسلمهم مقاليد الحكم عام ١٩٧٠[١٦].

العماد مصطفى طلاس يروي في مذكراته عن سجن المزة: لدى مرورنا بمكتب مدير السجن، جرّدونا من أدوات الكتابة والكتب

---

(١٥) حوار مع العشي عام ٢٠٠٣.

(١٦) مذكرات سامي جمعة.

والوسائط المادية، ودخلنا المنفردة رقم /٩/ على نظافة. كان التعذيب الجسدي هو الوسيلة الأكثر استعمالاً في السجن، وقد وصلت إلى هذه النتيجة من سماعي الشخصي لأصوات الرفاق الذين تعرضوا لهذه المحنة القاسية، ومن كلامهم المباشر في لقاءات عابرة معهم. لا يمكن وصف المعاناة التي كنا نشعر بها في تلك اللحظات. لم أكن أصدق أن جسم الإنسان يمكن أن يتحمل هذا النوع من العذاب، ففي إحدى المرات انهال السجانون ضرباً بالعصا والكرابيج على الضابط صبحي رشيد، وكان في الطابق السفلي، وتعالت صرخات الاستغاثة بكل اللغات واللهجات، لكن السجانين لم يأبهوا لذلك، واستمروا في عملهم قرابة الساعة حتى أنهكوا، وأصبحت الضحية جثة لا حراك فيها. وفي اليوم التالي فوجئت بهذا الضابط يتنفس أمام ساحة مدير السجن، وكان يضع منشفة على رأسه تقيه من حر الشمس، سألته صبحي: أنت الذي تعرض للضرب البارحة؟ وأشار إليّ بطرف يده التي وضعها قرب رأسه: أي نعم. ولم أصدق أنا ولا رفاقي الذين كانوا معي في الغرفة ذلك مطلقاً، وأصبنا بالدهشة لأن الضرب الذي تلقاه كان كافياً لقتل ثور إسباني. يتابع العماد طلاس سرد مفارقات السجن: المفاجأة كانت عندما وضعت أسلاك الكهرباء على رجلي أحد رجال البدو، ولما دار المولد لم تصل الكهرباء إلى جسمه لأنه كان حافياً ورجلاه كخفي البعير، الأمر الذي أرغم إدارة السجن أن تفتش عن أساليب أخرى، فعادت إلى استعمال الضرب الجسدي من جديد[١٧].

ولعل التعذيب عندما يبلغ حد الهوس يرقى لمستويات الإبداع

---

(١٧) مذكرات العماد مصطفى طلاس.

ويتحول ليكون فناً من أبشع ما يكون، فالسجان الذي استنفد كل وسائله في التعذيب لا يقف عند حد، يعمد إلى الابتكار. ومما رواه العماد طلاس في مذاكراته أيضاً عن تلك الابتكارات أن أحد السجانين ربط صياح عامر من عضوه التناسلي بسلك هاتف وأخذ يجره خلفه كما يجر الراعي البعير..

شهد سجن المزة ابتكارات لأنواع كثيرة من التعذيب، أسوة بأي سجن آخر، وربما لم يتميز عليه في هذا الفن سوى سجن تدمر. والطريف إذا كان ثمة طرافة أن الضحية والجلاد كثيراً ما تبادلا الأدوار، دون أن يطرأ تغيير على درجة ممارسة العنف، بل كانت أقسى، وكأنما هو الانتقام المتستر بالمصلحة العليا، والتي باسمها ارتكبت الكثير من الحماقات والمآسي. وكان السجين والسجان كلاهما منتهكين، الأول لتعرضه للإهانة والإذلال كأي حشرة غير جديرة بالحياة، والثاني لممارسته سلوكاً وحشياً يجرده من أي معنى إنساني تحت ضغط الأوامر، الأول شعوره بالظلم يسحق الجسد ويقوي الروح، والثاني شعوره بالرضوخ للأوامر يقوي الجسد ويسحق الروح، فيستبد أكثر ويتمادى في استبداده، فالأوامر التي تصله صغيرة تكبر تحت سياطه، ولا تعود تشفي غليله صرخات المعذب حتى يخمدها الألم أو الموت[١٨].

سجن المزة آل إلى الماضي إلا أن أرواح من دخلوه ما زالت تحوم على رابية كانت شاهداً صامتاً على صراع تسبب بكثير من الفجائع.

---

(١٨) **شاهد من المخابرات السورية**، فوزي الشعيبي، دار رياض نجيب الريس.

مقاهي دمشق من (الروضة) و(أبو حشيش) إلى (روتانا)

لو أن الدمشقي محمد سعيد القاسمي رأى المقاهي التي تنتشر كالفطر سريعاً في مدينة دمشق، لأعاد النظر في ما قاله في كتابه الذي يوثق للمهن الدمشقية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذي وصف فيه ارتياد المقاهي بالعادة المرذولة، تبلغ حد الذم الشديد... و«لا يدخل القهاوي من كان به شهامة أو عقل أو دين».

غير أن للمقاهي الحديثة صورة جذابة، بديكوراتها المبتكرة المتنوعة والمتعددة تعدد الأمزجة وبأجوائها المختلطة وتنوع روادها حسب مستوياتهم الاجتماعية، ما يغري بالإدمان عليها لتمضية بعض الوقت ولقاء الأصدقاء، فما بالنا في مدينة كدمشق يعشق أهلها التنزه، حتى يكادون أن يقدسوا نزهة يوم الجمعة، أو ما

تعارفوا عليه بـ(السيران) كطقس متوارث وأصيل، للترويح عن النفس خارج روتين الحياة اليومية والاستمتاع مع الأسرة، وهو طقس يلتزم به الفقير والثري على حد سواء، ولكل سيرانه، فأبناء الطبقات الميسورة يرتادون المطاعم الفخمة خارج المدينة، والفقراء يفترشون الأرض على جانبي طريق المطار أو سفح قاسيون. ففي مجتمع كهذا ميال للتنزه وشم الهواء، ولو على الرصيف، يبدو ارتياد الشباب للمقاهي أشبه بالولع.

قديماً رأى الدمشقيون المقهى «مكاناً طبيعياً للقاء الخلان من العامة وتواضعاً في ارتيادها من قبل الوجهاء من الخاصة»، إذ يذكر البديري الحلاق في أحداث ١٧٥٧: أن الشيخ إبراهيم الجباوي «قد بلغ جاهاً عظيماً مع تواضع كلي بحيث يجلس بالقهاوي». منذ ذلك الزمن وإلى ما قبل الأربعينيات، اقتصر ارتياد المقاهي على الحرفيين وأبناء البلدان العربية وأبناء القوميات غير العربية المقيمين في دمشق، كذلك المحافظات الأخرى والمناطق النائية. فكانت هناك مقاه خاصة بأبناء البلد أو الحي، ومنها ما هو خاص بحرفة دون سواها كمقاهي اللحامين والنجارين، إلى جانب مقاه أخرى للانكشارية اليرلية والقابي قول، والمقاهي الخاصة بالجنود المرتزقة التي توضع على عتباتها شاراتهم الخاصة. وبعضها كان ملاذاً لكل من يلجأ إليها، فيحميه روادها مهما كانت فعلته، حتى لو أنها جريمة، وقد اشتهر منها مقهى «خبيني» الذي ظل قائماً حتى بدايات القرن العشرين في منطقة الحجاز.

مع بداية القرن العشرين والتطورات التي طرأت على المجتمع الدمشقي راحت المقاهي تنتشر على ضفاف فروع نهر بردى المتغلغلة في الأحياء الدمشقية، ففي العشرينيات ولغاية

الخمسينيات، كان شارع العابد وشارع بغداد وسط مدينة دمشق يغصان بها وأشهرها «اللونابارك» الذي سمّي في ما بعد «الرشيد» وظل حتى الخمسينيات، وكان مسرحاً صيفياً، يقدم أيضاً الأفلام السينمائية، وكثيراً ما تحول مسرحه إلى منبر للحفلات الخطابية السياسية والانتخابية؛ وأيضاً، مقهى «الفاروق» و«الزهور» و«الأزبكية» وغيرها، وكان روادها من طلاب المدارس، فبعد أن يدخنوا الأركيلة ويشربوا الشاي والقهوة، يذهبون إلى نادي بردى لكرة القدم الموجود في الشارع نفسه.

مرحلة ذهبية

شهدت مقاهي دمشق مرحلة ذهبية أواخر الأربعينيات مروراً بالخمسينيات والستينيات، من حيث تحولها من مجرد أماكن للتسلية والترويح عن النفس إلى أماكن تجمع السياسيين والمثقفين والصحافيين ونخبة المجتمع الدمشقي. وكان لبعضها دور هام خلال فترة شهدت تصاعد المد القومي والحراك السياسي بعد الاستقلال؛ ففي مقهى الرشيد عقد المؤتمر التأسيسي لحزب البعث في جمع ضم نحو مائتين من المثقفين والأساتذة والأطباء والطلبة وأعلن فيه عن قيام حزب البعث العربي في نيسان ١٩٤٧. أما مقهى الطاحونة الحمراء فقد كان يكتظ صباحاً بلفيف من صحافيي «الأيام» و«القبس» والصحف الأخرى إلى جانب عدد من النواب، وفي المساء كان المشهد السياسي أكثر وضوحاً في مقهى البرازيل حيث يجتمع السياسيون العتاة والوزراء السابقون واللاحقون وظرفاء مخضرمون يتندرون على الجميع دون استثناء. وعلى الرصيف المقابل ينعكس المشهد ذاته في الهافانا فيتقاسم الطاولات شباب من أحزاب مختلفة كالاشتراكي التعاوني، والبعث العربي،

والعربي الاشتراكي والشيوعي.. إلخ، ترسم الأحاديث المتناثرة في فضاءات تلك المقاهي الصورة الخلفية للأحداث الجارية سواء في وقائع الجلسات البرلمانية أو قضايا الجيش وأخبار الضباط والحكومة وأعضائها من رئيس الوزراء إلى الوزراء والأمناء العامين، وأكثر ما تمحورت حول قضية فلسطين وحرب الـ ١٩٤٨ والسياسات العربية المتخاذلة، لتصاغ من هناك أهم المناشيتات الكبرى والمعارك الصحافية والزوابع والشائعات التي كانت تسبق كل انقلاب وتبشر به، وكانت المقاهي أول من يتأثر بحدوثه فتخلو من الزبائن، وإذ يعيش البلد ساعات من الصمت المنذر بالبلاغات العسكرية، يتحول صخب المقاهي إلى استكانة كتلك التي تعقب آلام المخاض، وما الانقلاب سوى احتمال تحقق من احتمالات كثيرة تداولها الرواد مراراً مع تكهناتهم للمخططات والاتفاقات السرية والمؤامرات المشبوهة المحاكة في كواليس الحكومات والسفارات الأجنبية، تلمح إليها الصحف الدمشقية التي تعود لمزاولة نشاطها بعد مرور العاصفة، ومعها يعود الأنس إلى المقاهي وتجتمع وجوه قديمة وأخرى جديدة يمثل حضورها صعود تيار وهبوط آخر وهكذا، فكان السابقون يتندرون على المخفقين، ممن حلوا ضيوفاً إما على السجون أو زبائن على المقاهي، ليعودوا من جديد إلى تحليل ما جرى والتنبؤ بأسماء التشكيلة الوزارية القادمة. في تلك الفترة كان الدمشقيون يقولون عمن تمنح له حقيبة وزارية إن الحكومة تضع له في الحقيبة نفسها بيجاما وشحاطة وفرشاة أسنان، لوازم السجن، متنبئين بسقوطها الذي كانوا يرونه وشيكاً دائماً، وأحياناً أسرع من المتوقع.

مقاهٍ بلا سياسيين

مشهد المقاهي الدمشقية والسورية عموماً، تغير في العقود الثلاثة

الأخيرة من القرن العشرين فلم يعد السياسيون من الحزبيين والوزراء الحاليين والسابقين من روادها، ولا المراسلون وصحافيو الشؤون السياسة من الواصلين إلى بواطن الأمور. باتت المقاهي تقتصر على المتقاعدين والعاطلين من العمل إلى جانب المثقفين والصحافيين المهتمين بالشأن الثقافي، ولم نعد نلمح في زوايا الهافانا مثقفاً مثل صدقي إسماعيل الذي كان يكتب صحيفته (الكلب) الساخرة بخط اليد، ومن ثم يستنسخها الأصدقاء ليستمتعوا بالشعر الحلمنتيشي وهو يعرض أحوال البلد والسياسيين، ولا أديب وسياسي مخضرم مثل الدكتور عبد السلام العجيلي يتناقش في الأدب والسياسة ـ وربما في القصة التي يرويها العجيلي في كتابه (ذكريات أيام السياسة) ما يعطي فكرة عما كانت عليه المقاهي في الستينيات وهي، أنه حين كان وزيراً للخارجية في حكومة الانفصال، دُعي إلى بيت السفير الإيراني في دمشق، وقد تساءل السفير عن صحة ما يقال عنه (العجيلي) حينما كان طالباً في دمشق، بأنه كان يتردد على مقهى ثقافي معين، ولم يغير عادته بعدما أصبح وزيراً للخارجية، ما زال يجلس في المقهى ويتناول القهوة مع أصدقائه!! يقول العجيلي: لم أملك إلا أن أبتسم لهذا السؤال الذي طرحه محدثي باهتمام فائق. المقهى الذي كان يعنيه هو مقهى البرازيل، وكنت من رواده المخلصين منذ أيام دراستي الطب، وظللت كذلك حين عدت إلى عاصمة بلادنا عضواً في المجلس النيابي، ثم في زياراتي المتكررة لدمشق، وحين كلفت بالوزارة كانت إقامتي في الأشهر الأولى في فندق سمير أميس على ضفة بردى. كنت أستفيق على عادتي باكراً، وأخرج من الفندق قبل موعد دوام الموظفين العاديين في الوزارة، فكيف بالوزير نفسه، ولما كان مقهى البرازيل على بعد خطوات قليلة من فندقي، فقد كنت أتجه إليه في الصباح

وألتقي فيه مع قدامى الأصحاب متحدثين أحاديثنا السالفة ومستعيدين الذكريات القديمة، إلى أن أرى أنه قد حان موعد ذهابي إلى الوزارة، فأعود إلى الفندق لتقلني سيارتي الرسمية إلى عملي الرسمي. ويتابع العجيلي: كنت أفعل هذا الذي قلته بعفوية، ودون أن أدرك أن أحداً يأخذ له أهمية، أو يوليه انتباهاً.

مقهى البرازيل زال، كذلك مقاهي شارع العابد آلت إلى المصير نفسه، عدا مقهى الروضة الذي صار ملاذاً للمثقفين يجتمعون فيه للثرثرة ولتقرير مكان لقائهم المسائي، حول كأس عرق أو بيرة في خمارة فريدي في زقاق العابد، أو قصر البلور في باب توما، أو نادي الصحافيين في العفيف، وربما مطعم الريس في ساحة المحافظة، أو مطعم «رابطة المحاربين القدماء» إذا كانت الجلسة على قد الحال. أما إذا كان الطموح لسهرة أو غداء عامر فيذهب الاختيار نحو الربوة مطعم «الشعار» أو دمر مطعم «السمر»، أو بارات ومطاعم باب توما الشبابية الجديدة «مرمر» و«نينار».

البحث عن مقهى

في الوقت الذي يمتلئ فيه مقهى الروضة بالمثقفين والصحافيين وبالأخص وقت الظهيرة، يكاد مقهى الهافانا يخلو من زبائنه المعهودين، معتمداً على الزبائن العابرين أو بعض زبائن أيام زمان، ربما لأن أسعار المشروبات في الهافانا ساهم في إقصاء المثقفين عنه، بينما يجذب مقهى الروضة بأسعاره الشعبية غالبية الزبائن، كما هو أيضاً مقهى الكمال، مع فارق أن الأول يعد بؤرة للشلل الثقافية. بينما يذهب الميسورون من المثقفين وغالباً من العاملين في مجال التلفزيون والسينما إلى مقهى البرازيل في فندق الشام الخمس نجوم، حيث تُعقد اللقاءات والحوارات الصحافية كما

اتفاقات العمل بين الشلل الفنية التي تجمع النساء والرجال معاً، ولعل نادي الصحافيين في العفيف الذي هو مطعم ومقهى؛ المكان الوحيد في دمشق الذي يجمع المثقفين بكافة شرائحهم فقراء وميسورين، رجالاً ونساء، شباباً وكهولاً، يجمعهم الاهتمام بالثقافة والفن، وقد تزايد الإقبال عليه في السنوات الأخيرة بعدما أولاه اتحاد الصحافيين الاهتمام ليسد الفراغ الذي أحدثه منع تقديم المشروبات الروحية في صالة الرواق العربي التابعة لنقابة الفنون الجميلة، وكان يؤمه ولسنوات طويلة الفنانون التشكيليون وأصدقاؤهم، وهذان المكانان يشكلان استثناء في إقبال النساء من الصحافيات والمثقفات والكاتبات الشابات، إلا أن التغييرات التي طرأت على الرواق جاءت لصالح نادي الصحافيين، ومقهى عالبال في دمشق القديمة، فضلاً عن مقهى النوفرة الشعبي الذي ما فتئ يجدد شبابه، في أكثر المواقع حيوية في قلب المدينة القديمة، وعنده لا بد من وقفة خاصة، مع تحوله إلى أحد أهم المقاهي التي تجمع صفتي الشعبية والسياحية معاً، نظراً لموقعه في قلب المدينة القديمة خلف الجامع الأموي وقريباً من سوق الحميدية الشهير، هناك حيث ينساب الزمن بخفة من الماضي إلى الحاضر. فنرى الشابات والشبان، وأهل الحي والسياح والمتسوقين، يجلسون كتفاً إلى كتف في حي شعبي، ما زال شيوخه يذكرون زمناً كان فيه دخول المقهى حكراً على الرجال. بينما اليوم تجلس النساء مع الرجال يدخنّ الأركيلة في الشارع، ويستمتعن بأمسيات الحكواتي، بين أذان المغرب والعشاء، أو بعد الإفطار في رمضان، بالإضافة الى المثقفين والفنانين، يقصدون النوفرة للاستفادة من مكانته السياحية في عرض لوحاتهم التشكيلية، ولقاء السياح.

التغيير أو التغييرات الكثيرة المتلاحقة التي طرأت على الداخل السوري سياسياً واقتصادياً منذ تسلم الرئيس بشار الأسد الحكم عام ٢٠٠٠، انعكست على كل مناحي الحياة، فبعد عقود من التقشف الاشتراكي والتجهم الأيديولوجي، عادت الحياة الدمشقية لتضج بالصخب الشبابي، تمظهر في الانتشار السريع لمظاهر الاستهلاك وملاحقته وفق النمط المعاصر أو المعولم. كما لعبت الضغوط الدولية التي تعرضت لها سورية عام ٢٠٠٥ والانسحاب السوري من لبنان، دوراً أساسياً في عودة جزء كبير من الأموال السورية المهاجرة، لتتدفق في مشاريع خدمية متميزة راحت تغري المجتمع السوري بتجديد شبابه وتغيير نمط حياته رغم ارتفاع الأسعار وتدني الدخل. وراحت المطاعم والمقاهي الحديثة تستقطب الفئات الاجتماعية المتوسطة وما فوق، أما ما تحت فقد بقيت على حالها ترتاد المقاهي الشعبية المعروفة.. وهكذا عاد الشباب ذكوراً وإناثاً إلى المقاهي الحديثة والقديمة من أوسع أبوابها، فتراهم في مقهى (الروضة) في شارع العابد إلى جانب المثقفين والمتقاعدين، وفي مقهى ابو حشيش بالمرجة يشغلون كراسيهم المجاورة للقادمين من المحافظات البعيدة والمتعبين من عيادة طبيب، أو مراجعة المحاكم. كما تراهم في (الكوستا) والـ(إن هاوس) في أبي رمانة والقصاع والـ(الأوديون) و(سهارى) في المزة مع أقرانهم من الناشئة والشباب يفردون أجهزة الكومبيوتر المحمول أمامهم يذاكرون دروسهم، أو يتصفحون الإنترنت، ويتبادلون مقاطع البلوتوث، ومنهم من يبحث عن صورته في المجلات الاجتماعية الكثيرة التي صدرت في السنوات الثمانية الأخيرة في دمشق ليالينا ـ سوريانا ـ كلاس ـ موضة وناس ... إلخ من مجلات بطباعة أنيقة، خصصت قسماً كبيراً من صفحاتها لالتقاط صور مرتادي المقاهي والمطاعم الحديثة.

ولا يحتاج المرء لكثير من التمحيص في هذا المشهد للتعرف على عملية الفرز الجارية في المجتمع السوري وفق مستوى الدخل، وإذا كانت المقاهي الدمشقية في الخمسينيات والستينيات تظهر التعدد السياسي بحيث يفضل كل تيار أو حزب مقهى دون آخر للاجتماع، فإن غياب النشاط السياسي عن الشارع، جعل المقاهي اليوم تظهر تباين المستوى المعيشي، إن تجنبنا استخدام تعبير «الطبقي»، كما تُظهر تفاوت النظرة للحياة بين فرد وآخر ينتميان لأسرة واحدة. وقد تتحول المقاهي من أماكن للارتياح وتغيير الجو إلى مكان لاصطياد الفرص والتعرف إلى أجواء النخب، المتعددة من أبناء الأسر العريقة إلى أهل البزنس والفن، وكل حسب اهتماماته، فمن يرتاد مقاهى (تراتوريا) و(سهارى) و(الأوديون) و(الداون تاون) والـ (إن هاوس) والـ(كوستا) أغلبهم من موظفي الشركات الخاصة وطلاب الجامعات وأصحاب الأعمال من متوسطي الدخل، وهم يختلفون عن مرتادي مقهى مثل (روتانا) بجانب فندق الفور سيزن الذي تتسم أجواؤه بالاستعراض، الأقرب إلى أجواء استوديوهات القنوات الفنية. وهذا بحد ذاته يشكل متعة للبعض، لما يمنحه من شعور ولو مؤقتاً الانتماء إلى طبقة النجوم المترفة، عدا الفرص التي قد تتيحها هذه الأماكن للباحثين عن علاقات عامة وخاصة ذات مستوى معين.

فيما يرحل الشباب من ذوي الدخل المتدني الى المقاهي الشعبية مثل النوفرة ومقاهي ساروجة التي راحت تحسن أجواءها مع مسحة ثقافية راقية كبث أغاني فيروز على مدار الساعة واستقطاب السياح مع الحفاظ على تسعيرة معقولة، أو مقهى الروضة الشهير وسط دمشق الذي اشتهر باستقطاب المثقفين والبرلمانيين، أو مقاهي الحجاز والمرجة التي حافظت على خصوصيتها الشعبية من

ناحية تدني مستوى الخدمة والسعر معاً، ما يجعلها من المقاهي المكتظة دائما، وخاصة أوقات الظهيرة. بل أنها هي المقاهي بمعناها وأجواءها الكلاسيكية.

تجريب المقاهي بمختلف مستوياتها ومراقبة ما يظهر حديثا منها، باتت عادة لدى البعض لما تحمله من فرصة لاكتشاف تبدل أحوال المجتمع فمن مقهى (الروضة) و(أبو حشيش) إلى مقهى (روتانا)، بالإمكان قراءة ما طرأ على المشهد الدمشقي من تحولات خلال العقد الأخير، انعكست على المجتمع وعاداته، وقد بات واضحا أن لكل مجموعة من المقاهي أهلها وروادها بكل ما يعنيه ذلك من علاقات اجتماعية واقتصادية، كانعكاس طبيعي لسياسة الانفتاح الاقتصادي التي فتحت الباب أمام سلاسل المقاهي العالمية للدخول إلى دمشق وإضفاء تلك المسحة التجميلية العولمية على وجهها العريق، أخفت التجاعيد لكنها لم تعد إليه الشباب.

المصادر

ـ **قاموس الصناعات الدمشقية**، محمد سعيد القاسمي، دار طلاس.

ـ **يوميات دمشق**، البديري الحلاق.

ـ **ذكريات أيام السياسة**، عبد السلام العجيلي، دار رياض نجيب الريس بيروت.

ـ رواية **تياترو**، فواز حداد.

السهر في دمشق

من يشاهد المطاعم الحديثة، الضخمة والفخمة، في محيط مدينة دمشق في أمسيات الصيف الجميلة، يظن من فرط اكتظاظها بالبشر أن أهل المدينة جميعهم خرجوا يسهرون في هذه الأماكن الواسعة المضاءة بالأنوار الملونة، فمن مطاعم صيدنايا إلى الزبداني وحتى طريق المطار، محلات تتسع لآلاف الساهرين... وطاولات عامرة بما لذ وطاب من المطبخ الشرقي والغربي، صيني ومكسيكي وهندي وإيطالي... إلخ، وكل ما يخطر وما لا يخطر على بال، فالمحلات التي كانت تعد على أصابع اليد الواحدة في مدينة دمشق، صارت بالعشرات في السنوات الأخيرة، فيما استأثرت العاصمة ومحيطها بثلث سكان سورية؛ نحو ستة ملايين نسمة.

ما بين العقود الأولى من القرن الماضي والعقد الأول من القرن

الواحد والعشرين، تغير المجتمع الدمشقي رغم محاولاته التمسك بطابعه التقليدي المحافظ، فالتوسع الكبير في المدينة جعل من الريف المحيط بها امتداداً لها، وصارت أمواج المتوافدين من المحافظات والبلدان المجاورة كالفلسطينيين والعراقيين جزءاً من النسيج الدمشقي، وتمازجت العادات والتقاليد الاجتماعية، فلم يعد هناك مجتمع دمشقي بالمعنى النقي للكلمة، بل مجتمع مدينة كبرى تندمج بين جنباتها أطياف من الأجناس والأديان والقوميات، مجتمع يجدد نفسه مع كل تغيير اقتصادي أو سياسي، فتسقط عادات وتظهر أخرى.

ماضي السهر واللهو

وإذا عدنا إلى ماضي المجتمع الدمشقي، كما كتب عنه أبناؤه، ندرك كم أصبحت المسافة بين اليوم والأمس بعيدة، وكم من العادات انقرضت، وبالأخص في مجال الترفيه والترويح عن النفس الذي غالباً كان باجتماع للعائلة والجيران، واللهو بألعاب وأحاجي وتبادل النكات. فعندما تتحدث سهام ترجمان في كتابها (يامال الشام) عن السهرات لا نعثر بين ذكرياتها على اسم مطعم كبير أو ملهى، بل نستمتع بوصفها الشاعري الرقيق المشهّي لتلك السهرات، وكيف كان والداها يعدّان لوازم السهرة قبل وصول المدعوين من الأخوال والأعمام فتقول: على المدفأة، تُحمَّر صينية الكنافة البصمة وتشوى عند باب المدفأة، وعلى «الصفوة» الساخنة حبات الكستناء، وفوق طرف «المنقل» النحاسي، بين الجمر الأحمر والرماد الحار، تستكين «ركوة» القهوة، وعند طرف الغرفة وعلى «الكتبية» تصطف بعناية صحون البرتقال واليوسف أفندي والبزر والقضامة واللوز والبندق وفستق العبيد وفستق الحلبي

والزبيب والجوز والتين اليابس. ليست وليمة كما يبدو .. إنها مآكل خفيفة لتسلية السهرة والساهرين في ليلة جمعة». بالإضافة إلى المآكل، هناك الألعاب كالبرجيس التي تقسم الحضور إلى فريقين، فلعبة «سلطة» يتعرض الخاسر فيها إلى أحكام طريفة مثل أن يصيح كالديك، أو الوقوف مثل شماعة للألبسة والأحذية، فضلاً عن النكات ورواية القصص الطريفة من قبل أشخاص خفيفي الظل لا بد من وجودهم في أجواء كهذه يبتكر فيها المرح والابتهاج لينبع من الداخل، دون مؤثرات خارجية قد تفلح بتأمين كل الأشياء المفتقدة إلا الفرح. وكان للموسيقى نصيب في سهرات الأيام الخوالي، فيحضر العود، وتنطلق الألحان. كما للشعر حصة في مباريات ساخنة يعرض فيها الحضور محفوظاتهم من القصائد. زمن ضيّق لكن لا حدود فيه لابتكار وسائل ترفيه وتنكيت تلائمه، قد لا تنتهي بوضع قائمة بأسماء الذين استوفوا شروط مغادرة الحياة الدنيا من المسنين، ليستمر الضحك والهذر حتى آخر الليل، ثم ينفضّ الساهرون وقد تزود كل منهم بنصيب من البهجة تكفيه لأسبوع موعد السهرة المقبلة في بيت آخر، فقد كانت السهرات تعقد بالدور كل أسبوع عند عائلة، وبدورها كل عائلة تتباهى بما لديها من مآكل وأوان ووسائل تجعل السهرة أحلى.

عدا دورة الأدوار لعقد السهرات العائلية والاستقبالات النسائية، كانت هناك دورة لأدوار لأصحاب الحرف، أو أي جماعات أخرى يرتبط أفرادها برابط ما، حيث كانوا يلتقون أسبوعياً خلال ليالي الشتاء في موعد محدد وكل مرة في بيت. بالإضافة إلى التسلية كانت يتبادلون الأخبار ويناقشون الأحوال الخاصة بالحرفة. لم يكن الترفيه نشاطاً عاماً يشارك فيه الغرباء، بل نشاطاً خاصاً جداً، غير خاضع للفرز الطبقي، فكل جماعة متقاربة متجانسة

بإمكانها قضاء وقت ممتع، دون إحساس بالخسارة المادية.

في العقود الأولى من القرن الماضي لم تكن الملاهي معروفة في دمشق[١٩] إلا تلك المخصصة للرواد الفرنسيين والأجانب وبعض الدمشقيين المتطبعين بطباع الغرب، ومنهم من كان يقصد بيروت لارتياد ملاهيها ليل الخميس والجمعة، فيجدون هناك ما لا أثر له في دمشق. أما المطاعم فكانت محدودة وتقدم المآكل المحلية ومن أشهرها (مطعم أسدية) و(مطعم الأمراء) في سوق الحميدية السوق الوحيد الذي يمكن فيه مشاهدة النساء في الأماكن العامة، يتناولون البوظة في محال (بكداش) بعد جولتهم في السوق.

كذلك لم يكن السهر ميداناً لتشبيك معقّد للعلاقات بين المجالين العام والخاص كما هو سائد الآن، وقبل أن تبدأ بعض العائلات الدمشقية في العشرينيات من القرن الماضي بالسماح بأن يكون السهر مشتركاً بين نساء العائلة الواحدة ورجالها، كان دور الاستقبال (وهو يوم تخصصه كبيرة العائلة لاستقبال الأهل والمعارف من النسوة) مجال الترفيه الوحيد الذي تستغله النساء لعرض جمالهن وما يرتدينه من ملابس ومصاغ، يستغل للبحث عن عروس أو عريس، فيما كان الرجال يفضلون السهر في المقاهي والاستماع للحكواتي أو مشاهدة مسرح الظل كركوز وعيواظ، إلى جانب الأدوار الخاصة بسهرات الرجال. وسواء كانت السهرات في ليالي الشتاء أو السيارين النهارية، فشروط الترفيه كانت واحدة وهي الطبيعة (الماء والخضرة) والروح الحلوة أي خفة الظل والمرح والانسجام بين أفراد المجموعة.

---

(١٩) مقابلات مع ندل يعملون في مقاصف شعبية.

استعراض

تلك الشروط لم تختلف في العقود اللاحقة، لكن تغير الظرف العام، سياسياً واقتصادياً وانفتاح المجتمع، أدخل تغييرات على شروط، لم تعد ضرورية، وبدأت الأماكن العامة تأخذ مكان المنازل لقضاء النزهات والسهرات، بعد توسع المدينة وانتشار البيوت الطبقية الصغيرة وتغير نمط الحياة والعلاقات الأسرية، فلم يعد البيت الدمشقي بعمارته التقليدية القلعة الحصينة للأسرة الكبيرة من آباء وأبناء وأحفاد، كما شُطبت الطبيعة الجميلة من قائمة الشروط الإلزامية لإنشاء أماكن الترفيه الصيفية خارج المدينة، وكانت تتركز في مناطق الربوة، أو عين الفيجة وعين الخضرة ومضايا وبقين. وفي ظاهرة لافتة راحت تنتشر في العقد الأخير المطاعم في منطقة صيدنايا الجرداء القفراء، ومع ذلك تمكن أصحابها من جذب الزوار للسهر حتى الصباح في محلات يتلخص رونقها بديكورات حديثة وشلالات اصطناعية... ليتميز بعضها عن بعض في السعر ومدى ملاءمته للبرنامج الساهر وجودة الطعام والخدمة، وباختلاف روادها الذين ينتمي معظمهم للطبقة الوسطى، إن صح التعبير، كما هي المطاعم في عين الفيجة والربوة، مع فارق تقديم المشروب حيث يتوفر في صيدنايا ويختفي في عين الفيجة، وبعض مطاعم الربوة ودمر.

أما المطاعم الفاخرة الشهيرة في مدينة دمشق، فمنها الذي ما زال متمسكاً بتقاليده مع تطوير وتجديد دائمين لديكوراته وخدماته كنادي الشرق العريق، ومطعم فرساي، ولحق بهما في السنوات الأخيرة مجموعة مطاعم على السوية ذاتها من البذخ كـ«النبلاء، وزنوبيا، وأمية، والسويس هاوس، والحدائق الملكية» وغيرها، من

التي أصبح ارتيادها دليلاً على الوضع المادي المرتفع، أو الانتماء إلى طبقة الأثرياء الجدد، وبقايا البرجوازية الدمشقية، وطبقة التجار ورجال الأعمال الصاعدة، أو طبقة المسؤولين ومن يلوذ بهم.

اتساع انتشار محال الترفيه واللهو في دمشق وريفها، لم يمنع ظهور محال أخرى تلبي الحاجة نفسها بنحو مقبول، فتحت الباب أمام شريحة واسعة كانت في ما مضى معتادة على السهر كجزء من حياتها، إلا أنها حولته من طقس أسبوعي إلى طقس شهري، فمن كان في الستينيات من ذوي الدخل الجيد (ما يقارب ٥٠٠ ليرة سورية) بإمكانه ارتياد المطعم مع عائلته أسبوعياً، حيث كانت سهرة ممتازة لعشرة أشخاص لا يتجاوز متوسط كلفتها سبعين ليرة سورية، أي أقل من عشر ليرات للشخص، هذا الموظف ذو الدخل الجيد (معدل ٥٠ ألف ليرة) بعد عام ٢٠٠٠، لن تساعده ميزانيته في ارتياد المطاعم مع عائلته أكثر من مرة في الشهر. إذ إن متوسط كلفة الشخص الواحد في عشاء ساهر بات ١٠٠٠ ليرة. فالسهر سقطت عنه سمة الشعبية التي كانت سائدة، وصار حكراً على المقتدرين.

هكذا تحوّلت بعض الأماكن التي تستقطب العائلات الميسورة، وأبناء الأثرياء الجدد إلى مسارح للاستعراض، في ظاهرة استجدت على الأوساط الاجتماعية الدمشقية التي كانت تمارس طقوس الاستعراض في الحفلات المغلقة التي تسعى فيها النساء لإبراز مفاتنهن الجمالية وثرائهن، بكل ما تعنيه الكلمة من جاه ومال. ومن خلال نظرة عابرة على واحد من الأماكن ذات «الخمس نجوم» الشهيرة يحتار المرء أين ينقّل نظره: على الفساتين المكشوفة، أم التنانير القصيرة والمكياجات المبالغ فيها، أم

الإكسسوارات والعطور الفواحة، وغيرها من لوازم الالتحاق بهذا المجتمع التي لا شك تضاف إلى قيمة الفواتير المستحقة على الرجل زوجاً أو خطيباً أو صديقاً لدخول تلك المحلات. وهنا أيضاً يمكن القول إن تغيراً طرأ على مفهوم المتعة، فبعدما كانت في الاستحواذ على الإعجاب من خلال عرض القدرات الذهنية في ابتكار النكات ورواية القصص وإلقاء الشعر والتقاط المفارقات واختراع الألعاب، صارت المتعة في الاستحواذ على أدوات الإبهار ومستلزماته من مكياج وملابس وإكسسوارات وعلاقات مع النخب المرموقة. وما كان يقال في ليالي بيروت من حيث البذخ والموضة وحتى الوجود الكثيف للنساء في البارات، صار يقال في ليالي دمشق، وهو ما واكبه ظهور مجلات اجتماعية تعنى برصد حياة السهر.

البارات

أما البارات ذات الأجواء الغربية، فمن نصيب الشباب ذوي الدخل العالي، يقصدونها ويجدون فيها ضالتهم من السهر والشراب على موسيقى الدي جي الصاخبة، اشتهرت منها مطاعم باب توما، والتي وفرت أجواء لم تعد خاصة بالبيانو بار الشهير كأول بار في دمشق، بعدما باتت حارات الشام القديمة لا تخلو من بارات ومطاعم على النمط ذاته، مثل الغيتار وأوكسجين ونترون وميتادور وإليسار وقصر الخير ومرمر وكهف بعل ...إلخ، يغلب على بعضها الطابع الهببي، وذلك يعود إلى شريحة الرواد، فإذا كانوا من الطلبة والأجانب والفنانين والمثقفين الشباب من ممثلين ورسامين وموسيقيين وشعراء، غلب عليه الصخب والعبثية، وإذا كان الرواد من أبناء الطبقة المترفة، غلب عليه طابع الاستعراض والتأنق في

التصرف والحركة. فمظهر الزبون ومستواه الاجتماعي، جزء من هوية المكان التي تتوضح بأسعارها، فمنهم من يلجأ إلى رفع السعر لرفع سوية الرواد، فيكتفون بعدة طاولات لبضعة زبائن دسمين، أفضل من عشرات الزبائن يغصون بدفع البقشيش، ويطلبون على قدر ما في جيوبهم. أما الذين لا يقدرون على دفع حتى كوبون الدخول المعتمد في بعض البارات المتضمن كأسي مشروب من النوع الجيد وليس الممتاز، فهؤلاء يقصدون الخمارات والحانات والمطاعم ذات الطابع الذكوري، وهي أماكن قديمة لم تتجدد، زبائنها مثقفون كتاب وصحافيون وموظفون ينتظرون قبض رواتبهم بفارغ الصبر، إلا أن تلك الأماكن تحث الخطى إلى الانقراض، بعدما طالت حركة التحديث ومسايرة مظاهر العصر المعولم كافة مناحي الحياة الدمشقية.

انتشار البارات الغربية وازدياد عدد السكان وكذلك الوافدين، فسح المجال لأجواء متحررة، أو لنقل منفتحة. فلم يعد محرجاً خروج شلل الأصدقاء من شباب وشابات إلى البار والاستمتاع بكأس ويسكي بعد يوم أو أسبوع من العمل، والدفع طبعاً على الطريقة الأميركية، كل واحد يدفع عن نفسه. كما لم يعد نادراً اصطحاب شاب صديقته إلى سهرة لقضاء بعض الوقت ليس إلا، دون أن يكون ذلك مشروطاً بعلاقة غير الصداقة. وبات ارتياد النساء للبارات أمراً عادياً غير مستهجن.

سياحة وسهر

من جانب آخر ساهم الاستثمار في قطاع السياحة في ازدهار سريع للمطاعم ومحلات السهر، شجع عليه زيادة إقبال السياح العرب والمغتربين على سورية، الذين لم يعد وجودهم محصوراً

في فنادق ومطاعم وبارات الخمس نجوم، بل أن تعدد مستويات المحلات وما تقدمه من وسائل ترفيه ساعد في استقطاب سياح عرب من طبقات ومشارب مختلفة، متوسطة وأكثر قليلاً، وهم كسكان البلد الأثرياء يقصدون الأماكن الفخمة والأقل فخامة، ومن يصطحب عائلته يجد حاجته في مضايا والزبداني وعين الفيجة وطريق المطار حيث لا تقدم مشروبات روحية. أما الذين يأتون دون عائلتهم فلهم مقاصف أخرى شعبية من حيث مظهرها وخمس نجوم من حيث أسعارها، توفر لهم المشروب والراقصات «النوريات» في طقوس ليست جديدة على مدينة دمشق وريفها، تنامت بشكل كبير بعد الاحتلال الأميركي للعراق، ودخول أكثر من مليون و٢٠٠ ألف عراقي إلى سورية، بينهم عدة آلاف من النوريات والمغنيات، نافسن نظيراتهن السوريات على العمل في الملاهي الشعبية، ولا شك أن الإقبال على تلك الأماكن وسع سوق العمل، وزاد عدد الملاهي الليلية التي لا تعتمد على سعر فتح الطاولة، بل على ما «يرشه» الزبائن من مال على الراقصات والمغنيات، و«الرش» بعرف مجتمع الملاهي هو شراء قطع ورقية تنثر على المطربة والراقصات، وهي عادة لا تقل عن خمسة آلاف ليرة، وأقل من هذا يعتبر «مسخرة». إضافة إلى إرسال التحيات عبر المايكرفون عند احتدام السهرة وبدء استعراض الزعامات، وكل تحية ثمنها خمسمائة ليرة وما فوق، حسب امتلاء الجيوب، وكلما ارتفع السعر علا شأن صاحب التحية وقدره بين الساهرين، وكان حظ النورية وصاحب المحل أوفر. أما إذا تدنى سعر التحية لغاية المائتين أو المائة، فتتواضع زعامة الزبون وتصبح مثار استهزاء .. وهنا يكتسب اللهو معاني أخرى تضاف إلى شهوة الاستعراض والبذخ، فهذه المحلات تجذب الرجال فقط، سواء من السياح العرب أو من أهل البلد الشعبيين أو الريفيين، من المتعطشين

لإرضاء عقد نقص من جانب الوجاهة، وبحسب أحد العاملين في تلك الأماكن، ليس بالضرورة أن يكون الزبون ثرياً، فربما «يكون فلاح باع محصوله في المدينة واشتهى قضاء سهرة عامرة قبل عودته الى الضيعة، يرش فيها جزءاً من ثمن الموسم، أو سائق شاحنة تقاضى أجره عن عدة أشهر، أو تاجر صغير باع بيعة محرزة يبخرها بالرش، أو شخص لطش لطشة محترمة، أو مرر تهريبة دسمة، استحقت الترويح عن النفس والتمتع بشعور الزعامة والثراء لساعات قبل الإياب إلى الزوجة والأولاد والطق والنق وهموم البيت».

هؤلاء عادة يجدون متعة كبيرة في رش آلاف الليرات على النوريات، فالمال لا قيمة لديهم سوى بما ينتزعه لهم من سعادة طارئة، إذ إن هذه المحال لا تكون في الأرياف النائية، كما أن التقاليد في المجتمعات الريفية الضيقة والمحافظة لا تسمح بارتيادها، وقد تسم زبائن تلك الأماكن بخفة العقل، والتحلل الأخلاقي، لذا مدينة كبيرة مثل دمشق ستر وغطاء لتلك الشهوات، ولا ما يمنع «البسط» ساعة من الزمن! رغم العلم المسبق أن فتح الطاولة ليس سوى فخ يطبق على جيوب الزبائن بعد أن تدور الكأس بالرأس و«تخنكر» حسب تعبير رواد تلك الأماكن، فلا يعود هناك حد لطلب المزيد حتى طلوع الشمس، بل إن منهم من يعدّ بذل المال على الانشراح أفضل من بذله عند الأطباء.

هذا المنطق مبرر لطالبي المتعة العابرين، لكنه ليس كذلك لدى موظفين يعيشون في دمشق ويحسبون كل قرش يدخل إلى جيوبهم أو يخرج منها، أو من يرافق صديقته أو زوجته إلى بار لا يسره دفع أي مبلغ زائد عن الكوبون لكونه يعي تماماً، أنه وسيلة

استدراج لطلب المزيد، بعد أن يفتل الرأس لكن ليس بما يفوق قيمة الكوبون، وغالباً الذين يحسبون يتداركون الانزلاق إلى مرحلة الانسطال، لأن الهدف الترويح عن النفس لا إرضاء عقد نقص، ومنهم من يحرص على بقائه صاحياً، بما يمكنه من التمعن في الفاتورة، التي لا تسلم أحياناً من التحايل على زبون سكران، لا يتذكر كم كأساً شرب، أو ما نوعه.

غير أن السهر والتنزه والاستمتاع بصحبة الأهل والأصدقاء مع اللقمة الطيبة لا تزال حاجة أساسية في المجتمع الشامي كأي مجتمع آخر، لكن الذي تغير هو مفهوم الترفيه والاستمتاع، المختلف من جماعة لأخرى، مع تفشي ثقافة الاستهلاك والضغط الاقتصادي، فقد بات ارتياد أماكن السهر بالنسبة للأثرياء الجدد مظاهر تلحقهم بالطبقة التي سبقتهم إلى الثراء، وآخرين يحسون بأنهم يتطورون مع تطور المجتمعات الاستهلاكية، والبعض يرغبون بما يعزز شعورهم بالتفوق على محيط اجتماعي متخلف فيتميزون عنه، والكثيرون يذهبون ليتفرجوا على الآخرين والأهم ليراهم الآخرون. هل هذا من مظاهر التردي والانحطاط في السهر؟! ربما، نعم. عموماً في السهر يعتقد المجتمع بأنه بخير، إذا كان يشعر بالانبساط!!

لكن لا أحد يدري كيف يتمتع مجتمع ما زالت غالبيته متخلفة وفقيرة وحتى جائعة، فيه آباء وأمهات قد نراهم في الشوارع ونصادفهم في الحارات يتسولون لأولادهم، ولا يبلغ بهم الأمل ولا الحلم أن يحصلوا على قدر بسيط من مخلفات الموائد التي ترمى يومياً بعد انصراف الساهرين.

استدراج لطلب المزيد، بعد أن يفتل الرأس لكن ليس بما يفوق قيمة الكوبون، وغالباً الذين يحسبون يتداركون الانزلاق إلى مرحلة الانسطال، لأن الهدف الترويح عن النفس لا إرضاء عقد نقص، ومنهم من يحرص على بقائه صاحياً، بما يمكنه من التمعن في الفاتورة، التي لا تسلم أحياناً من التحايل على زبون سكران، لا يتذكر كم كأساً شرب، أو ما نوعه.

غير أن السهر والتنزه والاستمتاع بصحبة الأهل والأصدقاء مع اللقمة الطيبة لا تزال حاجة أساسية في المجتمع الشامي كأي مجتمع آخر، لكن الذي تغير هو مفهوم الترفيه والاستمتاع، المختلف من جماعة لأخرى، مع تفشي ثقافة الاستهلاك والضغط الاقتصادي، فقد بات ارتياد أماكن السهر بالنسبة للأثرياء الجدد مظاهر تلحقهم بالطبقة التي سبقتهم إلى الثراء، وآخرين يحسون بأنهم يتطورون مع تطور المجتمعات الاستهلاكية، والبعض يرغبون بما يعزز شعورهم بالتفوق على محيط اجتماعي متخلف فيتميزون عنه، والكثيرون يذهبون ليتفرجوا على الآخرين والأهم ليراهم الآخرون. هل هذا من مظاهر التردي والانحطاط في السهر؟! ربما، نعم. عموماً في السهر يعتقد المجتمع بأنه بخير، إذا كان يشعر بالانبساط!!

لكن لا أحد يدري كيف يتمتع مجتمع ما زالت غالبيته متخلفة وفقيرة وحتى جائعة، فيه آباء وأمهات قد نراهم في الشوارع ونصادفهم في الحارات يتسولون لأولادهم، ولا يبلغ بهم الأمل ولا الحلم أن يحصلوا على قدر بسيط من مخلفات الموائد التي ترمى يومياً بعد انصراف الساهرين.

مقاهي دمشق

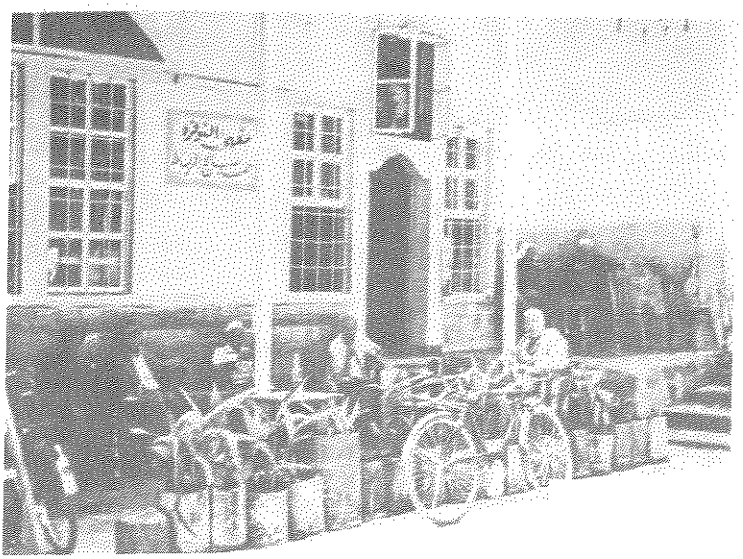

مقهى النوفرة الشعبي

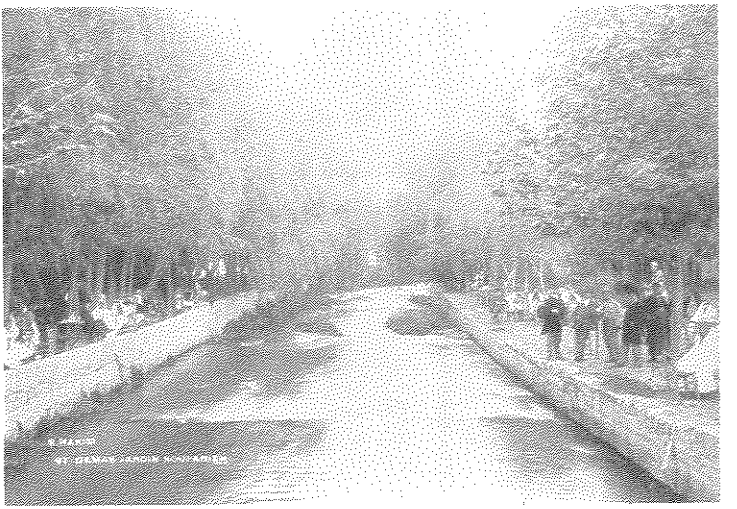

منتزه الصوفانية... تصوير سليمان الحكيم ١٨٥٩

مقاهي دمشق

مفهوم آخر للتسوق في مدن فقدت الدهشة

في الطبعة الأولى من كتابها (يا مال الشام) الصادر عام ١٩٧٩ تحدثت الكاتبة الدمشقية سهام ترجمان عن سوق كبير على الطراز الحديث في طور الإنشاء، في منطقة الفيلات في حي المزة الراقي، وتخيلتْ كيف ستكون عملية الشراء الحديثة. وكان مما تخيلته أن «السيدة تحضر بنفسها، ومعها شنطة من النايلون الملون المفرغ، تدخل من باب المبنى الفخم، هدوء مطبق، اللمس هو لغة الإنسان الراقي، تأخذ السيدة بيدها عربة معدنية صغيرة فارغة لها عدة طبقات، تتقدم بين ممرات السوق، تختار ما هي بحاجة إليه من علب اللحم والخضر والفواكه ... الثقة مطلقة في هذا المكان الراقي. لا أحد يسرق، لا أحد يفاصل، لا حبة بندورة أكبر من حبة، لا تفاحة «معاينة»، لا «تنكة» سمن، ولا «تنكة» جبنة، ولا علبة قشطة، ولا «قدرة» لبن، ولا ضرف «اريشة»... إلا

عليها سعر ثابت يوفر وقت المفاصلة بين الشارية «الأنيقة» والبائع «الجنتلمان». الآنسة التي تحصي القطع المشتراة في نهاية المطاف، تكتب الفاتورة كالخرساء. كذلك الموظفة تتقن العزف على الآلة الحاسبة كالخرساء أيضاً. «الكيس» الرجل الواقف وراء الصندوق، يتناول الفاتورة بوجوم. لا حوار في هذا المكان. راحة تامة للجميع!!» بعد هذا التخيل الأنيق، لما سيؤول إليه حال التسوق في الشام، تتساءل الكاتبة: هل نحن في دمشق أو في لندن أو في موسكو؟!

ثلاثون عاماً مرت على هذا التنبؤ، ومن ذلك الوقت بدأت المجمعات التجارية بالانتشار، إلا أنها لم يكن لها تأثير كبير في تغير مفهوم التسوق، كثقافة وسلوك اجتماعي، لأسباب تتعلق بطبيعة النظام الاقتصادي المحلي الذي أقيمت في ظله تلك الأسواق، فقد أنشئت لبيع منتجات المؤسسات العامة في زمن كان البلد فيه يحث الخطى نحو عملية التحول الاشتراكي، رافعاً شعار الاكتفاء الذاتي ومنع الاستيراد. في مرحلة لاحقة، ومع رفع الدولة لشعار التقشف وشد الأحزمة، غدا التسوق في مجمعات المؤسسات الاستهلاكية «مكره أخاك لا بطل»، يتطلب الوقوف لساعات طويلة في الطابور للحصول على بعض المواد التموينية الأساسية، ولم تطل نهايات عقد التسعينيات حتى تلاشى دور تلك المجمعات دون أن تترك أثراً بالغاً في نمط وعادات التسوق.

حرمان الثمانينيات

من اكتوى بحرمانات الأزمة الاقتصادية في الثمانينيات وسياسة الاكتفاء الذاتي والتقشف التي فرضتها الحكومة آنذاك، لن يتخيل أن يوماً سيأتي تصبح فيه أيام القحط مجرد حكايات تروى، عن

طوابير الناس أمام المؤسسات الاستهلاكية للحصول على علبة سمنة، أو كيلو سكر وغيرها من مواد التموين الأساسية. أما المناديل الورقية التي تغرق معاملها اليوم سورية، فكانت من جملة الأشياء النادرة المهربة من لبنان كالمعلبات والموز، يُحتفظ بها في الخزائن ويقفل عليها بالمفتاح، للحد من استهلاكها، ولا تبذل إلا من أجل الطفل المدلل والضيف العزيز. في تلك الأيام كان موظفو المؤسسات الاستهلاكية يبتكرون طرقاً لصف الطوابير ولمنع التدافع والاشتباك بالأيدي. كأن تتوقف سيارة البضائع المغلقة وفتحة صندوقها نحو الجدار مع فاصل بالكاد يسمح بعبور رجل واحد، ويجلس موظفان عند طرف صندوق السيارة، واحد من اليمين وآخر من الشمال، الأول يسجل اسم الزبون، والثاني يسلمه علبة السمنة، ليعبر في الحيز الضيق إلى الطرف الآخر. كانت السيارات تحمل مثلاً ٢٠٠ علبة سمنة، بينما عدد المنتظرين في الدور يتجاوز أربعمائة شخص. أيام عصيبة، ما زال طعمها تحت أضراس السوريين، كانت الحاجيات الأساسية نادرة إن لم تكن مفقودة. حتى أن جيلاً كاملاً اكتسب عادات غريبة من تلك الفترة، كالمبالغة في التقنين والتموين الزائد، والاحتفاظ بعلب السلع الفارغة وأكياس النايلون، خوفاً من فقدانها أو غلاء ثمنها، حتى الأقلام والقرطاسية ادخرت خشية عودة تلك الأيام التي لا تتوفر فيها القرطاسية إلا في المؤسسة الاستهلاكية والتي بدورها تبيعها ضمن عرض إلزامي، لتصريف البضائع الكاسدة، كأن تضع عشرة دفاتر خمسين ورقة مع علبة أقلام تلوين النسر وأقلام رصاص وأقلام حبر ماركة الريم، وجميعها إنتاج المؤسسات العامة، ولا نعلم أين اختفت اليوم!!

كذلك لا يمحى من الذاكرة، عندما سمح باستيراد الموز بداية

التسعينيات، وانخفض سعر الكيلو من ١٥٠ ليرة إلى ٥٠ ليرة وما دون، وصار الباعة الجوالون في دمشق ينادون عليه (معتر يا موز كنت معلق بالعلالي صرت مشطح بالأراضي)!! كما يقال أن المشاهدين العرب لم يفهموا ما ورد في إحدى حلقات مسلسل «مرايا» التي تناولت موضوع الموز المفقود في سورية!

الاقتصاد المفتوح

في السنوات التسع الأخيرة، أعاد الاقتصاد المفتوح رسم وجه جديد لسورية التي راحت تتخلى عن أمومتها للفقير، طيلة أربعة عقود من سياسة الاكتفاء الذاتي، وكانت الدولة هي المصنّع والمستورد والتاجر، ولا تزال أبنية المؤسسات الاستهلاكية شاهداً حياً على احتضارها، كمجمع العباسيين والأمويين وصالة ٨ آذار في دمشق وغيرها الكثير من كبرى الصالات في دمشق والمدن الأخرى، والتي انتشرت أواسط السبعينيات بزهو يستلهم التجربة السوفياتية الناجحة بتطبيق نظام أمومة الدولة الاشتراكية ويعكس الوفرة الاقتصادية لسورية حينذاك. والمبالغات التي ترافق افتتاح المجمعات الحديثة اليوم لا تختلف كثيراً عن تلك التي رافقت افتتاح مجمعي العباسيين والأمويين، سواء بما يحتويانه من تشكيلة بضائع متنوعة، (كان يباع فيها إلى جانب الصناعات المحلية مصادرات الجمارك من السلع الأجنبية المهربة) أو حضاريتها، ففي مجمع العباسيين كان أول درج كهربائي في دمشق. إلا أن هذا الدرج بقي معطلاً منذ تلك الأيام ولغاية تحوله إلى مول حديث مستثمر من القطاع الخاص.

وللأسف أن هذه المؤسسات التي نخرها الفساد بأنواعه، تحولت في الثمانينيات إلى وسائل لقهر المواطن في عز الضائقة

الاقتصادية. كانت البضائع تصل بشح إلى صالات البيع، وتخص تجاوزات عندما يقوم الموظفون بعد وصول البضائع بإبلاغ المقربين إليهم، ليأخذوا أكثر من حصصهم بغض النظر عن سائر المواطنين الآخرين، أو تُسرب إلى المحال التجارية الخارجية لتباع في السوق السوداء بأسعار مضاعفة؛ فترة تحولت فيها تلك المؤسسات إلى ساحات للبؤس تتشابك فيها الأيدي للحصول على زجاجة زيت أو كيلو شاي.

تحايل السوريون على تلك المرحلة العصيبة بكثير من النكات تناولت واقع المؤسسات الاستهلاكية العامة، إحداها تقول: إن سائحاً عربياً مرَّ من أمام إحداها ووجد ازدحاماً وتدافعاً بالمناكب. فسأل صديقه السوري، ماذا يحدث هنا؟ فخجل وقال له، إنهم يقدّمون واجب العزاء. فتقدم السائح ليقوم بالواجب، فرأى أحدهم يهم بالخروج بصعوبة من تلك العجقة. فسأله: عزيت يا خوي. فرد عليه: لا عالسمنة.

ذكريات تفرض نفسها على المواطن الذي وعى عناء تلك الفترة القاحلة لدى زيارة الأسواق الحرة التابعة للقطاع الخاص في مطار دمشق الدولي وعند معابر الحدود مع لبنان والأردن وتركيا وفي ميناء اللاذقية، وعلى الرغم من تخصيصها للمغادرين والأجانب إلا أن معظم زبائنها من السوريين.

الواقع انقلب ١٨٠ درجة تقريباً، وهذا ما تعكسه بوضوح التحولات في حركة الأسواق السورية، وإذا نظرنا إلى مدينة دمشق، سنجد أنه مقابل ظهور عشرات الأسواق الشعبية الطارئة التي انتشرت على هامش الأسواق الرئيسة وجاوز عددها ثلاثين سوقاً، ظهر في السنوات الخمس الأخيرة عدد من المجمعات

التجارية الضخمة تُعنى بمتطلبات الموسرين، وراحت تغير العادات والتقاليد السورية في التسوق.

تواكب تسارع ظهور هذه المجمعات مع توقيع الحكومة على اتفاقية التجارة العربية الحرة التي أتاحت في البداية تدفق كميات هائلة من الماركات العالمية ذات المنشأ العربي، لتغرق الأسواق المحلية بأسعار منافسة. أتاحت أيضاً تدفق سيل البضائع الصينية الرخيصة لتغرق الأسواق الشعبية والأرصفة وتهدد الصناعة المحلية، قبل أن تعود البضائع الأوروبية الفاخرة لتتسلل إلى الأسواق عبر المجمعات التجارية الحديثة.

بداية تجربة المجمعات الكبيرة، كانت مع مجمع الـ(سيتي مول) عام ٢٠٠٠، ولا يزال الدمشقيون يتذكرون الحملة الإعلانية التي سبقت افتتاحه، إذ كانوا للتو خارجين من عقد التسعينيات مثقلين بأعباء ركود اقتصادي سقيم، وكانت وعود الإصلاح ومكافحة الفساد في أول تفتحها حين انتشرت إعلانات حمراء في شوارع دمشق تحمل عبارة (صار عنا)!! بعد فترة اكتشف الناس أن الذي صار عندهم هو (سيتي مول) عبارة عن مجمع تجاري يعدّ بالمقاييس العربية متواضعاً جداً، والبضائع المعروضة فيه هي ذاتها البضائع المحلية المبذولة في الأسواق الأخرى، لا تتميز بشيء سوى أناقة العرض، كان ذلك مثيراً للرثاء والأسف، فالإعلان استغل حالة التعطش العامة للتغيير والإصلاح، لكن ورغم ذلك يمكن اعتبار ظهور ذلك السوق مؤشراً على ما ستشهده دمشق في السنوات اللاحقة.

بعد أربع سنوات في عام ٢٠٠٤، ستلفت الأنظار هذه المرة إعلانات أكثر واقعية تطرح شعار «مفهوم آخر للتسوق» مع مجمع

(تاون سنتر) الذي سيشغل مساحة ٧٠٠٠ متر موزعة على ثلاث طبقات -١ و٠ و+ ١، يقع عند أول أتوستراد درعا، طريق المسافرين براً الى الأردن ودول الخليج. احتوت الطبقة الأرضية على أكبر سوبر ماركت في سورية، تكدست فيها البضائع المحلية والمستوردة، بالإضافة إلى فروع شركات سورية جلّها حائز على وكالات عالمية. وقد اعتمد السوق الطريقة الغربية في عرض البضائع، وتبنى سياسة السعر المحدود غير القابل للجدل والمفاصلة (المساومة، العادة الدمشقية الأثيرة في الأسواق التقليدية).

تبع التاون سنتر افتتاح مجمع تجاري آخر صيف ٢٠٠٥ باسم (أسواق الخير ميترو) ليكون الثاني من حيث الضخامة، آخذاً شكل مدينة تسوق وترفيه تنبسط أفقياً على مساحة ٥٠٠٠ متر مربع، في الزبلطاني جنوبي دمشق إلى جوار المنطقة الصناعية حيث ترتفع نسبة التلوث والسكن العشوائي. بحيث لا يتوقع الذاهب إليه أن الطرق المشغولة بالشاحنات والهواء الملوث ستؤدي به إلى مكان يشبه الواحة بنظافته وتنظيمه وجمال تصميمه، مستلهماً طريقة الأسواق التقليدية، بتقسيمه إلى حارات، سُميت بأسماء الورود الدمشقية: حارة الريحان والياسمين والجوري والنرجس ...إلخ. تضم أكثر من ٢٠٠ متجر بواجهات عريضة، كما تحتوي على مكتبة، وشارع رئيسي يسمح للمتسوقين بعبور السوق بسياراتهم وإلقاء نظرة على الفاترينات بسهولة، بالإضافة إلى سلسلة مقاه ومطاعم. أما سبب اختيار تلك المنطقة من ريف دمشق، فلعدم توفر مثل هذه المساحة داخل المدينة، ولأن إنشاء سوق من هذا النموذج في منطقة ملوثة من شأنه الإسهام في إنعاشها، ويكفي أن نعلم أن أسعار العقارات في المنطقة ارتفعت

خمسة أضعاف بعد افتتاح السوق.

المشهد في (أسواق الخير) الذي تؤمه الطبقة الوسطى وما دون، لا يشبه كثيراً المشهد في تاون سنتر الذي تؤمه الطبقة الوسطى وما فوق. لكننا في المكانين بالكاد نعثر على شبان وصبايا كهؤلاء الذين يتمشون في شوارع دمشق الصالحية والحمرا والقصاع ... قد نعثر عليهم في مقاهي الـ (ستي مول) لكونه يقع في حي المزة داخل المدينة، ويأخذ شكلاً حداثياً وطبيعة شبابية لا نجدها في المجمعات الأخرى ذات الأجواء العائلية بامتياز. خاصة مساء أيام الجمعة، حيث تفضل كثير من العائلات إنهاء (السيران) في تلك المجمعات، الأمر الذي يبرر الازدحام فيها خلال أيام العطل، دون تجاهل عامل آخر مهم جداً وهو أنها افتتحت في الفترة التي شهدت أزمة في العلاقات السورية ـ اللبنانية، وتحول أعداد كبيرة من السوريين ممن كانوا يقصدون شتورا وزحلة وبيروت في العطل إلى الأسواق السورية، وكأن المجمعات الحديثة أنشأت تلبية لحاجة هؤلاء من المواد الغذائية المستوردة. ومن الطريف أن تفتتح أفران «تفاحة» فرعاً لها إلى جوار (التاون سنتر)، بعدما شهدت تراجعاً في إقبال الزبائن عليها في بلدة شتورا اللبنانية.

في عام ٢٠٠٦ افتتح مول آخر (شام سيتي سنتر) في منطقة تنظيم كفرسوسة بدمشق مؤلف من سبع طبقات وتراس خارجي، ليكون المول الأضخم في داخل مدينة دمشق. ومع بداية عام ٢٠٠٩ إلى جوار (شام سيتي سنتر)، قام مول (دامسكينو) المؤلف من ٨ طوابق، والمجمعان ليسا شعبيين، اتضح ذلك من كونهما أول نافذتين تعود منهما البضائع الأوروبية الفاخرة بعد أربعة عقود من

الغياب عن الأسواق. وكم كان غريباً الشعار الذي أطلقه أصحاب المول في الحملة الإعلانية «إذا ما رحت ...راحت عليك» لأن الغالبية العظمى من المواطنين إذا فكروا بزيارة هذه المولات ولو للاطلاع، سينتابهم شعور بأن قطار حياتهم يمضي في طريق آخر غير طريق تلك المجمعات المتكاثرة مثل (بوليفار) بكل بهاء فخامته و(سكي لاند) و (الواحة) ... إلخ من مجمعات متوقع افتتاحها في السنوات المقبلة والتي بات لها زبائنها، في انعكاس لحالة الفرز الطبقي التي تشهدها مرحلة التحول إلى اقتصاد السوق.

ولا شك في أن أبناء الطبقة القادرة على ارتياد السوبر ماركت يومياً، بحد أدنى للإنفاق خمسة آلاف ليرة، أو ارتياد السوق أسبوعياً بمعدل إنفاق كحد أعلى من ثلاثين إلى أربعين ألف ليرة، ليسوا هم أبناء طبقة متوسطة معدل دخل الفرد فيها عشرة آلاف ليرة شهرياً. وبالتالي فإن رواد مجمعي تنظيم كفر سوسه ليسوا هم رواد أسواق الخير .. وهؤلاء ليسوا هم الذين لا يعرفون التسوق سوى أيام الأعياد فتراهم في الأسواق الشعبية التقليدية (مخيم اليرموك) و(القابون) و(حي تشرين) و(الشيخ محيي الدين).

الاستثمار في المجمعات التجارية يعكس تغيراً كبيراً في سياسة الحكومة الاقتصادية، التي انتقلت من الاشتراكية المتزمتة إلى الانفتاح على الطراز الرأسمالي في الاستهلاك. كذلك يعبّر ارتياد المواطنين هذه المجمعات عن تغير في عادات الاستهلاك لدى المواطن السوري، الذي عُرف بالتقشف المضني خلال العقود الماضية. ثم شهدت الأسواق ازدهاراً كاذباً، لكون القدرة الشرائية لدى المواطن تدنت طرداً مع زيادة العرض، ومع ذلك يمكن

القول إن التسوق ازدهر كنشاط اجتماعي، أكثر منه حركة بيع وشراء، وفرض سلوكيات مستجدة حتى في الأسواق التقليدية المفتوحة مثل الشعلان والحمرا والصالحية والقصاع ... وغيرها من أسواق باتت ساحات لتجمع الشبان والصبايا، تنتشر إلى جوارها المقاهي والكافتيريات والمطاعم الشبابية.

مفهوم آخر للتسوق

الانفتاح الاقتصادي العالمي أضاف التنزه إلى التسوق كمفهوم آخر، فيذهب الزبون بهدف الفرجة والترويح عن النفس، وقد يشتري من هناك ما يعجبه، لا ما يحتاج له. هذه الفكرة الأخيرة تكاد تكون العمود الفقري للترويج التجاري الحديث، الذي يدمج التسوق مع الترفيه كمتلازمة، من خلال مجمعات تجارية ضخمة فيها إلى جانب المتاجر، مطاعم وملاه ودور سينما، وكلمة (شوبينغ) تختزل العادات المستجدة في مجتمعاتنا، فبعدما كانت عادة التسوق تنشط في مواسم محددة، في الصيف والشتاء والأعياد الدينية، وافتتاح المدارس، أضيفت إليها الآن مواسم التنزيلات، وفق النظام العالمي كل ثلاثة أشهر فتحرر السوق من المواسم التقليدية، وبات مفتوحاً على مدار العام. وفرحة الجديد لم تعد مقتصرة على أيام العيد، الذي ينتظره الأطفال بشوق أكثر من غيرهم بل إن هناك شكوى من فقدان البهجة، بعدما أصبح كل شيء مبذولاً بسخاء وبمختلف الأسعار.

وقد أثَّر ذلك في تغيير عادات وتقاليد البيع والشراء والمفاصلة المنحدرة من أدبيات أعرق أسواق الشرق؛ سوق الحميدية والحريقة ومدحت باشا وما يتفرع عنها من أسواق عديدة، كأسواق الخياطين، والحرير، والنسوان، والبزورية، والعقادين،

والقيشاني، والمسكية .. إلخ من أسواق كل منها تختص بنوع معين من البضائع.

للسوق ثقافة وسلوك تقليديان، إجادتهما وممارستهما بحد ذاتها متعة للبائع والشاري معاً، من خلال الحوار وتبادل المعلومات حول البضائع. سابقاً كان من المتعارف عليه أن أي منتج يعلن عنه في وسائل الإعلام هو منتج رديء، وإلا لما اضطر صاحبه لاستعمال هذا الأسلوب لترويجه، فبرهان جودة السلعة، يلمس لمس اليد، إلا أن هذه المفاهيم تبدلت تماماً، فمن كان يجد تسلية أو ترفيهاً في فتح حوار مع البائع، قد يعدّ الآن ثرثرة، ومن كان يختبر الجودة بيده، يظن في الأمر غشاً، كما أن الماركات العالمية التي غزت الأسواق تكاد تكون واحدة في كل أسواق العالم، معروفة ومجربة، وضخامة إعلاناتها في وسائل الإعلام دليل عراقتها. والبضائع في متناول اليد ولا حاجة لتمنين الزبائن بفردها، وبالإمكان ابتياع كل الأشياء دون الحاجة للتفوه بكلمة واحدة، أو للسؤال عن سعر أو تميز نوع عن آخر، وبالتالي لا يهم إذا كان الموظف البائع بشوشاً أو حاذقاً أو محاوراً لماحاً، أيا كان فهو يتحرك كالآلة بين الزبائن، وكذلك موظف الصندوق، فالمتحدث الوحيد في هذه الأمكنة هو «المال»: ادفع وامش.

والزبائن الذين لا يحبذون المفاصلة نراهم عادة في الأسواق الحرة، وقلما نلحظهم في أسواق الحميدية والحريقة التقليدية، إذ متعة التسوق ليست في بذل المال بسخاء، بل في المفاصلة والحصول على أجود البضائع المحلية الصنع بأقلّ سعر ممكن. قد يصل إلى نصف السعر المدون على السلعة؛ ولا غرابة، هذا جزء من طقوس البيع والشراء الدمشقية.

للتسوق مفهوم له خصوصية ثقافية تنبع من خصوصية دمشق نفسها التي اشتهرت بكونها مدينة تجارية، وثمة أصول متعارف عليها في هذه الأمكنة تبدأ من تفرغ دلالين فتية لدعوة السيدات في السوق إلى مشاهدة بضائع أعطت للسوق اسمه: «تفضلي يا ست». بعض السيدات من الغريبات عن دمشق قد يرين الدعوة تحرشاً علنياً، خاصة إذا كان المحل في الطابق الثاني، أو في إحدى دخلات السوق، أما من كانت على معرفة بأساليب الباعة في هذا السوق فتسأل عن نوع البضائع المتوفرة، حينها سيبادرها الدلال بالطلب منها بالاكتفاء بأخذ فكرة، فقط للاطلاع، «بس تفرجي ولا تشتري»؛ والفرجة ببلاش. في هذا السوق اعتاد الباعة فرد البضائع بكل نفس راضية أمام الزبونة التي قد لا تتوانى عن طلب إنزال كل بضاعة المحل، وبالنهاية تشتري أو تقول سأشاور عقلي وأرى السوق وربما أعود، وهنا يقول لها البائع: «شوفي وأنا متأكد أنك راح ترجعي»، ومع هذا الجواب ربما تلين الزبونة وتقرر الشراء، لكن بعد أن تحطم السعر.. أما البائع فيقول لها وقد أسقط في يده: «كرمى لعيونك وكي لا أخسر زبونة، كما تريدين .. استعملي هذا الغرض وإن لم يعجبك رديه!».

في الحقيقة، احتمال رد السلعة بعد الاستعمال أمر غير وارد، لكن المجاملة جزء أساسي من فنون التعامل في أسواق دمشق، تمنح للشاري والبائع نوعاً من الرضا والاطمئنان لعلاقة تنشأ سريعاً وعرضاً، ولا يستبعد أبداً أن يتطور الحوار بين البائع والزبونة إلى حوار ذي طابع حميمي مرح، كأن يتغزل البائع بالزبونة ويحسد زوجها عليها، لأنها شاطرة وتمكنت من كسب الجولة، أو العكس يطلب له العون من الله على حنكتها وجبروتها، يقصر الحديث أو يطول ويتشعب بحسب طبيعة كل شخص، وقد

يصبح درساً في جودة البضاعة ومميزاتها، فيحكي عن خيط معين وحياكة ما، ورسم نادر لا مثيل له، وطرق تمييز النوع الجيد من الرديء وأساليب اكتشاف البضاعة المقلدة والمزورة وهكذا، وأحياناً يصل الحديث إلى حد رواية قصص من الحياة الخاصة ليس بهدف التعارف بقدر ما هو للفضفضة، ثم حديث يجر حديثاً، لينتهي كل شيء بمجرد مغادرة الزبونة باب المحل، ليبدأ حوار آخر مع زبائن آخرين.

تظهر خبرة التاجر في سوق الحميدية من خلال مهارته في قراءة الوجوه، وهذا بفعل الممارسة الطويلة للحوارات اليومية وردود الفعل. ويختلف تعامله مع الزبون الدائم عن زبون يأتي للمرة الأولى، كما يختلف عن الزبون الطيار الذي يشتري لمرة واحدة ولا يعود، إلا أنه في جميع الحالات يحافظ البائع عادة على بشاشته ولباقته وصبره، حيث لا يمكن لبائع أن يُصَرِّف بضاعته بوجه عابس، في مدينة تعدّ فيها المعاملة اللطيفة فطرة.

تتيح سلوكيات السوق الاختلاط بين الرجال والنساء وتجاذب أطراف الحديث، في مجتمع محافظ، كانت فيه المرأة تحتجب عن الرجال، ما جعل من التسوق عادة مقننة في العقود الماضية، ولا تزال بعض المجتمعات السورية المغلقة تنظر لذهاب المرأة إلى السوق كسلوك غير محبب، بل يُعدُّ عيباً وبالأخص للفتاة العازبة، فإذا كانت ستذهب إلى السوق تصطحب أمها أو إحدى قريباتها من المتزوجات، كي لا يظن الناس أنها ذاهبة لعرض نفسها أمام الرجال في السوق. كما كان دخول البنات الصغيرات الدكان عيباً لا تسمح به الأمهات الرصينات، وهو حكر على الأولاد الكبار من الصبيان. الأمر الذي يبدو اليوم مضحكاً حيال

شبان وصبايا يستعينون على تبديد الضجر بالتنزه في السوق، خصوصاً أنه في الماضي، كان مجرد شعور الفتاة بالضجر أمراً مخجلاً، يعرّضها للملامة، إذا كان من ضمن التقاليد التربوية تعليم الفتيات الأشغال اليدوية من خياطة وتطريز وصناعة الزينة المنزلية، بالإضافة إلى الأعمال المنزلية الأخرى، فلا وقت فراغ يسمح بتسلل شيطان الملل إليها. وإذا كنا في السابق نادراً ما نرى فتاة لا تجيد هذه الأعمال، فإننا اليوم نادراً ما نعثر على فتاة تجيد بعض تلك الأشغال، ولا تفضل شراء المشغولات جاهزة من السوق.

الحياة الجديدة نمَّطت البشر، وجعلتهم يشتركون في أمر واحد: الاستهلاك، فالمطلوب أن يكونوا مستهلكين نموذجيين، مع فارق أن المجتمعات الصناعية الكبرى تنتج، فيعد الاستهلاك جزءاً من واجبها الوطني، لكن في مجتمعات كمجتمعاتنا ما زال التسوق ترفاً لا يستحقه واقع اقتصادنا المتخلف، ويكرس في مجتمعاتنا ثقافة الاستهلاك التي تنتشر كالوباء، كعادة وافدة من مجتمعات الصحراء التي شهدت فورة انفتاح تجاري وازدهار استهلاكي، ومثلت الأسواق أماكن للترفيه تعوض غياب عادات وتقاليد التنزه الأسبوعي في الطبيعة، الراسخة في المجتمع الدمشقي الذي اعتاد التنزه في بساتين الغوطة وعلى جبل قاسيون.

هكذا تبدلت أمكنة الترفيه ووسائله وسلوكه، إذ تعتمد تلك الأماكن على ما توفره من خدمات كلعب للأطفال، وتشكيلات واسعة من السلع، لا ما تتمتع به موقعها من جمال وطبيعة غناء، حيث لا أشجار ولا أنهار من تلك التي اعتاد سكان دمشق قضاء إجازتهم تحت ظلالها وعلى ضفافها، فليس هناك سوى هندسة

معمارية حديثة، تستعين بالأنوار المبهرة، لتعبر عن روح عصر تلهث سورية للحاق به، في مشهد عولمي مستجد، لم تألفه بعد مدينة كدمشق اشتهرت بأسواقها التقليدية، ولا تزال ذاكرة محظوراتها طرية، بدءاً من منع الاستيراد، وحتى منع الأسماء الأجنبية أو الكتابة على لافتة المحال بأحرف لاتينية!!

قبل ثلاثين عاماً، تساءلت الكاتبة سهام ترجمان: هل نحن في دمشق أم لندن؟! واقع الأسواق اليوم يجيب: لا فرق، هذا نمط عالمي يجعل كل المدن متشابهة، والأسواق متماثلة جميعها براقة، لكن بلا دهشة.

الـمؤلفة

- صحافية سورية وعضوة في اتحاد الصحافيين العرب ١٩٩٧.
- إجازة في الصحافة من كلية الآداب ـ جامعة دمشق ١٩٩٦.
- بدأت بالعمل الصحافي منذ عام ١٩٩٥ ونشرت في العديد من الصحف والمجلات السورية والعربية، منها مجلة «**العربي**» ـ الكويت، وجريدتا «**تشرين**» و«**الثورة**» ـ دمشق، وجريدة «**الحياة**» ـ لندن وجريدة «**السفير**» ـ بيروت ومجلة «**الرجل**» ـ لندن.
- من أسرة مجلة «**النقاد**» اللبنانية ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٤.
- مراسلة وكاتبة زاوية يومية في جريدة «**الكفاح العربي**» اليومية اللبنانية منذ ٢٠٠٢. ثم كاتبة مقال أسبوعي في «**الكفاح العربي**» الأسبوعية.

- مديرة تحرير مجلة «**شبابلك**» الصادرة في دمشق ٢٠٠٤.
- مديرة تحرير موقع «**الجمل**» الإلكتروني ٢٠٠٥.
- مراسلة جريدة «**الشرق الأوسط**» ـ لندن حالياً.
- صدرت لها مجموعة شعرية بعنوان «**رمان**»، عن «الكوكب ـ رياض الريّس للكتب والنشر» ـ بيروت ٢٠٠٨.
- صدرت لها مجموعة شعرية بعنوان «**هكذا أحبه**»، عن «الكوكب ـ رياض الريّس للكتب والنشر» ـ بيروت ٢٠١٠.

فهرس الأعلام

أ

آرام (الملك) ٣٠
آل بيضون ٥٧
آل الحسيبي ٧٥
آل الجزائري ٧٥
آل الحصري ٨٦
آل صحرة ٥٧
آل الرواس ٨٦
آل زقزوق ٥٧
آل سلمون ٥٧
آل السمان ٨٦
آل صندوق ٥٧
آل طوطح ٥٧
آل العجان ٨٦
آل العظم ٧٤
آل لحام ٥٧
آل مراد ٥٧
آل مرتضى ٥٧
آل نحاس ٥٧
آل ياسين، بالاسم (شبح) ١٨٠
آل اليوسف ٧٥
ابن بطوطة ١١٠
ابن رشد ٤١
ابن عبد الهادي، يوسف ٢٧
ابن عربي، محيي الدين ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢
ابن عساكر ٥٥

ابن الفارض ٤٤، ٤٥، ٤٦
ابن الكستريان بنيامين بن وانيس ١٥٦
ابن ميمون ٦٠
ابن النديم ١٤٣
أبو السعود، عبد الوهاب ١٧١، ١٧٢
أبو شبكة، إلياس ١١٧
أبو لبادة ٥٨
الأرناؤوطي، كاظم آغا ١٦٠، ١٦١
الأزدي، علي بن كمال الدين أبي منصور ٤١
الأسد، بشار ٢٠٨
الأسد، حافظ ١٩٨
إسماعيل، صدقي ٢٠٥
الأمين، حسن ١٨٩
الأمين، علي محمد محمود (السيد) ١٨٨
الأمين، محسن (السيد) ٥٥، ٥٧، ٦٥، ١٨١، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩
الأندلسي، محمد ٤٦
أنور باشا ١٣٠

ب

البارودي، فخري ٦٣
البزم، محمد ١٧٠، ١٧١
بقدونس، رشيد ١٥٨
بكداش، وصال فرحة ١٩٦
البكري، نسيب ١٦٧
البياتي ٥٣
بيجان ١٦٤
البيشلي، إبراهيم ١٨٠
بيضون، يوسف ٥٥، ١٧٩، ١٨٨
البيطار، صلاح ١٦٨

ت

ترجمان، سهام ١١٧، ٢١٢، ٢٢٥، ٢٣٩
تريس (المسيو) ١٦٠
التقي، أديب ١٧٨
التونسي، صالح ١٦٩

ث

ثابت، مصطفى ١٥٧، ١٦٩

ج

الجباوي، إبراهيم ٢٠٢
الجبل، بدوي ١٦٧
جروس، سعاد ١١، ١٢، ١٣
الجزائري، عبد القادر ٣٠، ٤٢
جمال باشا ١٣٠، ١٦٤
جمعة، سامي ١٩٨
الجندي، سليم ١٦٨
جيرون بن سعد بن عاد ٢٤

ح

حاتم الطائي ٤١

حداد، فواز ١٣
حسن، نجاة قصاب ١٠١
حسني، جورج ١٥٠
حسين (الشريف) ١٥٧
الحسيني، إبراهيم ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦
الحسيني، محسن الأمين (السيد) ١٧٧
الحلاج ٥٠

د

الداودي، محمد ١٦٨
دباغ، عدنان ١٩٨
دو جوفنيل، هنري ١٦٢

ر

رستم أفندي ١٥٦
رسول، عفاف ملا ١٩٦
رشيد، صبحي ١٩٩، ٢٠٠
رمضان، جميل ١٩٣
رمو، شريف بك ١٦٩
الرواشدة، منصور ١٩٨
الروماني، رشيد بن عبد الله ١٧٨، ١٨٠

ز

زاميل (الدكتور) ١٢٥
الزعيم، حسني ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧

س

سبح، حسني ١٦٧
ستيفنسون، روبرت ١٢٤
السراج، عبد الحميد ١٩٧، ١٩٨
سلام، عبد الرحمن ١٥٨، ١٥٩، ١٦٨
سليم (السلطان) ٤٤
السمان، وجيه ١٦٧
السهروردي ٤١
سيفو، شتيوي ١٩٨

ش

الشاغوري، فتيان ١١٤
الشايب، فؤاد ١٩٣
الشربتجي، شكري ١٦٤
شرف، سامي ١٩٨
شوقي، أحمد ١١٠
الشيشكلي، أديب ١٩٢

ص

صاحب، عبد الحسين ١٨٠
صالحة، توفيق ١٩٨
صندوق، محمد ١٨٥

ط

الطرابلسي، أمجد ١٦٧
طلاس، مصطفى ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠
طوطح (الطبيب) ٦١

ع

العابد، حسن ١٩٥
العابد، عزت باشا ١٢٥
العادلي، أحمد زهير ١٩٨
عبد الله، إبراهيم ٦٨
عبد الحميد (السلطان) ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩
عبد الناصر، جمال ١٩٨
العجيلي، عبد السلام ٢٠٥، ٢٠٦
العسلي، فيصل ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧
العشي، سهيل ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥
العظم، خالد بك ١٩٣
العظم، خليل ٧١
عفلق، ميشيل ١٦٧، ١٩٦
عقل، سعيد ١٧، ١١٦
العلوي، هادي ٥٣
علي بن الحسين (الأمير) ١٣١
عناية، مسلم ١٦٨
عنبر، يوسف ١٥٦، ١٦٦

غ

الغزي، سعيد ١٦٧
الغفري، نصوح ١٩٧
غورو (الجنرال) ١٥٨، ١٥٩
غولمييه ١٦٠، ١٦٥

ف

فارحي، سليمان ٦٨
فخري باشا ١٣٠
فيروز ١٧، ١١٦، ١١٧، ٢٠٩
فيصل (الملك) ١٣١، ١٥٩

ق

القاسمي، ظافر ٧١، ١٦٤
القاسمي، محمد سعيد ٧١، ١١٣، ٢٠١
قدورة، بدري ١٦٧
قساطلي، نعمان ١١٠
قلعي، نهاد ٢٩
القوتلي، شكري ١٦٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤

ك

كيلاني، رياض ١٩٤، ١٩٥

ل

اللحام، أحمد ١٩٤
لحام، دريد ٢٩
لورنس ١٣١

م

المارديني، عارف ١٥٧
ماسينيون، لويس ٧١
المالكي، عدنان ١٩٨

المبارك، عبد القادر ١٦٨
المحاسني، زكي ١٦٧
محجوب، سلمية ١٤٣
محمود الثاني (السلطان) ٦٧
مرتضى، رشيد ١٨٠
مكي، حسن يوسف (السيد) ١٨٨
مكي، علي محمود (السيد) ١٨٨

ن

نظام، كامل ١٨٠
نعنع، ليندا ١٩٦

هـ

الهاشمي، جودت ١٦٥، ١٦٩

ي

يوليانوس (الإمبراطور) ٢٤

فهرس الأماكن

أ

الآستانة ١٢٥، ١٣٢، ١٥٦
الأردن ١٢٥، ١٣١، ١٣٣، ٢٢٩
إزمير ١٠٠
إسبانيا ٥٨، ١٥١
إسرائيل ٦٥، ٦٦، ١٣٢
إسطنبول ١٠٠
إشبيلية ٤١
أفغانستان ٧٣
ألمانيا ١٢٤
أميركا ٦٣
الأندلس ٥٨
أوروبا ١٥٠، ١٦٦
أوروبا الشرقية ٥٩
إيران ٦٥، ١٢٩، ١٨٠، ١٨١، ١٩٠

ب

باريس ١٥٠
باكستان ١٨٠، ١٩٠
البحر الأحمر ١٢٥، ١٣١
بطن الغور ١٢٥
بعلبك ١٨٠
بغداد ١٠٠
بلاد الشام ١٢٦، ١٣١، ١٥٠
البندقية ١٥١
بيروت ١٢٤، ١٣٣، ١٨٩، ١٩٨، ٢١٧

ت

تركيا ١٣١، ١٣٥، ٢٢٩
تونس ١٦٧

ج

جبال حرمون ١٦
جبال القلمون ١١٦
جبل الشيخ ١١١
جبل العرب ١٨٠
جبل قاسيون ١١٠، ٢٠٢
الجزائر ٤١، ١٦٧
الجزيرة العربية ١٢٥، ١٢٦، ١٣١
الجولان ١١٩

ح

الحجاز ٤١، ١٢٣، ١٢٨، ١٥٩
حلب ٤١، ١١٥، ١٢٤، ١٤٩
حمص ١٣، ١٢٤
حيفا ١٣٢

د

درعا ١٢٤، ١٣١، ١٣٣
دمشق ١١، ١٢، ١٣، ١٥، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٤٠، ٤١، ٤٦، ٥٥، ٥٧، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٧، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٩، ١٩١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩

ز

الزبداني ١١٦

س

السعودية ١٣٥
سهل حوران ١٢٤
سورية ٥٨، ٦١، ١١٥، ١١٧، ١٢٤، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٩

ش

الشام ١٨، ٢٥، ٣٤، ٣٩، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ١١٦، ١١٧

ص

الصين ١٥٠

ط

طرابلس ١٢٤

ع

العراق ٤٥، ٦٥، ١٢٨، ١٨٠، ١٨١، ١٩٠، ٢١٩
عمان ١٣١، ١٣٣، ١٣٤
العقبة ١٢٥
عمان ١٢٤

غ

الغوطة ١١١، ١١٢، ١١٩

ف

فرنسا ١٢٤، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٧، ١٩٣
فلسطين ٥٩، ٦٥، ٦، ١٠٠، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٨٠، ٢٠٤

ق

القاهرة ١٩٨
القدس ٣٩
قرية القدم ١٢٧
قناة السويس ١٢٥، ١٣١

ل

اللاذقية ٢٢٩
لبنان ٦٥، ١٠٠، ١٨٠، ١٨١، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٨، ٢٠٨، ٢٢٩
لندن ٢٣٩
لوزان ١٣٢
ليبيا ١٦٧

م

مدريد ٥٨
المدينة المنورة ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣
مراكش ٤١
مرسيه ٤١
مصر ٤١، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٥٠، ١٦٧
مكة المكرمة ١٢٥، ١٢٨
الموصل ٤١

ن

نبع الفيجة ١١٨
النجف ١٨٩
نهر الأردن ٣١، ١٢٦
نهر بانياس ١١٢
نهر بردى ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ٢٠٢
نهر تورا ١١٣
نهر دجلة ١١٩
نهر الفرات ١٩
نهر يزيد ١١٣

هـ

الهند ١٢٩، ١٥٠

و

وادي الزرقا ١٢٤
وادي العجم ١١٢
الولايات المتحدة الأميركية ١٢٤

ي

اليرموك ١٣٣
اليمن ١٢٥

زقاقيات دمشقية

سعاد جروس

كتبت سعاد جروس عن دمشق على طريقتها، كما هي موجودة على الأرض يختلط فيها الماضي بالحاضر، حيث التاريخ في جنباتها تسللت، إليه الحداثة مصحوبة بأحياء عشوائية، فكان كتابها نفحة من هنا ونفحة من هناك، تأخذنا إلى الأسواق، وتتجول بنا في الشوارع، وتزيح دخان النراجيل عن المقاهي، وتتعبد في المساجد والكنائس، وتغوص في المهن والحرف السورية، وتتبضع الأغباني، ونتذوق معها الطبيخ الشامي في السيارين على ضفة بردى، ونتسمع معها إلى نداءات الباعة الجوالين، تخالط المسلمين والمسيحيين في طقوسهم، ولا تنسى يهود دمشق قبل أن يرحلوا وما تركوه خلفهم بعد الرحيل. أزمنة تتساوق على خطوط متوازية تذهب إلى الهدف نفسه. قد لا تدري سعاد ما المقدار الذي كشفت فيه عن دمشق. الدمشقيون وحدهم يعرفون أنها تجاوزت الحدود المألوفة لمدينتهم التي لا تمنح الآخرين وجهها الحقيقي. لكن سعاد جروس ليست من الآخرين.

من مقدمة الكتاب

ISBN 9953-21-508-1
9 789953 215082
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS